موريس لوبلان

ARSENE LUPIN

أرسين لوبين

لغز السدادة الكريستال

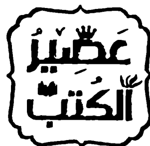




ترجمة: د. منال ممدوح

أرسين لوبين

لغز السدادة الكريستال





للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

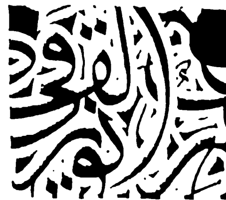
00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Le bouchon de cristal
- العنوان العربي: لغز السدادة الكريستال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/2025م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- تأليف: موريس لوبلان
- ترجمة: د. منال ممدوح
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- رقم الإيداع: 2024/28017م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-466-3



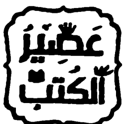
موريس لوبلان

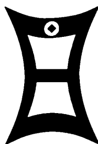
ARSENE LUPIN

أرسين لوبين

لغز السدادة الكريستال

ترجمة: د. منال ممدوح




مكتبة ضـــاد الإلكترونية
t.me/twinkling4



الفصل الأول

الاعتقال

كان القاربان يتأرجحان في الظل ومربوطَيْن بالرصيف الصغير الذي كان بجوار الحديقة. عبر الضباب الكثيف، كانت تُرى هنا وهناك نوافذ مضاءة على أطراف البحيرة. في الجهة المقابلة، كان كازينو إنغين يفيض بالأنوار. رغم أننا كنا في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، ظهرت بعض النجوم بين السحب، ورفعت نسمة خفيفة سطح الماء.

خرج أرسين لوبين من الكشك حيث كان يدخن سيجارة، وانحنى على طرف الرصيف ونادى: «جرونيار؟ لوبالو؟... أنتما هنا؟». ظهر رجل من كل قارب، وأجاب أحدهم: «نعم، سيدي».

- استعدا، أنا أسمع صوت السيارة تعود مع جلبير وفوشيراي.

عَبَر الحديقة، وحام حول منزل قيد الإنشاء يمكن تمييز سقالاته، وفتح بحذر الباب المؤدي إلى شارع سنتير. لم يكن مخطئًا: انبثق ضوء

ساطع عند المنعطف، وتوقفت سيارة كبيرة مكشوفة، منها قفز رجلان يرتدي كلٌّ منهما معطفًا ذا ياقة مرفوعة وقبعة. كان جلبير وفوشيراي. جلبير، شاب في العشرين أو الثانية والعشرين من العمر، بوجه لطيف، ومظهر رشيق وقوي. فوشيراي، أصغر قامة، شعره رمادي، وجهه شاحب يبدو عليه المرض. سأل لوبين: «حسنًا، هل رأيتما النائب؟». أجاب جلبير: «نعم، سيدي، لقد رأيناه يأخذ قطار الساعة السابعة إلا ثُلث إلى باريس، كما علمنا».

- إذًا، نحن أحرار في التصرف؟

- أحرار تمامًا. فيلا ماري تيريز تحت تصرفنا.

وبما أن السائق بقي في مقعده، قال له لوبين: «لا تتوقف هنا. قد يثير ذلك الانتباه. عُد في تمام الساعة التاسعة والنصف، في الوقت المناسب لتحميل السيارة... إذا لم تفشل المهمة بالطبع».

علق جلبير: «لماذا تعتقد أنها قد تفشل؟». غادرت السيارة. أجاب ولوبين، وهو يعود باتجاه البحيرة مع رفاقه الجدد: «لماذا؟ لأنني لست من خطط لهذه العملية، وعندما لا أكون أنا من خطط، فإن ثقتي تقل إلى النصف».

- آه! سيدي، لقد عملت معك لثلاث سنوات... بدأت أتعلم الأمور!

- نعم... يا فتى، أنت بدأت، وهذا بالضبط ما يجعلني أخاف الأخطاء... هيا، اصعد إلى القارب... وأنت يا فوشيراي، خذ القارب الآخر... حسنًا... الآن، ابدآ التجديف، يا رفاق... وبأقل قدر من الضجيج.

اتجه جرونيار ولوبالو، المجدفان، مباشرة نحو الضفة المقابلة، قليلًا إلى يسار الكازينو. في البداية، التقيا بقاربٍ كان يجلس فيه رجل وامرأة متعانقين؛ ثم بقاربٍ آخر كان هناك أشخاص يغنون بصوتٍ عالٍ.

ولم يكن هناك شيء آخر. اقترب لوبين من رفيقه وقال بصوت خافت: «قل لي يا جلبير، هل كانت فكرتك هذه العملية أم فكرة فوشيراي؟».

- في الحقيقة، لا أعرف بالضبط... لقد تحدثنا عنها معًا منذ أسابيع.

- أنا لا أثق بفوشيراي... لديه شخصية سيئة... مريب... أتساءل لماذا لم أتخلص منه بعد...

- أوه! سيدي!

- نعم! نعم! إنه رجل خطير... ناهيك بأن لديه بعض الأخطاء الجسيمة تتعلق بالضمير.

ظل صامتًا للحظة، ثم قال: «إذًا أنت متأكد من أنك رأيت النائب دوبريك؟».

- رأيته بعيني، سيدي.

- وتعلم أنه لديه موعد في باريس؟

- إنه ذاهب إلى المسرح.

- حسنًا، لكن خدمه بقوا في فيلته في إنغين...

- الطباخة فُصِلت. أما الخادم ليونار، الذي يثق به النائب دوبريك، فهو ينتظر سيده في باريس، حيث لا يمكنهم العودة قبل الساعة الواحدة صباحًا. ولكن...

- ولكن؟

- يجب أن نتوقع إمكانية أن يغير دوبريك رأيه، أو أن يحدث تغيير في مزاجه، أو أن يعود فجأة، وبالتالي يجب أن نتخذ التدابير اللازمة لإنهاء كل شيء خلال ساعة.

- وهل لديك هذه المعلومات؟...

- منذ هذا الصباح، رأينا، فوشيراي وأنا، أن الوقت مناسب. اخترت كنقطة انطلاق حديقة هذا المنزل قيد الإنشاء الذي تركناه للتو والذي ليس له حراسة ليلية. لقد أبلغت اثنين من الرفاق بتوجيه القوارب، وقمت بالاتصال بك. هذه هي القصة كلها.

- هل لديك المفاتيح؟

- مفاتيح المدخل الأمامي.

- إنها الفيلا التي يمكن رؤيتها هناك، المحاطة بحديقة؟

- نعم، فيلا ماري تيريز، وكما هو الحال مع الفيلتين الأخريين اللتين تُحيط بهما حدائق، لم تعد مأهولة منذ أسبوع، لذلك لدينا كل الوقت لنقل ما نشاء، وأقسم لك، سيدي، إن الأمر يستحق ذلك.

تمتم لوبين: «مغامرة سهلة للغاية. لا توجد أي إثارة فيها».

وصلوا إلى خليج صغير ترتفع منه بعض الدرجات الحجرية، محمية تحت سقف متآكل. قرر لوبين أن نقل الأثاث سيكون سهلًا. لكنه قال فجأة: «هناك أحد في الفيلا. انظرا... هناك ضوء».

- إنه مصباح غاز، سيدي... الضوء لا يتحرك...

بقي جرونيار قرب القوارب، مكلفًا بالمراقبة، بينما توجَّه لوبالو، المُجدف الآخر، إلى بوابة شارع سنتير، وزحف لوبين ورفيقاه في الظلام حتى أسفل الدرج. صعد جلبير أولًا. وبعد أن بحث بيديه، أدخل المفتاح أولًا في القفل، ثم في قفل الأمان. كلاهما عمل بسهولة، بحيث فُتِح الباب قليلًا وسمح للرجال الثلاثة بالدخول.

في المدخل، كان مصباح غاز مشتعلًا. قال جلبير: «انظر، سيدي...». قال لوبين بصوت منخفض: «نعم، نعم... لكن يبدو لي أن الضوء الذي كان يلمع لم يأتِ من هنا».

- من أين إذًا؟

- لا أعلم... هل الصالون هنا؟

أجاب جلبير، الذي لم يتردد في رفع صوته قليلًا: «لا، لا، لقد جمع النائب كل شيء في الطابق الأول، في غرفته والغرف المجاورة».

- وأين الدرج؟

- على اليمين، خلف الستارة.

اتجه لوبين نحو تلك الستارة، وكاد أن يزيح القماش عندما، فجأة، على بعد أربع خطوات إلى اليسار، انفتح باب وظهرت رأس، رأس رجل شاحب، بعينين مرعوبتين. صرخ الرجل: «النجدة! قاتل!». وعاد بسرعة إلى الغرفة. صرخ جلبير: «إنه ليونار! الخادم». قال فوشيراي: «إذا تلاعب، سأقتله». أمره لوبين، وهو يندفع لملاحقة الخادم: «ستلتزم الصمت، فوشيراي، اتفقنا؟». عبر غرفة طعام أولًا، حيث كانت لا تزال هناك أطباق وزجاجة بجوار المصباح، وعثر على ليونار في نهاية المطبخ وهو يحاول عبثًا فتح النافذة.

- لا تتحرك، أيها الفنان! لا تحاول اللعب!... آه! الوغد!

اندفع نحو الأرض بحركة سريعة عندما رأى ليونار يرفع ذراعه نحوه. سُمِع صوت ثلاث طلقات في ظلمة المطبخ، ثم سقط الخادم بعد أن أمسكه لوبين من ساقيه وانتزع منه سلاحه وقبض على عنقه. تمتم: «أيها الوغد!... كان سيفتتني... فوشيراي، اربط هذا السيد الأنيق». بمصباحه اليدوي، أضاء لوبين وجه الخادم وسخر: «ليس وجهًا جميلًا... لا بد أنك لا تملك ضميرًا نقيًا، ليونار؛ علاوة على ذلك، لأنك خادم النائب دوبريك... هل انتهيت يا فوشيراي؟ لا أريد أن أمكث هنا طويلًا!». قال جلبير: «لا يوجد خطر يا سيدي».

- آه! حقًّا... وتعتقد أن الطلقات لم تُسمع؟...

- مستحيل تمامًا.

- مهما يكن! علينا أن نسرع. فوشيراي، خذ المصباح واصعد.

أمسك لوبين بذراع جلبير، وسحبه نحو الطابق الأول: «أيها الأحمق! هكذا تستعلم؟ ألم أكن محقًّا في عدم الثقة؟».

- سيدي، لم أكن أعلم أنه سيغير رأيه ويعود للعشاء.

- عندما تتجرأ على سرقة الناس، يجب أن تعرف كل شيء. يا لها من صفقة، سأحتفظ بكما، فوشيراي وأنت... لديكما أسلوب...

رؤية الأثاث في الطابق الأول هدأت من غضب لوبين، وبدأ في جرد ممتلكاته بسرور خبير اقتنى للتو بعض الأشياء الفنية: «يا إلهي! ليست بالكثير، لكنها رائعة. هذا الممثل للشعب لديه ذوق رفيع... أربعة كراسي من أبسون (Aubusson)... مكتب موقَّع، أراهن أنه من برسيه فونتان (Percier-Fontaine)... شمعدانان من جوتير (Gouttières)... لوحة حقيقية من فراجونار (Fragonard)، ونسخة مزيفة من ناتيه (Nattier) قد يبتلعها ملياردير أمريكي دون تردد... باختصار، ثروة. وهناك المتذمرون الذين يدَّعون أنه لم يعد بالإمكان العثور على شيء أصيل. يا للهول! عليهم أن يفعلوا مثلي! عليهم أن يبحثوا كما أفعل!».

بناءً على أوامر لوبين وتوجيهاته، بدأ جلبير وفوشيراي فورًا في إزالة الأثاث الأكبر حجمًا بطريقة منهجية. بعد نصف ساعة، عندما امتلأ القارب الأول، تقرر أن يغادر جرونيار ولوبالو مبكرًا لبدء تحميل السيارة. لوبين أشرف على رحيلهم. في أثناء عودته إلى المنزل، بدا له، وهو يمر في المدخل، أنه سمع صوت حديث، من جهة المطبخ. توجه إلى هناك. كان ليونار وحيدًا بالفعل، مستلقيًا على بطنه ويداه مكبلتَيْن خلف ظهره: «إذًا، أنت الذي تصرخ، أيها الخادم المخلص! لا تقلق. الأمر

يكاد ينتهي. فقط، إذا صرخت بصوتٍ عالٍ جدًّا، ستجبرنا على اتخاذ إجراءات أكثر قسوة... هل تحب الكمثرى؟ قد نضع لك واحدة...».

عندما هَمَّ بالصعود مرة أخرى، سمع صوت الكلام نفسه مرة أخرى، وعندما أصغى أكثر، سمع هذه الكلمات تُقال بصوت خشن ومتألم، والتي جاءت بالتأكيد من المطبخ: «النجدة! قاتل! النجدة! سيقتلونني... أبلغوا الشرطة!». تمتم لوبين: «مجنون تمامًا، هذا الرجل. تبًّا... إزعاج الشرطة في التاسعة مساءً، يا لها من وقاحة!».

عاد للعمل. استغرق الأمر وقتًا أطول مما كان يعتقد، لأنهم اكتشفوا في الخزائن بعض القطع القيمة التي كان من العيب تجاهلها، ومن جهة أخرى، كان فوشيراي وجلبير يبدوان دقة في البحث بشكلٍ أدهشه. في النهاية، فقد صبره. أمرهما: «كفى! لن نخرب العملية ونترك السيارة متوقفة من أجل بعض الأشياء البسيطة التي تبقت. سأغادر».

عندما وصلوا عند حافة الماء، وكان لوبين ينزل السلم، أوقفه جلبير: «سيدي، نحتاج إلى الذهاب مرة أخرى... خمس دقائق، لا أكثر».

- ولكن لماذا، بحق الجحيم!

- حسنًا... سمعنا عن صندوق ذخيرة قديم... شيء رائع...

- وماذا بعد؟

- لم نستطع العثور عليه. وأعتقد أنه في المطبخ... هناك خزانة بقفل كبير... تفهم أنه لا يمكننا...

كان قد بدأ بالفعل في العودة إلى السلم الأمامي. اندفع فوشيراي أيضًا. صرخ لهما لوبين: «عشر دقائق... ليس أكثر، في غضون عشر دقائق، سأغادر». لكن العشر دقائق مرَّت، ولم يزل ينتظر. نظر إلى ساعته. قال لنفسه: «التاسعة والربع... هذا جنون». بالإضافة إلى ذلك،

كان يفكر في أن جلبير وفوشيراي قد تصرفا بطريقة غريبة طوال هذا الوقت، لم يفترقا وكأنهما يراقبان بعضهما بعضًا. ماذا كان يحدث؟ بهدوء، كان لوبين يعود إلى المنزل، مدفوعًا بقلق لم يكن يفهمه، وفي الوقت نفسه، كان يسمع صوتًا مكتومًا يأتي من بعيد، من جهة فيلا إنغين، ويبدو أنه يقترب... ربما كان متجولون...

أطلق صافرة فجأة، ثم توجَّه نحو البوابة الرئيسية لإلقاء نظرة على محيط الشارع. لكن فجأة، عندما كان يفتح الباب، سمع دوي طلقة نارية، تبعها صرخة ألم. عاد راكضًا، ودار حول المنزل، صعد السلم واندفع نحو غرفة الطعام: «تبًّا لكما! ماذا تفعلان هنا، كلاكما؟». كان جلبير وفوشيراي يتصارعان بجنون، يتدحرجان على الأرض مع صرخات من الغضب. كانت ملابسهما مغطاة بالدم. قفز لوبين نحوهما. ولكن بالفعل كان جلبير قد صرع خصمه وانتزع من يده شيئًا لم يتمكن لوبين من تمييزه. ومع ذلك، فقد فوشيراي وعيه من نزيف في كتفه. سأل لوبين بغضب: «من أصابه؟ أنت يا جلبير؟».

- لا... ليونار.

- ليونار! كان مقيدًا...

- فك قيوده وأخذ مسدسه مجددًا.

- اللعين! أين هو؟

أمسك لوبين بالمصباح واتجه نحو المطبخ. كان الخادم مستلقيًا على ظهره، وذراعاه ممدودتين، وخنجر مغروز في حلقه، ووجهه شاحب. كان سيل أحمر يسيل من فمه. تمتم لوبين بعد أن فحصه: «آه!... لقد مات!». قال جلبير بصوت مرتجف: «هل تعتقد... هل تعتقد...؟».

- مات، قلت لك.

تمتم جلبير: «إنه فوشيراي... هو من ضربه...». أمسكه لوبين بغضب شديد: «إنه فوشيراي... وأنت أيضًا، أيها الوغد، لأنك كنت هنا وسمحت له بذلك... دم! دم! أنتما تعلمان جيدًا أنني لا أريده. أفضل أن أُقتل ولا يحدث هذا. آه! تبًّا لكما، أيها الشابان... ستدفعان الثمن إذا لزم الأمر. وهذا يكلف غاليًا... احذرا المقصلة!». كانت رؤية الجثة تهزه بشدة، هزَّ جلبير بعنف: «لماذا؟... لماذا قتل فوشيراي هذا الرجل؟».

- أراد أن يفتشه ويأخذ منه مفتاح الخزانة. عندما انحنى فوقه، رأى أن الآخر قد حرر ذراعيه... فخاف... وضربه.
- ولكن ماذا عن طلقة المسدس؟
- إنها من ليونار... كان يحمل السلاح في يده... قبل أن يموت، كان لا يزال لديه القوة ليصوب...
- ومفتاح الخزانة؟
- أخذه فوشيراي...
- هل فتح الخزانة؟
- نعم.
- وهل وجد ما كان يبحث عنه؟
- نعم.
- وأنت، هل حاولت انتزاع الشيء منه؟... التابوت؟ لا، كان أصغر... إذًا، ماذا كان؟ أجبني...

من صمت جلبير وتعبيره العازم، فهم لوبين أنه لن يحصل على إجابة. بنبرة تهديدٍ في صوته، قال: «ستتحدث، يا فتى. على شرف لوبين، سأجعلك تتفوه باعترافك. لكن الآن، علينا أن نهرب. هيا، ساعدني... سنحمل فوشيراي...». عادوا إلى الغرفة، وانحنى جلبير فوق

الجريح، عندما أوقفه لوبين: «استمع!». تبادل الاثنان نظرة قلقة. كان هناك حديث في المطبخ... صوت خافت، غريب، وبعيد جدًّا... ومع ذلك، تأكدوا على الفور أنه لم يكن هناك أحد في الغرفة، لا أحد غير القتيل الذي كان يظهر ظله الداكن.

ثم تحدث الصوت مرة أخرى، متناوبًا بين النبرة العالية والخافتة، المرتعشة، غير المنتظمة، والصاخبة، المرعبة. كان ينطق بكلمات غير واضحة، مقاطع مقطعة. شعر لوبين أن رأسه يغمره العرق. ما هذا الصوت غير المتسق، الغامض كأنه صوت من العالم الآخر؟ انحنى فوق الخادم. توقف الصوت، ثم بدأ من جديد. قال لجلبير: «أنر لي بشكل أفضل». كان يرتعش قليلًا، مشوشًا بخوف عصبي لم يستطع السيطرة عليه، لأنه لم يكن هناك أي شك: عندما أزال جلبير غطاء المصباح، اكتشف أن الصوت كان يخرج من الجثة نفسها، دون أن يهتز الجسد الهامد، ودون أن يرتعش الفم الدامي. تمتم جلبير: «سيدي، أشعر بالخوف». سُمِع الصوت نفسه مرة أخرى، الهمس الأنفي نفسه. ضحك لوبين بصوتٍ عالٍ، وسرعان ما أمسك بالجثة وحركها. قال وهو يرى شيئًا معدنيًا يلمع: «ممتاز، ممتاز، ها قد وصلنا... حسنًا، لقد استغرق الأمر وقتًا!».

كان الشيء الذي اكتشفه، هو مستَقبِل سماعة هاتفية، وكان السلك يرتفع إلى الجهاز المثبت على الحائط، في الارتفاع المعتاد. وضع لوبين السماعة على أذنه. فورًا، عاد الصوت مرة أخرى، لكنه كان متعددًا، يتألف من مكالمات مختلفة، من نداءات وتداخل أصوات، الصوت الذي يصدره عدة أشخاص يتبادلون الكلام: «هل تسمعنا؟ إنه لا يجيب... هذا مروع... لا بد أنهم قتلوه... هل تسمعنا؟ ما الأمر؟ تشجع... المساعدة

قادمة... رجال الشرطة... الجنود...». قال لوبين، وهو يترك السماعة: «يا إلهي!».

في رؤية مرعبة، انكشفت له الحقيقة. في البداية، وبينما كانوا ينقلون المسروقات، كان ليونار، الذي لم تكن قيوده محكمة، قد نجح في الوقوف، ورفع السماعة، ربما بأسنانه، وأسقطها وطلب المساعدة من مكتب الهاتف في إنغين. وكانت هذه الكلمات التي سمعها لوبين من قبل، بعد مغادرة القارب الأول: «النجدة... قاتل! سيقتلونني...». والآن جاء الرد من مكتب الهاتف. كانت الشرطة تقترب. وتذكر لوبين الأصوات التي سمعها من الحديقة، منذ أربع أو خمس دقائق فقط. صرخ وهو يندفع عبر غرفة الطعام: «الشرطة... اهرب». اعترض جلبير: «وفوشيراي؟».

- دعه لمصيره.

لكن فوشيراي، الذي أفاق من ذهوله، توسل إليه وهو يمر: «سيدي، لا تتركني هكذا!». توقف لوبين، رغم الخطر، وبمساعدة جلبير، بدأ يرفع الجريح، حينما حدثت فوضى في الخارج. قال لوبين: «فات الأوان!».

في تلك اللحظة، سمعوا طرقًا يهز باب المدخل الذي يفتح على الواجهة الخلفية. ركض لوبين نحو الباب الأمامي: كان الرجال قد داروا حول المنزل واندفعوا نحوه. ربما كان بإمكانه أن يتقدم قليلًا ويصل إلى حافة الماء مع جلبير. ولكن كيف يمكنهما الصعود على القارب والهرب تحت نيران الشرطة؟ أغلق الباب وأحكم القفل. تمتم جلبير: «نحن محاصران... لقد انتهينا...». قال لوبين: «اصمت!».

- لكنهم رأونا يا سيدي. انظر، إنهم يطرقون الباب.

كرر لوبين: «اصمت... ولا كلمة واحدة... ولا حركة». ظل هو نفسه هادئًا، وجهه هادئ تمامًا، وكان يتخذ موقفًا متأملًا كمن لديه كل الوقت

اللازم لتفحص موقف دقيق من جميع جوانبه. كان يجد نفسه في واحدة من تلك اللحظات التي كان يسميها «**أغلى الدقائق في الحياة**»، التي تمنح الوجود قيمته وثمنه. في مثل هذه الحالة، ومهما كان الخطر المهدد، كان يبدأ دائمًا بالعد داخليًّا وببطء: «واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة... خمسة... ستة»، حتى يعود نبض قلبه إلى طبيعته وانتظامه. عندها فقط، كان يفكر، لكن بحدة كبيرة! بقوة هائلة! وبإحساس عميق بالأحداث المحتملة! كانت جميع جوانب المشكلة تتجلى أمام ذهنه. كان يتوقع كل شيء، وكان يقبل بكل شيء. وكان يتخذ قراره بكل منطق ويقين.

بعد ثلاثين أو أربعين ثانية، بينما كان الطرق مستمرًّا على الأبواب ومحاولات فتح الأقفال مستمرة، قال لرفيقه: «اتبعني». عاد إلى الصالون وفتح بهدوء نافذة تطل على الجانب، ورفع الستائر. كان هناك أشخاص يتحركون ذهابًا وإيابًا، مما جعل الهروب مستحيلًا. عندها بدأ يصرخ بأعلى صوته وبصوت لاهث: «من هنا! المساعدة! لقد أمسكت بهم... من هنا!». وجَّه مسدسه وأطلق طلقتين نحو أغصان الأشجار. ثم عاد إلى فوشيراي، وانحنى عليه ولطخ يديه ووجهه بدماء الجرح. ثم استدار فجأة نحو جلبير بقسوة وأمسكه من كتفيه وطرحه أرضًا: «ماذا تفعل يا سيدي؟ ما هذه الفكرة؟». قال لوبين بنبرة حازمة: «دعني أتصرف، أتحمل مسؤولية كل شيء... أتحمل مسؤولية كلاكما... دعني أتصرف... سأخرجكما من السجن... لكن من أجل ذلك، يجب أن أكون حرًّا».

كان الناس يتحركون وينادون تحت النافذة المفتوحة. صرخ: «من هنا، لقد أمسكت بهم! المساعدة!». ثم قال بهدوء: «فكر جيدًا... هل لديك شيء لتخبرني به؟... معلومة يمكن أن تفيدنا...».

كان جلبير يكافح، غاضبًا، ومضطربًا جدًّا لفهم خطة لوبين. أما فوشيراي، الذي كان أكثر إدراكًا للوضع، ولأنه فقد الأمل في الهروب بسبب جرحه، فقد قال ساخرًا: «دعه يفعل، أيها الغبي... ما دام السيد سيخرج من الورطة... أليس هذا هو الأهم؟». فجأة، تذكر لوبين الشيء الذي وضعه جلبير في جيبه بعد أن استعاده من فوشيراي. حاول أن يأخذه بنفسه. صرخ جلبير الذي تمكن من الإفلات: «آه، مستحيل!». أوقعه لوبين أرضًا مرة أخرى. لكن فجأة، عندما ظهر رجلان عند النافذة، استسلم جلبير وأعطى الشيء للوبين، الذي وضعه في جيبه دون أن ينظر إليه، وهمس: «ها هو، سيدي، سأشرح لك... يمكنك أن تكون متأكدًا أن...».

لم يستطع إكمال كلامه... كان هناك رَجُلا شرطة، وآخرون يتبعونهما، وجنود يدخلون من جميع المداخل، يهرعون لإنقاذ لوبين. أمسكوا جلبير وربطوه بإحكام على الفور. نهض لوبين وقال: «لقد كان الأمر صعبًا، لقد أوقعني هذا الرجل في الكثير من المتاعب، لقد جرحت الآخر، لكن هذا...»: سارع ضابط الشرطة بسؤاله: «هل رأيت الخادم؟ هل قتلوه؟». أجاب لوبين: «لا أعرف».

- لا تعرف؟

- بالطبع! لقد جئت من إنغين معكم جميعًا عندما سمعنا عن الجريمة. ولكن بينما كنتم تدورون حول الجانب الأيسر من المنزل، كنت أدور حول الجانب الأيمن. كانت هناك نافذة مفتوحة. صعدت إليها في اللحظة التي كان هذان المجرمان يحاولان النزول منها. أطلقت النار على هذا -وأشار إلى فوشيراي- وأمسكت برفيقه.

كيف يمكن أن يُشتبه به؟ لقد كان مغطى بالدم. إنه هو الذي سلم قتلة الخادم. عشرة أشخاص شهدوا نهاية المعركة البطولية التي خاضها.

ومع ذلك، كانت الفوضى كبيرة جدًّا بحيث لم يكن هناك وقت للتفكير أو الشك في صحة تصريحات لوبين. في الفوضى الأولى، اقتحم سكان البلدة الفيلا. الجميع كان في حالة من الهلع. كانوا يركضون في كل اتجاه، صعودًا ونزولًا، حتى إلى القبو. كان الجميع يتنادون ويصرخون، ولم يفكر أحد في التحقق من صحة أقوال لوبين التي بدت معقولة جدًّا.

ومع ذلك، فإن اكتشاف الجثة في المطبخ أعاد إلى المفوض شعورًا بالمسؤولية. أعطى أوامر عند البوابة حتى لا يتمكن أحد من الدخول أو الخروج. ثم، دون تأخير، بدأ في تفقد المكان وبدأ التحقيق.

صرح فوشيراي باسمه. جلبير رفض أن يصرح باسمه، بحجة أنه سيتحدث فقط بحضور محامٍ. ولكن عندما اتُّهِم بالجريمة، أبلغ عن فوشيراي، الذي دافع عن نفسه بمهاجمته، وكان كلاهما يتجادلان في الوقت نفسه، مع رغبة واضحة في جذب انتباه المفوض. وعندما التفت المفوض إلى لوبين لطلب شهادته، أدرك أن الشخص الغريب لم يعد موجودًا. دون أي شك، قال لأحد الضباط: «أخبروا هذا السيد أنني أرغب في طرح بعض الأسئلة عليه».

بحثوا عن هذا السيد. رأى شخص ما أنه كان يقف عند المدخل يشعل سيجارة. وعرفوا بعد ذلك أنه قدم سجائر لمجموعة من الجنود، وأنه ابتعد نحو البحيرة، قائلًا إنه يمكن استدعاؤه إذا دعت الحاجة. نادوه، لكن لم يرد. ثم ركض أحد الجنود. لكن السيد كان قد صعد للتو في قارب وبدأ في التجديف بقوة. نظر المفوض إلى جلبير وفهم أنه قد خُدِع. صرخ: «أمسكوا به!... أطلقوا النار عليه! إنه شريك في الجريمة...». واندفع هو نفسه، يتبعه اثنان من الضباط، بينما بقي الآخرون بجانب المعتقلَيْن. من الضفة، رأى على بعد مئة متر تقريبًا السيد الذي كان يلوح بقبعته

في الظلام. عبثًا، أطلق أحد الضباط النار من مسدسه. وجلب النسيم صوت غناء السيد وهو يجدف: «اذهب أيها الصغير، الريح تدفعك...».

لكن المفوض لاحظ وجود قارب، مربوط عند الرصيف المجاور للعقار. تمكنوا من عبور السياج الذي يفصل بين الحديقتين، وبعد أن أمر الجنود بمراقبة شواطئ البحيرة والقبض على الهارب إذا حاول الهبوط، بدأ المفوض واثنان من رجاله في مطاردته. كانت المهمة سهلة نسبيًّا، لأنه في ضوء القمر المتقطع، كان يمكنهم تمييز تحركاته، وفهم أنه يحاول عبور البحيرة بينما يميل إلى اليمين، أي باتجاه قرية سان جراتيان. وبسرعة، لاحظ المفوض أنه بفضل مساعدة رجاله، وربما بفضل خفة قاربه، كان يكتسب سرعة. في عشر دقائق، تمكّن من تقليص نصف المسافة. قال: «هذا جيد، لن نحتاج حتى إلى الجنود لمنعه من الهبوط. أنا مهتم بمعرفة هذا الرجل. لديه جرأة معينة».

ما كان أكثر غرابة هو أن المسافة كانت تتقلص بشكل غير طبيعي، كما لو أن الهارب قد شعر باليأس عندما أدرك أن المقاومة كانت عديمة الجدوى. زادت جهود رجال الشرطة، وانزلق القارب عبر الماء بسرعة فائقة. بقيت مئة متر أخرى فقط للوصول إلى الرجل. أمر المفوض: «توقف!».

لم يتحرك العدو، الذي كانت صورته الظلية مميزة، ولم يكن يحرك ساكنًا. كانت المجاديف تطفو على سطح الماء. وكان لهذا الجمود شيء مقلق. مجرم من هذا النوع قد ينتظر المهاجمين، ويدافع عن حياته بأغلى ثمن، بل قد يطلق النار عليهم قبل أن يتمكنوا من الهجوم. صرخ المفوض آمرًا: «استسلم!».

كانت الليلة مظلمة في ذلك الوقت. قرفص الرجال الثلاثة في قاع قاربهم، لأنهم ظنوا أنهم شاهدوا حركة تهديد. كان القارب يقترب من

الآخر بسرعة. تذمر المفوض: «لن نسمح له بإطلاق النار علينا. لنطلق النار عليه، هل أنتم مستعدون؟». وصاح مرة أخرى: «استسلم... وإلا...». لم يكن هناك رد. لم يتحرك العدو: «استسلم... ألقِ أسلحتك... لا تريد؟... إذًا، آسف... سأعد... واحد... اثنان...».

لم ينتظر رجاله الأمر. أطلقوا النار، وفي الحال، انحنوا على مجاديفهم وأعطوا القارب دفعة قوية، بحيث وصلوا إلى الهدف في عدة ضربات فقط. كان المفوض يراقب الوضع، مسدسه في يده، منتبهًا لأية حركة. مدَّ ذراعيه وقال: «حركة واحدة، وسأفجر رأسك». لكن العدو لم يتحرك، وعندما وصلوا، وأعدوا أنفسهم للاشتباك، فهم المفوض سبب هذا الجمود: لم يكن هناك أحد في القارب. لقد هرب العدو سابحًا، تاركًا للمنتصر عددًا من الأشياء المسروقة، التي كانت مكدسة بعضها فوق بعض، وقد غطتها سترة وقبعة، مما جعلها في الظلام ظاهرة كظل شخص ما.

في ضوء الثقاب، فحصوا غنائم العدو. لم يكن هناك أي حروف أولية محفورة داخل القبعة. السترة لم تحتوِ على أوراق أو محفظة. ومع ذلك، اكتُشِف شيء سيعطي القضية أهمية كبيرة ويؤثر بشكل رهيب على مصير جلبير وفوشيراي. كان ذلك الشيء بطاقة تركها الهارب في أحد الجيوب، بطاقة باسم أرسين لوبين.

في الوقت نفسه تقريبًا، بينما كانت الشرطة تجر القارب المضبوط وتستمر في بحثها غير المجدي، والجنود المنتشرون على طول الشاطئ، غير نشطين، يحاولون رؤية تفاصيل المعركة البحرية، كان أرسين لوبين نفسه يصل بهدوء إلى المكان الذي غادره قبل ساعتين.

استقبله هناك رفاقه الآخرون، جرونيار ولوبالو. ألقى إليهم ببعض التوضيحات بسرعة، واستقر في السيارة بين الكراسي والأغراض

المسروقة من النائب دوبريك، ولفَّ نفسه بالفراء، وطلب من السائق أن يقوده عبر الطرق الصحراوية إلى مستودعه في نويي، حيث ترك السائق. أعاده تاكسي إلى باريس وتوقف بالقرب من سانت-فيليب-دو-رول.

كان يمتلك بالقرب من هناك، في شارع ماتينيون، شقة في الطابق الأرضي مع مخرج خاص، دون علم أي شخص من عصابته، باستثناء جلبير. كان من السرور أن يستبدل ملابسه ويدفئ جسده. لأنه، على الرغم من قوته البدنية، فإنه شعر بالبرد الشديد. وكعادته كل ليلة قبل النوم، أفرغ محتويات جيوبه على المدفأة. حينها فقط لاحظ، بالقرب من محفظته ومفاتيحه، الشيء الذي أعطاه له جلبير في اللحظة الأخيرة.

وكانت المفاجأة كبيرة. كان ذلك الشيء سدادة زجاجية لزجاجة، سدادة صغيرة من الكريستال، كالتي توضع على زجاجات الخمور. ولم يكن لتلك السدادة أي شيء مميز. لاحظ لوبين بالكاد أن رأسها المزخرف كان مطليًّا بالذهب حتى عنقها المركزي. ولكن في الحقيقة، لم يكن هناك شيء لافت للنظر. قال: «هذه هي قطعة الزجاج التي كان جلبير وفوشيراي متمسكَيْن بها بشدة؟ وهذا هو السبب في أنهما قتلا الخادم، وتقاتلا، وأضاعا وقتهما، وخاطرا بالسجن... بالمحكمة... بالمقصلة؟... يا لها من مزحة!».

متعبًا للغاية، رفض الاستمرار في تخمين هذه القضية، رغم أنها بدت له مثيرة. وضع السدادة على المدفأة وذهب إلى الفراش. عانى أحلامًا سيئة. كان يرى في المنام جلبير وفوشيراي راكعَيْن على أرضيات الزنازين، يمدان أيديهما إليه بذعر ويصرخان بأصوات مليئة بالرعب: «النجدة!... النجدة!».

ولكن على الرغم من كل جهوده، فإنه لم يستطع التحرك. كان هو نفسه مقيدًا بقيود غير مرئية. ومرتعبًا، مهووسًا برؤيا مرعبة، شهد الاستعدادات الجنائزية، وتجهيز المحكوم عليهما، والدراما الكئيبة. قال لنفسه عندما استيقظ بعد سلسلة من الكوابيس: «تبًّا!» يا لها من نُذُر سيئة. لحسن الحظ، نحن لا نعاني ضعفًا روحانيًّا! وإلا...». وأضاف: «لدينا هنا، على أي حال، تعويذة، إذا أُخِذَت بعين الاعتبار تصرفات جلبير وفوشيراي، ستكفي، بمساعدة لوبين، لدرء الحظ السيئ وتحقيق النصر. لنلقي نظرة على هذه السدادة الكريستال».

نهض ليأخذ الشيء ويدرسه بعناية أكبر. انطلقت منه صرخة. السدادة الكريستال كانت قد اختفت...

الفصل الثاني

ثمانية من تسعة، يبقى واحد

هناك شيء غريب، على الرغم من علاقاتي الجيدة مع لوبين والثقة التي منحني إياها في مناسبات عديدة، فإن ما لم أتمكن قط من فهمه بشكل كامل: وهو تنظيم عصابته.

وجود هذه العصابة لا شك فيه. بعض المغامرات لا يمكن تفسيرها إلا بتفانٍ لا مثيل له، وطاقة لا تقاوم، وتواطؤات قوية، كل هذه القوى تخضع لإرادة واحدة هائلة. ولكن كيف تُمارس هذه الإرادة؟ بأي وسطاء أو مرؤوسين؟ لا أعرف. لوبين يحتفظ بهذا السر، والأسرار التي يريد لوبين الاحتفاظ بها تكاد تكون عصيَّة على الاختراق.

الاحتمال الوحيد الذي يمكنني طرحه هو أن هذه العصابة، والتي أعتقد أنها محدودة العدد وبالتالي أكثر رهبة، تكتمل بإضافة وحدات مستقلة، أعضاء مؤقتين مأخوذين من جميع الأوساط وجميع البلدان، وهم وكلاء تنفيذ لسلطة قد لا يعرفونها حتى. بين هؤلاء والسيد، يتنقل

الرفاق، والمطلعون، والمخلصون، أولئك الذين يلعبون الأدوار الرئيسية تحت القيادة المباشرة للوبين.

كان جلبير وفوشيراي بلا شك من بين هؤلاء. ولهذا السبب، كانت العدالة صارمة للغاية تجاههم. للمرة الأولى، كان لديها في قبضتها شركاء لوبين، شركاء حقيقيين، لا يمكن إنكارهم، وهؤلاء الشركاء ارتكبوا جريمة قتل! إذا ثبت أن هذه الجريمة كانت متعمدة، وإذا أمكن إثبات تهمة القتل على أساس أدلة قوية، فكان المصير هو المقصلة. وكان هناك على الأقل دليل واحد واضح: نداء ليونار الهاتفي قبل دقائق من وفاته: «النجدة، القاتل... سيقتلونني». سمع هذا النداء اليائس شخصان، الموظف الذي كان في الخدمة وأحد زملائه، اللذان شهدا بشكل قاطع. وعلى إثر هذا النداء، أُبلغ مفوض الشرطة على الفور، فتوجَّه إلى فيلا ماري-تيريز مع رجاله ومجموعة من الجنود.

منذ الأيام الأولى، كان لوبين على علم دقيق بالخطر. المعركة الشرسة التي خاضها ضد المجتمع دخلت مرحلة جديدة ومروعة. الأمر هذه المرة كان مختلفًا، الأمر هذه المرة يتعلق بجريمة قتل، عمل يرفضه لوبين نفسه، وليس مجرد عملية سرقة ممتعة حيث، بعد أن يعيد توزيع الثروة من بعض الفاسدين، يتمكن من كسب دعم الجمهور وتأييده. هذه المرة، لم يكن الأمر يتعلق بالهجوم، بل بالدفاع وإنقاذ حياة رفيقيه.

ملاحظة صغيرة نسختها من أحد دفاتره كان يشرح فيها ويختصر الأوضاع التي تثير قلقه، وتُظهر لنا سلسلة من تأملاته:

«أولًا وقبل كل شيء، هناك يقين: جلبير وفوشيراي تلاعبا بي. كانت المهمة في إنغين، والتي بدت في الظاهر موجهة لسرقة فيلا ماري-تيرين، تهدف في الواقع إلى شيء آخر. خلال جميع العمليات، كان هذا الهدف يسيطر عليهما. تحت الأثاث وفي أعماق الخزائن لم يبحثا

إلا عن شيء واحد، ولا شيء آخر، السدادة الكريستال. لذلك، إذا كنتُ أريد أن أفهم الأمور بوضوح، يجب أن أعرف أولًا ما الذي يجعل هذا الشيء ذا قيمة كبيرة بالنسبة إليهما. من المؤكد أنه لسبب ما، هذا الشيء الزجاجي الغامض له قيمة كبيرة... وليس فقط في أعينهما، لأن شخصًا ما، في تلك الليلة، تجرأ وكان بارعًا بما يكفي للتسلل إلى شقتي وسرقة هذا الشيء».

كانت هذه السرقة تثير حيرة لوبين بشدة. كانت هناك مشكلتان، كلتاهما غير قابلة للحل، تطاردان ذهنه. أولًا، من كان الزائر الغامض؟ جلبير وحده، الذي كان يحظى بثقته الكاملة وكان يعمل كسكرتير خاص له، وكان يعرف ملجأ شارع ماتينيون، كان في السجن. هل يجب أن يفترض أن جلبير، بخيانته، أرسل الشرطة في أثره؟ في هذه الحالة، لماذا لم يُقبَض عليه، بدلًا من الاكتفاء بأخذ السدادة الكريستال؟

ولكن كان هناك شيء أكثر غرابة. حتى إذا افترضنا أن المتسلل اقتحم أبواب شقته -وهذا ما كان عليه أن يقبله، رغم أنه لا دليل يثبته- فكيف تمكن من الدخول إلى الغرفة؟ ككل ليلة، وحسب عادة لم يتخلَّ عنها قط، كان قد أغلق الباب بالمفتاح ووضع القفل. ومع ذلك، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها، اختفت السدادة الكريستال دون أن يُلمس القفل أو المفتاح. ورغم أن لوبين كان يعتقد أن لديه أذنًا قوية السمع، حتى في أثناء نومه، فلم يوقظه أي ضجيج.

لم يبحث كثيرًا. كان يعرف الكثير عن هذا النوع من الألغاز ليتوقع ألا يُحَلَّ هذا اللغز إلا عبر تسلسل الأحداث. لكن، قلق للغاية ومضطرب، أغلق شقته في شارع ماتينيون على الفور، متعهدًا ألا يعود إليها مرة أخرى. وعلى الفور بدأ يهتم بالتواصل مع جلبير وفوشيراي.

من هذا الجانب، كان ينتظر لوبين خيبة أمل جديدة. قررت العدالة، رغم أنها لم تتمكن من إثبات تواطؤ لوبين بشكل جدي، أن تُجرى المحاكمة، ليس في منطقة سين-إي-واز، بل في باريس، وأن تُضاف إلى التحقيق العام المفتوح ضد لوبين. وهكذا، احتُجِز جلبير وفوشيراي في سجن سانتيه. هناك، وكما هو الحال في قصر العدل، كان الجميع مدركين تمامًا أنه يجب منع أي اتصال بين لوبين والمعتقلَيْن، لذلك وُضِعت مجموعة من التدابير الدقيقة التي أمر بها محافظ الشرطة ونُفِّذت بعناية من قِبل الموظفين. ليلًا ونهارًا، كان ضُباط مختارون، ودائمًا الأشخاص أنفسهم، يراقبون جلبير وفوشيراي ولم يتركوهما بعيدًا عن أعينهم.

لوبين، الذي لم يكن قد تولى بعد –شرف حياته المهنية– منصب مدير الأمن، وبالتالي لم يتمكَّن من اتخاذ الإجراءات اللازمة في قصر العدل لتنفيذ خططه، اضطر بعد خمسة عشر يومًا من المحاولات الفاشلة إلى الانسحاب. فعل ذلك بقلب مليء بالغضب وبالقلق المتزايد. قال: «أصعب شيء في أي قضية ليس هو النجاح فيها، بل هو البداية. في هذه الحالة، من أين أبدأ؟ أي طريقٍ أسلكه؟».

توجَّه اهتمامه نحو النائب دوبريك، الذي كان أول من يمتلك السدادة الكريستال، والذي ربما كان يعرف أهميتها. من جهة أخرى، كيف كان جلبير على دراية بتحركات النائب دوبريك؟ ما هي وسائل مراقبته؟ من الذي أخبره بمكان وجود دوبريك في ذلك المساء؟ كل هذه كانت أسئلة مثيرة للاهتمام يجب حلها.

بعد السرقة في فيلا ماري-تيريز، انتقل دوبريك إلى باريس ليقيم في فندقه الخاص، على يسار ساحة لامارتين الصغيرة، التي تقع في نهاية شارع فيكتور هوجو. لوبين، متخفيًا بشكل مناسب بمظهر رجل

مسن، كان يتنزه حاملًا عصاه، استقر في تلك المنطقة، على مقاعد الساحة والشارع.

في اليوم الأول، اكتشف شيئًا أثار اهتمامه. كان هناك رجلان يرتديان ملابس العمال، ولكن تصرفاتهما كشفت عن دورهما، يراقبان فندق النائب. عندما كان دوبريك يخرج، كانا يتبعانه ويعودان خلفه. وفي المساء، حالما تنطفئ الأنوار، كانا يغادران. تبعهم لوبين بدوره. كانا ضابِطَيْن من الأمن. قال لوبين: «أمر غير متوقع. هل دوبريك مشتبه به؟».

لكن في اليوم الرابع، عند الغسق، انضم إلى الرجلين ستة أشخاص آخرين، وتحدثوا معهم في أكثر زاوية معتمة من ساحة لامارتين. ومن بين هؤلاء الأشخاص الجدد، كان لوبين مندهشًا للغاية عندما تعرف على أحدهم من قامته وطريقته، كان براسفيل الشهير، المحامي السابق، الرياضي السابق، المستكشف السابق، والذي أصبح الآن رجلًا مفضلًا من قصر الإليزيه، والذي، لأسباب غامضة، عُيِّن سكرتيرًا عامًّا للمحافظة.

وفجأة، تذكر لوبين: قبل عامين، كان هناك شجار شهير في ساحة قصر بوربون بين براسفيل والنائب دوبريك. لم تُعرف أسباب الشجار. في اليوم نفسه، أرسل براسفيل شهوده[1]. رفض دوبريك المواجهة. بعد فترة وجيزة، عُيِّن براسفيل سكرتيرًا عامًّا. قال لوبين: «غريب... غريب...» وبقي يفكر بينما كان يراقب تحركات براسفيل.

في الساعة السابعة، ابتعدت مجموعة براسفيل قليلًا نحو شارع هنري مارتن. ثم خرج دوبريك من باب حديقة صغيرة تقع على يمين

(1) المقصود هنا هو أن براسفيل أرسل رجالًا من طرفه بعد الشجار. في تلك الفترة، إرسال الشهود كان خطوة تقليدية لترتيب مبارزة تحدٍّ بين شخصين. هؤلاء الشهود يُعَدُّون ممثلين عن الطرفين لتحديد شروط المواجهة. (المترجم)

الفندق. تبعه الرجلان، واستقلوا جميعًا الترام في شارع تايتبوت. على الفور، عبر براسفيل الساحة وطرق الباب. كان السور يربط الفندق ببيت البوابة. جاءت البوابة لفتح الباب. كان هناك مشاورات سريعة، وبعدها دخل براسفيل ورفاقه. قال لوبين: «زيارة منزلية، سرية وغير قانونية. كان من اللطف أن يدعوني. وجودي معهم ضروري». دون أي تردد، توجَّه إلى الفندق، حيث لم يكن الباب مغلقًا، ومرَّ أمام الحارس الذي كان يراقب المنطقة، وقال بنبرة شخص مستعجل ينتظره أحدهم: «هل هؤلاء السادة هنا؟».

- نعم، في غرفة المكتب.

كانت خطته بسيطة: إذا واجهه أحد، كان سيقدم نفسه كعامل توصيل. لكن لم يكن هناك حاجة إلى هذا العذر. تمكن من عبور مدخل مهجور والدخول إلى غرفة الطعام التي لم يكن فيها أحد، ولكن من خلالها استطاع أن يرى، عبر الزجاج الفاصل بين الغرفة وغرفة المكتب، براسفيل ورفاقه الخمسة.

براسفيل، باستخدام مفاتيح مزورة، كان يفتح كل الأدراج. ثم بدأ بفحص جميع الملفات، بينما كان رفاقه الأربعة يستخرجون كل مجلد من المكتبة، يهزون الصفحات ويفحصون الأغلفة. فكر لوبين: «يبدو أنهم يبحثون عن وثيقة... ربما أوراق نقدية». صرخ براسفيل: «يا لها من حماقة! لم نجد شيئًا».

لكن من الواضح أنه لم يتخلَّ عن العثور عما يبحث عنه، حيث أخذ فجأة الزجاجات الأربع من خزانة قديمة للمشروبات الكحولية، وخلع السدادات الأربع وفحصها. فكر لوبين: «ها هو يتعامل مع سدادات الزجاجات أيضًا. إذًا، الأمر لا يتعلق بوثيقة؟ حقًّا، لم أعد أفهم شيئًا».

بعد ذلك، بدأ براسفيل يرفع ويفحص بعض الأشياء المختلفة، وقال: «كم مرة جئتم إلى هنا؟».

أجابوه: «ست مرات في الشتاء الماضي».

- وهل فتشتم المكان بأكمله؟ كل الغرف، وعلى مدار كل الأيام، لأنه كان في جولة انتخابية.

- نعم... ومع ذلك...

- إذًا، لا يوجد لديه خادم في الوقت الحالي؟

- لا، هو يبحث عن خادم. يأكل في المطاعم، وتقوم البوابة بتنظيف المنزل بقدر استطاعتها. هذه المرأة مخلصة لنا تمامًا...

استمر براسفيل في تحقيقاته لمدة ساعة ونصف تقريبًا، يعبث بكل الأشياء ويفحصها، لكنه كان يحرص على إعادة كل منها إلى مكانها بالضبط. في الساعة التاسعة، اقتحم الرجلان اللذان كانا يتابعان دوبريك المكان. قال أحدهما: «لقد عاد...».

- سيرًا على الأقدام؟

- نعم.

- هل لدينا وقت؟

- نعم، بالتأكيد!

دون عجلة كبيرة، ألقى براسفيل ورجال المحافظة نظرة أخيرة على الغرفة والتأكد من عدم وجود أي آثار تدل على زيارتهم، وغادروا.

أصبح الموقف حرجًا بالنسبة إلى لوبين. إذا غادر الآن، فقد يصطدم بدوبريك، وإذا بقي، فقد لا يستطيع الخروج. ولكن بعد أن لاحظ أن نوافذ غرفة الطعام توفر مخرجًا مباشرًا إلى الساحة، قرر البقاء. كانت فرصة رؤية دوبريك عن قرب مهمة أكثر من اللازم بحيث لا بد

من استغلالها، ولأنه قد انتهى من تناول العشاء، فهناك فرصة ضئيلة لدخول غرفة الطعام. لذلك انتظر، مستعدًّا للاختباء خلف ستارة مخملية يمكن سحبها عند الحاجة على الزجاج الفاصل.

سمع صوت الأبواب تفتح. دخل شخص ما إلى غرفة المكتب وأعاد تشغيل الإضاءة. تعرف على دوبريك. كان رجلًا سمينًا، قوي البنية، قصير العنق، بلحية رمادية، شبه أصلع، وكان دائمًا يرتدي -لأنه كان يعاني إجهادًا في عينيه- نظارات ذات عدسات سوداء فوق نظارته العادية.

لاحظ لوبين قوة ملامحه، الذقن المربع، بروز العظام. كانت يداه كثيفتي الشعر وضخمتين، وساقاه مقوستين، وكان يمشي بظهر منحني، ينقل وزنه بالتناوب بين الوركين، مما أعطاه مظهرًا يشبه إلى حد ما الكائنات ذات الأربع أرجل. ولكن فوق كل ذلك، كان هناك جبين ضخم، مضطرب وممتلئ بالتجاعيد، يعلو وجهه.

كان المظهر العام فيه شيء من الوحشية والنفور. تذكر لوبين أن دوبريك كان يلقب في المجلس بـ«رجل الغابة»، ليس فقط بسبب أنه كان يبتعد عن الآخرين ولا يختلط بزملائه، ولكن أيضًا لأن بسبب مظهره وسلوكياته، وطريقته في المشي، وقوته العضلية.

جلس أمام مكتبه، وأخرج من جيبه غليونًا من العاج، واختار من بين عدة عبوات تبغ مجفف في مزهرية، عبوة تبغ ماريلاند، مزق الشريط، حشا الغليون وأشعله. ثم بدأ في كتابة الرسائل. بعد فترة، توقف عن عمله وأخذ يفكر، مركزًا انتباهه على نقطة معينة في مكتبه.

فجأة، أمسك بصندوق طوابع صغير وفحصه. بعد ذلك، تحقق من وضعية بعض الأشياء التي لمسها براسفيل وأعادها إلى مكانها، وكان ينظر إليها بعناية، ويمسها بيده، وينحني عليها، كما لو كانت

هناك علامات، معروفة له وحده، يمكن أن توجهه. في النهاية، أمسك بمقبض جرس كهربائي وضغط على الزر. بعد دقيقة، ظهرت البوابة. قال لها: «لقد جاؤوا، أليس كذلك؟». وعندما ترددت المرأة، أصر: «حسنًا كليمنس، هل أنتِ من فتح صندوق الطوابع هذا؟».

- لا، يا سيدي.

- حسنًا، لقد ختمت الغطاء بشريط ضيق من الورق اللاصق. وقد كُسِر.

بدأت المرأة تقول: «أستطيع أن أؤكد...». قال لها: «لماذا الكذب، بما أنني طلبت منك أن تساعديهم على إجراء هذه الزيارات؟».

- ولكن...

- يبدو أنكِ تحبين الأكل من كلتا المائدتين... حسنًا...

قال ذلك بينما كان يعطيها ورقة نقدية من فئة خمسين فرنكًا، ثم كرر: «هل جاؤوا؟».

- نعم، يا سيدي.

- الأشخاص أنفسهم الذين جاؤوا في الربيع؟

- نعم، جميعهم... ومعهم آخر... كان يقودهم.

- طويل؟... ذو شعر بني؟

- نعم.

رأى لوبين فك دوبريك يتشنج، ثم تابع دوبريك: «هل هذا كل شيء؟».

- جاء آخر بعدهم، وانضم إليهم... ثم، قبل قليل، جاء اثنان آخران، الاثنان اللذان يحرسان الفندق عادةً.

- هل بقوا في هذه الغرفة؟

- نعم، يا سيدي.

- وغادروا عندما كنت عائدًا؟ ربما قبل بضع دقائق؟

- نعم، يا سيدي.

- حسنًا.

غادرت المرأة. استأنف دوبريك عمله على الرسائل. ثم، وهو يمد ذراعه، كتب بعض العلامات على دفتر ورق أبيض كان موجودًا على طرف مكتبه، ثم وضعه بحيث يكون أمام بصره. كانت أرقامًا. تمكن لوبين من قراءة هذه المعادلة البسيطة:

9-8=1

وكان دوبريك يهمهم هذه الحروف بصوتٍ خافت، بينما ينظر باهتمام إلى الورقة. قال بصوتٍ عالٍ: «لا شك في ذلك». كتب رسالة أخرى قصيرة جدًّا، وعلى المظروف، كتب العنوان الذي استطاع لوبين قراءته عندما وُضعت الرسالة بجانب دفتر الورق: «السيد براسفيل، سكرتير عام المحافظة». ثم دق الجرس مرة أخرى. قال للبوابة: «كليمنس، هل ذهبتِ إلى المدرسة عندما كنت صغيرة؟».

- بالطبع، نعم! يا سيدي.

- وهل تعلمتِ الحساب؟

- نعم، يا سيدي...

- ولكنكِ لستِ جيدة في الطرح.

- لماذا؟

- لأنكِ لا تعرفين أن تسعة ناقص ثمانية يساوي واحد، وهذا، كما ترين، أمر بديهي. لا قيمة للتعلم إذًا كنت تجهلين هذه الحقيقة الأساسية.

بينما كان يتحدث، كان يجول في الغرفة، ويداه خلف ظهره، متمايلًا على وركيه. فعل ذلك مرة أخرى. ثم توقف أمام غرفة الطعام وفتح الباب. قال: «يمكن طرح المشكلة بطريقة أخرى، أليس كذلك؟ من يطرح من تسعة ثمانية يبقى لديه واحد. وهذا هو الذي بقي، أليس كذلك؟ العملية صحيحة، أليس كذلك؟ وسيدي الكريم يقدم لنا دليلًا ساطعًا على ذلك». كان يضرب برفق على الستارة المخملية التي اختبأ لوبين خلفها. قال دوبريك: «في الحقيقة، يا سيدي، يجب أن تكون مختنقًا هنا؟ بالإضافة إلى أنني كان يمكنني أن ألهو بثَقب هذه الستارة بخنجر... تذكر هاملت وموت بولونيوس... «إنه فأر، أقول لك، فأر كبير...» هيا، يا سيد بولونيوس، اخرج من مخبئك».

كان هذا وضعًا يكره لوبين أن يجد نفسه فيه. كان يحب أن ينصب الفخاخ للآخرين ويسخر منهم، لكنه لم يكن ليقبل أن يتهكم أحد عليه أو يُستهزأ به. ومع ذلك، هل كان بإمكانه الإجابة؟

استأنف دوبريك: «ربما أنك شاحبٌ قليلًا يا سيد بولونيوس... انتظر، أليس هذا هو البرجوازي الطيب الذي يتسكع في الساحة منذ بضعة أيام! أنت من الشرطة أيضًا، يا سيد بولونيوس؟ هيا، استعد، لا أريد أن أضرك... لكنكِ ترين، يا كليمنس، دقة حسابي. وفقًا لكِ، دخل هنا تسعة من المخبرين. وعندما عدت، رأيت من بعيد في الشارع ثمانية فقط. إذا طرحت ثمانية من تسعة يبقى واحد، وهو الذي بقي هنا للمراقبة بالطبع. ها هو». قال لوبين، وهو يكاد ينفجر غضبًا: «وماذا بعد ذلك؟».

- بعد ذلك؟ لا شيء على الإطلاق، يا صديقي. ماذا تريد أكثر؟ انتهت المسرحية. سأطلب منك فقط أن تسلم السيد براسفيل، رئيسك، هذه الرسالة الصغيرة التي كتبتها له. كليمنس، من فضلكِ أرشدي السيد بولونيوس إلى الطريق. وإذا جاء يومًا، افتحي له الأبواب

على مصراعيها. أنت في بيتك هنا، يا سيد بولونيوس. وأنا في خدمتكم...».

تردد لوبين. كان يود أن يتصرف بثقة، وأن يلقي بجملة وداع ملحمية، كما يحدث في المسرح، ليختتم المشهد بمغادرة بطولية ويختفي على الأقل مع انتهاء يرضيه في هذه المعركة. لكن هزيمته كانت مريعة لدرجة أنه لم يجد شيئًا أفضل من أن يضرب قبعته على رأسه بقبضة يده، ويتبع البوابة بخطى غاضبة. كان هذا انتقامًا ضعيفًا. صرخ بمجرد خروجه، وهو يستدير نحو نوافذ دوبريك: «أيها الوغد الحقير! بائس! أحمق! أيها نائب! ستدفع ثمن هذا!... آه، يتجرأ على السيد... آه، لديه الوقاحة... حسنًا، أقسم يا سيدي، إنني في يوم ما...».

كان لوبين يغلي من الغضب، لا سيما لأنه في أعماقه أدرك قوة هذا العدو الجديد، ولم يستطع إنكار المهارة التي أظهرها وهو بين يديه. الهدوء الذي أبداه دوبريك، والثقة التي تعامل بها مع موظفي المحافظة، والاحتقار الذي أبداه تجاه زياراتهم المتكررة لشقته، وفوق كل ذلك، هدوءه الرائع، وجرأته وتصرفاته الوقحة تجاه الشخص التاسع الذي كان يتجسس عليه، كل ذلك كان يدل على أنه رجل ذو شخصية قوية، متزنة، وواضحة، جريئة، واثقة بنفسها ومن أهمية الأوراق التي بحوزته.

ولكن ما تلك الأوراق؟ وما اللعبة التي كان يلعبها؟ من يمسك بزمام اللعبة؟ وإلى أي مدى كانت الأطراف متورطة؟ لوبين لم يكن يعرف. ومن دون معرفة أي شيء، كان ينطلق بعنف في قلب المعركة، بين خصوم منخرطين بشكل قوي لا يعرف موقعهم، ولا أسلحتهم، ولا مواردهم، ولا خططهم السرية، لأنه، لم يستطع أن يصدق أن الهدف من كل هذه الجهود هو الحصول على سدادة كريستال!

كان هناك شيء واحد فقط يسعده: دوبريك لم يكتشف هويته. كان دوبريك يعتقد أنه تابع للشرطة. لم يكن دوبريك، ولا الشرطة بالتالي، يشكون في وجود طرف ثالث في هذه القضية. كان هذا هو الرهان الوحيد الذي يضمن له حرية التصرف التي كان يعلق عليها أهمية كبيرة. دون تأخير، فتح الرسالة التي سلمها له دوبريك والموجهة إلى السكرتير العام للمحافظة. كانت تحتوي على هذه السطور القليلة:

«كانت في متناول يدك، يا براسفيل العزيز... لقد لمستها. كدت تصل، لكنك غبيٌّ جدًّا. ويا للأسف، لم يجدوا أحدًا أفضل منك ليجعلني أتنازل. وا حسرتاه على رجال فرنسا! إلى اللقاء يا براسفيل. لكن إذا أمسكت بك، فلا تلمني، سأطلق النار. المُوقِّع: دوبريك».

ردد لوبين بعد قراءة الرسالة: «في متناول اليد... ربما يكون هذا الأحمق يكتب الحقيقة. أبسط الأمكنة هي الأكثر أمانًا. لكن على أي حال، علينا أن نفحص هذا الأمر، ويجب أن نعرف أيضًا لماذا يُراقب دوبريك بهذه الدقة، وجمع بعض المعلومات عن هذا الشخص».

الخلاصة التي حصل عليها لوبين من وكالة خاصة كانت كالتالي: أليكسيسي دوبريك، نائب عن منطقة بوش-دو-رون منذ عامين، يجلس بين المستقلين؛ آراؤه غير واضحة، لكنه يتمتع بوضع انتخابي قوي بفضل المبالغ الكبيرة التي ينفقها على حملته الانتخابية. لا يمتلك ثروة معروفة. ومع ذلك، لديه فندق في باريس، فيلا في إنغين وفيلا في نيس، ويخسر مبالغ كبيرة في القمار، دون أن يُعرف مصدر هذه الأموال. له نفوذ كبير، يحصل على ما يريد، رغم أنه لا يرتاد الوزارات، ولا يبدو أنه يمتلك صداقات أو علاقات في الأوساط السياسية.

فكر لوبين وهو يقرأ هذه الملاحظة مرة أخرى: «ملف خاص. ما أحتاج إليه هو ملف شخصي، ملف استخباراتي، يخبرني عن الحياة

الخاصة لهذا الرجل، ويسمح لي بالتحرك بشكل أكثر راحة في هذه الظلمات ومعرفة ما إذا كنت أضيع وقتي بالاهتمام بدوبريك أم لا. اللعنة! الوقت يمر!».

أحد المنازل التي كان لوبين يسكن فيها في ذلك الوقت، وكان يعود إليها في أغلب الأحيان، كان يقع في شارع شاتوبريان، بالقرب من قوس النصر. كان معروفًا هناك باسم ميشيل بومون. كان المنزل مجهزًا بشكل مريح، وكان لديه خادم مخلص جدًّا يدعى أشيلي، وكانت مهمته الرئيسية تلقي الاتصالات الهاتفية الموجهة إلى لوبين من عملائه. عندما عاد إلى منزله، علم لوبين، أن امرأة كانت تنتظره منذ ساعة على الأقل. قال متعجبًا: «كيف؟ لكن لا أحد يأتي إلى زيارتي هنا؟ هل هي شابة؟».

- لا... لا أعتقد ذلك.

- لا تعتقد ذلك!

- كانت ترتدي منديلًا على رأسها بدلًا من القبعة، ولا يمكن رؤية وجهها... إنها تبدو كموظفة... شخص من متجر وليس أنيقًا...

- من طلبت؟

أجاب الخادم: «السيد ميشيل بومون».

- غريب. وما هو السبب؟

- قالت لي ببساطة إن الأمر يتعلق بقضية إنغين! لذلك اعتقدت...

- ماذا! قضية إنغين! إذًا هي تعلم أنني متورط في هذه القضية! إذًا هي تعلم أنه بالوصول إلى هنا...

- لم أتمكن من الحصول على أي شيء منها، لكنني اعتقدت أنه من الضروري استقبالها.

- لقد فعلت حسنًا. أين هي؟

- في الصالون. لقد أشعلتُ الأنوار.

عَبَر لوبين بسرعة الردهة وفتح باب الصالون. قال للخادم: «ماذا تقول؟ لا يوجد أحد هنا». قال أشيلي وهو يهرع إلى الداخل: «لا أحد؟!». بالفعل، كانت الغرفة فارغة. صرخ الخادم مندهشًا: «أوه! هذه مزحة! لم يمضِ أكثر من عشرينِ دقيقة منذ أن رأيتها هنا. لم أكن أتوهم ذلك». قال لوبين بانفعال: «دعنا نرى، أين كنت بينما كانت هذه المرأة تنتظر؟».

- في الرواق، يا سيدي! لم أغادر الرواق لحظة واحدة! كنت سأراها تغادر، تبًّا!

- ومع ذلك، لم تعد هنا...

قال الخادم مذهولًا: «بالطبع، بالطبع... لقد فقدت صبرها وغادرت. لكني أود أن أعرف كيف، اللعنة!».

- كيف؟ ليس من الضروري أن تكون ساحرًا لتعرف ذلك.

- كيف؟

- لقد غادرت من النافذة. انظر، إنها ما زالت مفتوحة قليلًا، نحن في الطابق الأرضي، الشارع يكاد يكون دائمًا خاليًا في المساء. لا يوجد شك في ذلك.

كان ينظر حوله ويتأكد من أن شيئًا لم يُنزع أو يُرتب. علاوة على ذلك، الغرفة لم تحتوِ على أي تحف ثمينة أو أوراق مهمة يمكن أن تفسر الزيارة، ثم الاختفاء المفاجئ للمرأة. ومع ذلك، لماذا هذا الهروب غير المبرر؟ سأل لوبين: «لم يكن هناك أي مكالمة اليوم؟».

- لا.

- لم تكن هناك رسائل هذا المساء؟

- بلى، رسالة وصلت في آخر البريد.

- أعطني إياها.

- وضعتها، كما هو المعتاد، على رف المدفأة في غرفتك يا سيدي.

كانت غرفة لوبين مجاورة للصالة، لكن لوبين كان قد أغلق الباب الذي كان يربط بين الغرفتين. لذلك كان عليه العودة عبر المدخل. أضاء لوبين اللمبة وبعد لحظة قال: «لا أرى شيئًا...».

- لا... لقد وضعتها بجانب الكأس.

- لا يوجد شيء على الإطلاق.

بحث لوبين بشكل غير مبالٍ. لكن أشيلي حاول بكل ما استطاع نقل الكأس، ورفع الساعة، والانحناء... لكن الرسالة لم تكن هناك. تمتم: «آه! يا للكارثة، يا للكارثة، إنها هي، إنها هي التي سرقتها، وبعد أن حصلت على الرسالة، هربت... آه! تلك المرأة...». اعترض لوبين قائلًا: «أنت مجنون. لا يوجد اتصال بين الغرفتين».

- إذًا من تظن أنه فعل ذلك، سيدي؟

صمت الاثنان. كان لوبين يحاول السيطرة على غضبه وتجميع أفكاره. سأل: «هل فحصت هذه الرسالة؟».

- نعم!

- لم يكن فيها شيء مميَّز؟

- لا شيء. ظرف عادي، وعنوان مكتوب بالقلم الرصاص.

- آه!... بالقلم الرصاص؟

- نعم، وكأنها كُتبت على عجالة، بل خُربِشت خربشة.

سأل لوبين بقلق واضح: صيغة العنوان، هل تذكرها؟

- تذكرتها لأنها بدت لي غريبة...

- تكلم! تكلم إذًا!

- «السيد بومون ميشيل».

هزَّ لوبين خادمه بعنف: «هل كان هناك اسم «بومون»؟ هل أنت متأكد؟ و«ميشيل» بعد بومون؟

- متأكد تمامًا.

تمتم لوبين بصوت مخنوق: «آه!... كانت رسالة من جلبير!».

ظل واقفًا بلا حركة، شاحبًا بعض الشيء، ووجهه متشنج. لا شك في ذلك، كانت رسالة من جلبير! كانت هذه الصيغة التي، بناءً على أوامره، منذ سنوات، استخدمها جلبير دائمًا للتواصل معه. بعد أن وجد، من داخل سجنه -وبعد أي انتظار! وبأي حيل!- وسيلة لإرسال رسالة بالبريد، كتب جلبير هذه الرسالة بسرعة. والآن سُرِقت. ماذا كانت تحتوي؟ ما التعليمات التي أعطاها السجين المسكين؟ ما المساعدة التي طلبها؟ ما الحيلة التي اقترحها؟

فحص لوبين الغرفة، والتي على عكس الصالة، كانت تحتوي على أوراق مهمة. ولكن بما أن أيًّا من الأقفال لم تُكسر، كان لا بد من الاعتراف بأن المرأة لم يكن لها غرض آخر سوى أخذ رسالة جلبير.

مكرهًا على البقاء هادئًا، استأنف الكلام: «هل وصلت الرسالة بينما كانت المرأة هنا؟».

- في الوقت نفسه. دقت البوابة في اللحظة نفسها.

- هل استطاعت رؤية الظرف؟

- نعم.

إذًا، الاستنتاج كان واضحًا للغاية. يبقى معرفة كيف تمكنت الزائرة من تنفيذ هذا السرقة. هل تسللت من الخارج، من نافذة إلى أخرى؟

مستحيل: وجد لوبين نافذة غرفته مغلقة. هل فتحت باب الاتصال؟
مستحيل: وجد لوبين الباب مغلقًا، ومحصنًا بمزاليجه الخارجية.

ومع ذلك، لا يمكن للمرء المرور عبر الحائط لمجرد أن لديه الإرادة لفعل ذلك. للدخول إلى مكان ما، والخروج منه، يجب أن يكون هناك مخرج، وبما أن الفعل حدث في غضون دقائق قليلة، كان من الضروري، في هذه الحالة، أن يكون المخرج موجودًا بالفعل، وأن يكون معروفًا للمرأة. هذه الفرضية جعلت البحث أسهل بتركيزه على الباب، لأن الحائط، العاري من أي خزانة أو مدفأة أو ستارة، لم يكن ليخفي أي ممر.

عاد لوبين إلى الصالة وبدأ بفحص الباب. لكنه ارتجف فورًا. من النظرة الأولى، لاحظ أنه في الجهة اليسرى، في الأسفل، أحد الألواح الصغيرة الستة الموضوعة بين القضبان العرضية للباب، لم يكن في موضعه الطبيعي، وأن الضوء لم يُصبه بشكل مستقيم. بعد أن انحنى، رأى نقطتين صغيرتين من الحديد تدعمان اللوحة على غرار لوحة خشبية خلف إطار. كل ما كان عليه فعله هو إبعادهما. فانفصلت اللوحة.

أطلق أشيلي صرخة دهشة. لكن لوبين اعترض: «وبعد ذلك؟ هل تقدمنا بشيء؟ ها هو مستطيل فارغ يبلغ طوله قرابة خمسة عشر إلى ثمانية عشر سنتيمترًا وارتفاعه أربعين سنتيمترًا. لن تدعي أن هذه المرأة استطاعت التسلل عبر فتحة ستكون ضيقة بالفعل حتى على طفل يبلغ من العمر عشر سنوات، مهما كان نحيفًا!».

- لا، لكنها قد تكون استطاعت مد يدها وسحب المزاليج.

- المزلاج الأسفل، نعم، لكن المزلاج الأعلى، لا، المسافة كبيرة جدًّا. جرب وسترى.

في الواقع، أشيلي لم يتمكن من فعل ذلك. قال: «إذًا؟». لم يرد لوبين. ظل يفكر لفترة طويلة. ثم، فجأة، أمر: «قبعتي ومعطفي...». كان مستعجلًا، مدفوعًا بفكرة قوية. في الخارج، قفز في سيارة أجرة: «إلى شارع ماتينيون، وبسرعة...».

ما إن وصل أمام مدخل السكن حيث سُرِقت منه سدادة الكريستال، قفز من السيارة، فتح مدخله الخاص، صعد الطابق، هرع إلى الصالة، أشعل الضوء وانحنى أمام الباب الذي بغرفته. لقد خمن ذلك. أحد الألواح الصغيرة كان ينفصل أيضًا. وكما هو الحال في منزله الآخر في شارع شاتوبريان، كانت الفتحة، التي كانت كافية لمد الذراع والكتف، لا تسمح بسحب المزلاج العلوي. صاح، غير قادر على السيطرة على الغضب الذي كان يغلي داخله منذ ساعتين: «يا للعجب! يا للعجب، لن أنتهي أبدًا من هذه القصة!».

في الواقع، حظٌّ سيئ لا يصدق كان يلاحقه ويجعله يتخبط في الظلام، دون أن يتمكن من استخدام العناصر التي من شأنها أن تضمن نجاحه، والتي وضعها إصراره أو قوة الأشياء نفسها في يديه. جلبير يسلمه السدادة الكريستال. جلبير يرسل إليه رسالة. كل هذا يختفي في اللحظة ذاتها.

لم يعد الأمر، كما كان يعتقد حتى الآن، سلسلة من الظروف العارضة، المستقلة بعضها عن بعضٍ. لا. كان من الواضح أنه تأثير إرادة معادية تسعى إلى تحقيق هدف محدد ببراعة مذهلة ومهارة لا تصدق، تهاجم لوبين في عمق ملاذاته الأكثر أمانًا، وتفاجئه بضربات قاسية وغير متوقعة لدرجة أنه لم يكن يعرف حتى ضد من عليه الهجوم. لم تواجه قط، خلال مغامراته، مثل هذه العقبات.

وفي أعماقه، كان يتنامى داخله ببطء خوف مقلق من المستقبل. كان هناك تاريخ يلمع أمام عينيه، التاريخ المروع الذي خصصه دون وعي للعدالة لتقوم بعملها الانتقامي، التاريخ الذي سيصعد فيه رجلان، في صباح أحد أيام أبريل، إلى المقصلة، رجلان سارا إلى جانبه، رفيقان سيواجهان العقاب الرهيب.

الفصل الثالث

الحياة الخاصة لدوبريك

عند عودة دوبريك إلى منزله بعد الغداء في اليوم التالي لليوم الذي قامت فيه الشرطة بتفتيش منزله، استوقفته كليمنس، بوابة العقار. كانت كليمنس قد نجحت في العثور على طباخة يمكن الوثوق بها تمامًا. هذه الطباخة، التي حضرت بعد بضع دقائق، قدمت شهادات من الدرجة الأولى، موقعة من أشخاص كان من السهل الحصول على معلومات منهم. كانت نشيطة للغاية رغم تقدمها في السن، وقبلت أن تنظف وحدها دون مساعدة من أي خدم، وهو الشرط الذي فرضه دوبريك، الذي فضَّل تقليل فرص تعرضه للتجسس.

وبما أنها كانت تعمل مؤخرًا لدى أحد أعضاء البرلمان، الكونت سوليفات، اتصل دوبريك على الفور بزميله. وكيل الكونت سوليفات أعطى عنها أفضل التوصيات، لذا عينها دوبريك. بمجرد أن أحضرت أمتعتها، بدأت العمل، نظفت طوال اليوم وأعدت العشاء. تناول دوبريك

العشاء وخرج. قرابة الساعة الحادية عشرة، وبعد أن ذهبت البوابة إلى النوم، فتحت الطاهية بوابة الحديقة بحذر. اقترب رجل. قالت له: «هل هذا أنت؟».

- نعم، أنا، لوبين.

أخذته إلى الغرفة التي كانت تشغلها في الطابق الثالث، المطلة على الحديقة، وعلى الفور بدأت في التذمر: «مرة أخرى حيل، حيل دائمًا وأبدًا! ألا يمكنك تركي في سلام، بدلًا من توظيفي في كل هذه الأعمال!».

- ماذا تريدين، يا عزيزتي فيكتوار، عندما أحتاج إلى شخص ذي مظهر محترم وأخلاق لا تشوبها شائبة، أفكر فيكِ. يجب أن تكوني ممتنة.

- وهل هكذا تعبر عن امتنانك! تلفظني مرة أخرى في فم الذئب، وهذا يجعلك تضحك.

- بماذا تخاطرين؟

- بماذا أخاطر! جميع شهاداتي مزورة.

- الشهادات دائمًا مزورة.

- وماذا لو اكتشف السيد دوبريك؟ إذا تحقق؟

- لقد تحقق.

- ماذا! ماذا تقول؟

- لقد اتصل هاتفيًّا بوكيل الكونت سوليفات، الذي زعمتِ أنكِ كنتِ تعملين في خدمته.

- أرأيت، أنا هالكة.

- وكيل الكونت لم يتوقف عن مدحك.

- هو لا يعرفني.

- لكنني أعرفه. أنا من وضعته لدى الكونت سوليفات. إذًا، تفهمين...

بدت فيكتوار أكثر هدوءًا: «حسنًا! ليكن الأمر حسب إرادة الرب... أو بالأحرى حسب إرادتك. وما هو دوري في كل هذا؟».

- أن تتركي لي مكانًا هنا، هذا أولًا. لقد أرضعتني في صغري. يمكنكِ تقديم نصف غرفتك لي. سأنام على الكرسي.

- ثم؟

- ثم؟ تزويدي بالطعام اللازم.

- ثم؟

- ثم؟ الشروع في سلسلة من الأبحاث معًا وتحت إدارتي، بهدف...

- بهدف؟

- العثور على الشيء الثمين الذي أخبرتك عنه.

- ماذا؟

- السدادة الكريستال.

- السدادة الكريستال... يا يسوع ومريم، يا له من عمل! وماذا لو لم نجدها، تلك السدادة المقدسة؟

أمسك لوبين بذراعها بلطف، وقال بصوتٍ جادٍّ: «إذا لم نجدها، فإن جلبير، الصغير جلبير الذي تعرفينه وتحبينه، مُهدد بشكلٍ كبير بفقدان رأسه، وكذلك فوشيراي.

- فوشيراي، لا يهمني، إنه نذل! لكن جلبير...

- هل قرأت الصحف هذا المساء؟ القضية تزداد سوءًا. فوشيراي، بالطبع، يتهم جلبير بأنه هو من ضرب الخادم، والسكين الذي استخدمه فوشيراي كان ملكًا لجلبير. أثبتوا ذلك هذا الصباح. على إثر ذلك، جلبير، الذكي، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة، تلعثم وانغمس

في قصص وأكاذيب ستؤدي إلى هلاكه. هذا هو حالنا. هل تريدين مساعدتي؟

عند منتصف الليل عاد النائب. منذ ذلك الحين، وعلى مدار عدة أيام، شكَّل لوبين حياته بناءً على حياة دوبريك. بمجرد أن يغادر دوبريك الفندق، يبدأ لوبين تحقيقاته. تابعها بطريقة منهجية، مقسمًا كل غرفة إلى قطاعات لا يغادرها إلا بعد أن يبحث في أصغر الزوايا، وكأنه يستنفد جميع الاحتمالات الممكنة.

فيكتوار كانت تبحث أيضًا. ولم يُنسَ شيء. أرجل الطاولات، أعمدة الكراسي، ألواح الأرضيات، الزخارف، إطارات المرايا أو اللوحات، الساعات، قواعد التماثيل، حواف الستائر، أجهزة الهاتف أو أجهزة الكهرباء، كل شيء كان يُفحص بعناية، كل ما يمكن أن يختاره العقل مخبأً.

وكانا يراقبان أيضًا كل حركة يفعلها النائب، أكثر تصرفاته العفوية، نظراته، الكتب التي يقرأها، الرسائل التي يكتبها. كان الأمر سهلًا؛ كان يبدو أنه يعيش بشكل علني. لم يكن أي باب مغلقًا. لم يكن يستقبل أي زائر. وكانت حياته تسير بنظام آلي. بعد الظهر كان يذهب إلى البرلمان، وفي المساء إلى النادي. مع ذلك، كان لوبين يقول: «لا بد أن هناك شيئًا غير طبيعي في كل هذا». كانت فيكتوار تتذمر: «لا شيء كما قلت لك، أنت تضيع وقتك، وسيُقبض علينا».

وجود رجال الشرطة وتحركاتهم تحت النوافذ كانت تثير جنونها. لم تكن تستطيع تقبُّل أنهم كانوا هناك لأي سبب آخر سوى الإيقاع بها. وكلما ذهبت إلى السوق، كانت تشعر بالدهشة عندما لا يضع أحد هؤلاء الرجال يده على كتفها. ذات يوم عادت وهي مضطربة. كانت

سلة مشترياتها ترتعش في ذراعها. قال لها لوبين: «حسنًا، ما الأمر يا عزيزتي فيكتوار؟ أنت شاحبة».

- شاحبة، أليس كذلك؟ هناك سبب...

اضطرت إلى الجلوس، وبعد جهود كبيرة نجحت في التلعثم: «شخص... شخص اقترب مني... عند بائعة الفاكهة...».

- بحق الجحيم! هل كان ينوي اختطافك؟
- لا، لقد أعطاني رسالة...
- وتشتكين؟ من الواضح، إنه جواب غرامي!
- لا... لقد قال لي: «هذا من أجل رئيسك». قلت له: «رئيسي؟». قال: «نعم، من أجل السيد الذي يسكن في غرفتك».
- ماذا!

هذه المرة ارتعش لوبين. قال وهو ينتزع الظرف منها: «أعطني إياها». الظرف لم يحمل أي عنوان. لكن كان هناك ظرف آخر بالداخل، قرأ عليه: «السيد أرسين لوبين، عن طريق فيكتوار». تمتم: «بحق الجحيم! هذا لا يُصدَّق». مزق الظرف الثاني. كان يحتوي على ورقة مكتوب عليها بخط عريض: «**كل ما تقوم به عديم الفائدة وخطير... اترك الأمر**».

أطلقت فيكتوار تأوهًا وفقدت الوعي. أمَّا لوبين، فقد شعر باحمرار يعلو أذنيه، كما لو أنه قد أُهين بأكثر الطرق وقاحة. كان يشعر بالإذلال كالمبارز الذي تُعلن نواياه الأكثر سرية بصوتٍ عالٍ من قبل خصم ساخر. ومع ذلك، لم ينبس ببنت شفة. استأنفت فيكتوار عملها. أما هو، فقد بقي في غرفته طوال اليوم يفكر. في المساء، لم ينم. وكان يكرر لنفسه باستمرار: «ما الفائدة من التفكير؟ أنا أواجه إحدى تلك المشكلات التي

لا تُحل بالتفكير. من المؤكد أنني لست الوحيد في هذه القضية، وأنه بين دوبريك والشرطة، هناك، بالإضافة إلى اللص الثالث الذي أنا هو، لص رابع يعمل لحسابه الخاص، ويعرفني، ويقرأ تحركاتي بوضوح. ولكن من هو هذا اللص الرابع؟ ثم، هل أنا مخطئ؟ ثم... آه! تبًّا... دعونا ننام!». لكنه لم يستطع النوم، ومضى جزء من الليل بهذه الطريقة. ثم، قرابة الساعة الرابعة صباحًا، بدا له أنه سمع ضجيجًا في المنزل. نهض على عجل، ومن أعلى السلم، رأى دوبريك ينزل من الطابق الأول ويتوجه نحو الحديقة.

بعد دقيقة، عاد النائب إلى الداخل بعد أن فتح البوابة، ومعه شخص كان رأسه مخفيًّا داخل ياقة فرو واسعة، وقاده إلى مكتبه. تحسبًا لمثل هذا الاحتمال، كان لوبين قد اتخذ احتياطاته. بما أن نوافذ المكتب ونوافذ غرفته الواقعة خلف المنزل تطل على الحديقة، فقد علق سلمًا من الحبال على شرفته، ونزل بهدوء إلى مستوى نوافذ المكتب.

كانت هذه النوافذ مغطاة بالستائر. ولكن نظرًا لأنها كانت مستديرة، فقد بقيت فتحة نصف دائرية حرة، وتمكن لوبين عبرها، رغم أنه لم يستطع السماع، من رؤية كل ما يحدث في الداخل. لاحظ على الفور أن الشخص الذي اعتقده رجلًا كان في الواقع امرأة -امرأة لا تزال شابة، رغم أن شعرها الأسود كان مختلطًا بشعر رمادي، وكانت تتمتع بأناقة بسيطة، طويلة القامة، ووجهها الجميل كان يعبر عن تعب وحزن يسببه الاعتياد على الألم. تساءل لوبين: «أين رأيتها من قبل؟ هذه الملامح، هذا النظر، هذه الهيئة، هي بالتأكيد شخص أعرفه». كانت واقفة، مستندة إلى الطاولة، بلا مبالاة، تستمع إلى دوبريك. كان هو أيضًا واقفًا، يتحدث إليها بحماس. كان يدير ظهره للوبين، لكن لوبين، بانحنائه قليلًا، رأى

انعكاس صورة النائب في مرآة. وقد أفزعه رؤية الأعين الغريبة، والنظرة الوحشية، التي كان دوبريك ينظر بها إلى زائرته.

هي نفسها شعرت بالضيق، لأنها جلست وأخفضت جفونها. عندها انحنى دوبريك نحوها، وبدا وكأنه على وشك أن يلفها بذراعيه الطويلتين ذواتَي القبضات الضخمة. وفجأة، لاحظ لوبين أن دموعًا كبيرة بدأت تتدحرج على وجه المرأة الحزين. هل كان منظر هذه الدموع هو ما جعل دوبريك يفقد السيطرة على نفسه؟ بحركة مفاجئة، احتضن المرأة وجذبها نحوه. فدفعته بعيدًا بحدة ممزوجة بالكراهية. وكل منهما، بعد صراع قصير حيث ظهر وجه الرجل أمام لوبين بشكله البشع والمتشنج، كانا يقفان وجهًا لوجه، يتبادلان الإهانات كأعداء. ثم صمتا. جلس دوبريك، وكان له مظهر شرير، وقاسٍ، وساخر أيضًا. وبدأ يتحدث مجددًا وهو يضرب الطاولة بضربات قصيرة، كما لو كان يضع شروطًا. لم تتحرك هي. كانت واقفة منتصبة، لكن شاردة وأعينها تائهة. لم يرفع لوبين عينيه عنها، مفتونًا بهذا الوجه القوي والمؤلم، وكان يحاول عبثًا أن يتذكر أين رآها من قبل، عندما لاحظ أنها قد أدارت رأسها قليلًا وكانت تحرك ذراعها بشكل غير ملحوظ. كانت ذراعها تبتعد عن جسدها، ورأى لوبين أن هناك فوق طرف الطاولة قارورة مزينة بغطاء برأس ذهبي. وصلت يدها إلى القارورة، وتحسستها، وارتفعت برفق وأمسكت بالغطاء. نظرة سريعة، ثم عاد الغطاء إلى مكانه. بلا شك، لم يكن هذا ما كانت تأمل في العثور عليه. قال لوبين لنفسه: «يا للعجب! هي أيضًا تبحث عن السدادة الكريستال. الأمور تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم».

لكن، بعدما لاحظ الزائرة مرة أخرى، أصيب لوبين بالذهول عندما لاحظ التعبير المفاجئ وغير المتوقع على وجهها، تعبير مرعب، لا يرحم، وشرس. ورأى أن يدها كانت تستمر في تحركها حول الطاولة،

وبحركة مستمرة وسرية، كانت تدفع الكتب ببطء وثبات، مقتربة من خنجر كانت شفرته تلمع بين الأوراق المتناثرة. قبضت عليه بعصبية. كان دوبريك يواصل الحديث. وفوق ظهره، ارتفعت اليد ببطء، دون أن ترتجف، وكان لوبين يرى الأعين الهائمة والمستميتة للمرأة وهي تركز على النقطة في العنق التي اختارتها لطعنها بالخنجر. فكر لوبين: «أنتِ على وشك ارتكاب خطأ فادح، سيدتي الجميلة». وكان يفكر بالفعل في وسيلة للفرار وأخذ فيكتوار معه. كانت تتردد، والذراع مرفوعة. لكن ذلك لم يكن سوى لحظة ضعف قصيرة. عضت على أسنانها. وكل وجهها، الذي تغزوه الكراهية، انقبض أكثر. وقامت بالحركة الرهيبة. في اللحظة ذاتها، انبطح دوبريك على كرسيه، وقفز واقفًا، وبالتفاف سريع أمسك بمعصم المرأة الضعيف.

الأمر الغريب هو أنه لم يوجِّه لها أي لوم، كما لو أن الفعل الذي حاولت القيام به لم يفاجئه أكثر من فعل عادي، طبيعي وبسيط للغاية. رفع كتفيه في حركة رجل معتاد على مواجهة هذه المخاطر، وبدأ يسير ذهابًا وإيابًا بصمت. ألقت المرأة السلاح من يدها وبدأت تبكي، واضعةً رأسها بين يديها، مع نوبات من البكاء تهز كل جسدها. ثم عاد إليها دوبريك وقال لها بضع كلمات وهو يضرب الطاولة مرة أخرى. أشارت بالنفي، وعندما أصر، دقت الأرض بقدمها بقوة، وصرخت بصوتٍ عالٍ لدرجة أن لوبين سمعها: «مستحيل! مستحيل!».

وقتها، ومن دون أن يقول كلمة أخرى، ذهب وأحضر لها المعطف الفرو الذي كانت قد أحضرته ووضعه على كتفيها، بينما كانت تغطي وجهها بقطعة من الدانتيل. ثم قادها للخروج. بعد دقيقتين، كانت بوابة الحديقة تُغلق. قال لوبين: «يا للأسف، أنا لا أستطيع اللحاق بهذه الشخصية الغريبة والتحدث قليلًا معها حول دوبريك. أعتقد أننا، لو

تعاونا، كنا سنحقق نتائج جيدة». على أي حال، كان هناك نقطة تحتاج إلى توضيح. وهي أن النائب دوبريك، الذي تبدو حياته منضبطة جدًّا ومثالية ظاهريًّا، لا يستقبل زيارات بعينها في الليل إلا عندما تكون الشرطة لا تراقب الفندق؟

أوكل إلى فيكتوار مهمة إخطار اثنين من رجاله لمراقبة الوضع لعدة أيام. وفي الليلة التالية، بقي هو نفسه مستيقظًا. كما في الليلة السابقة، عند الساعة الرابعة صباحًا، سمع ضوضاء. وكما في الليلة السابقة، أدخل دوبريك شخصًا ما. نزل لوبين بسرعة على السُّلم، وعندما وصل إلى مستوى النافذة، رأى رجلًا يزحف عند قدمي دوبريك، يقبل ركبتيه بيأس جنوني، ويبكي بشكل هستيري. دفعه دوبريك بعيدًا عدة مرات وهو يضحك، لكن الرجل كان يتشبث به. كان يبدو أنه فقد عقله، وفي نوبة من الجنون، نهض نصفه وأمسك النائب من عنقه وألقاه على كرسي. حاول دوبريك المقاومة، وكان عاجزًا في البداية وعروقه منتفخة. ولكن بفضل قوة غير عادية، سرعان ما استعاد السيطرة وأخضع خصمه. ثم أمسكه بيد واحدة، وصفعه باليد الأخرى مرتين بقوة.

نهض الرجل ببطء. كان شاحبًا ويترنح على قدميه. انتظر لحظة، كما لو كان يحاول استعادة رباطة جأشه. ثم، بهدوء مخيف، سحب من جيبه مسدسًا وجهه نحو دوبريك. لم يتحرك دوبريك. كان يبتسم بابتسامة تحدٍّ، ودون أن يُظهر أي انزعاج كما لو كان يواجه مسدس طفل. لقرابة عشرين ثانية تقريبًا، ظل الرجل بذراعه ممدودة، مواجهًا عدوه. ثم، بالبطء نفسه الذي كشف عن تحكم مثير للإعجاب في النفس بعد أزمة شديدة من الاضطراب، أعاد سلاحه إلى جيبه، وسحب محفظته من جيب آخر.

تقدم دوبريك. فتح الرجل المحفظة وأظهر حزمة من الأوراق النقدية. استولى دوبريك عليها بسرعة وعدَّها. كانت أوراق نقدية بقيمة ألف

فرنك. كان هناك ثلاثون ورقة. كان الرجل يراقب. لم يظهر أي احتجاج، ولا حتى حركة من الاستياء. كان يدرك بوضوح عبثية الكلام. دوبريك كان من أولئك الذين لا يمكن ثنيهم. لماذا يضيع وقته في التوسل إليه، أو حتى الانتقام منه بالشتائم والتهديدات الفارغة؟ هل يمكنه الوصول إلى هذا العدو الذي لا يمكن المساس به؟ حتى موت دوبريك لن يحرره من دوبريك. أخذ قبعته وغادر.

عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، عندما عادت فيكتوار من السوق، سلَّمت لوبين رسالة من زملائه. قرأ:

«الرجل الذي جاء الليلة الماضية إلى دوبريك هو النائب لانجيرو، رئيس اليسار المستقل. قليل الحظ ولديه أسرة كبيرة».

قال لوبين لنفسه: «حسنًا، دوبريك ليس سوى مبتزٍّ، لكن الوسائل التي يستخدمها فعالة بشكل مذهل!». الأحداث أعطت تأكيدًا جديدًا لافتراضات لوبين. بعد ثلاثة أيام، جاء زائر آخر وسلم دوبريك مبلغًا كبيرًا. وفي اليوم التالي، جاء زائر آخر وترك قلادة من اللؤلؤ. الأول كان يدعى ديشومون، عضو مجلس الشيوخ ووزير سابق. الثاني كان الماركيز دأيبوفكس، نائب ورئيس سابق للمكتب السياسي للأمير نابليون. بالنسبة إلى هذين الاثنين، كانت المشاهد تقريبًا مشابهة لما حدث مع النائب لانجيرو، مشاهد عنيفة ومأساوية انتهت بانتصار دوبريك.

فكر لوبين عندما حصل على هذه المعلومات: «وهكذا دواليك. لقد شهدت أربع زيارات. ولن أستفيد من المزيد سواء كانت هناك عشر، عشرون أو ثلاثون زيارة... يكفيني معرفة أسماء الزوار من أصدقائي المراقبين. هل يجب أن أذهب لمقابلتهم؟ ولماذا؟ ليس لديهم أي سبب للثقة بي. ومن جهة أخرى، هل يجب أن أضيع وقتي هنا في تحقيقات لا تتقدم، ويمكن لفيكتوار مواصلتها بمفردها؟».

كان في حيرة كبيرة. الأخبار المتعلقة بالتحقيق الذي يجري ضد جلبير وفوشيراي كانت تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وكان الوقت يمضي، ولم تمر ساعة دون أن يسأل نفسه، وبقلق شديد، إذا ما كانت جميع جهوده ستؤدي، حتى لو نجح، إلى نتائج ضئيلة وغير مرتبطة تمامًا بالهدف الذي يسعى إليه. لأنه في النهاية، بعد أن يكشف المؤامرات السرية لدوبريك، هل ستكون لديه الوسائل لإنقاذ جلبير وفوشيراي؟ في ذلك اليوم، وقع حادث وضع حدًّا لتردده. بعد الغداء، سمعت فيكتوار، في أثناء محادثة هاتفية لدوبريك، بعض الأجزاء. مما ذكرته فيكتوار، استنتج لوبين أن النائب لديه موعد في الساعة الثامنة والنصف مع سيدة، وأنه سيصطحبها إلى المسرح. فقد قال دوبريك: «سأحجز مقصورة، كما فعلت قبل ستة أسابيع». وأضاف، ضاحكًا: «آمل أنه في هذه الأثناء، ألا يُقتحم بيتي».

بالنسبة إلى لوبين، لم يكن هناك شك في الأمر. كان دوبريك سيقضي ليلته بالطريقة نفسها التي قضاها قبل ستة أسابيع، عندما اقتحموا فيلته في إنغين. معرفة الشخص الذي كان سيقابله، وربما معرفة كيف علم جلبير وفوشيراي أن دوبريك سيغيب من الساعة الثامنة مساءً حتى الواحدة صباحًا، كانت مسألة حاسمة.

خلال فترة ما بعد الظهر، وبمساعدة فيكتوار، ومعرفة أن دوبريك سيعود لتناول العشاء في وقت أبكر من المعتاد، غادر لوبين الفندق. ذهب إلى منزله في شارع شاتوبريان، واستدعى ثلاثة من أصدقائه عبر الهاتف، وارتدى بدلة السهرة، واتخذ لنفسه مظهر الأمير الروسي، بشعر أشقر وسوالف مشذبة. وصل رفاقه في سيارة. في تلك اللحظة، أحضر له أشيلي، الخادم، تليغرافًا موجهة إلى السيد ميشيل بومون، شارع شاتوبريان. كان التليغراف يقول: «**لا تذهب إلى المسرح الليلة. تدخلك قد يفسد كل شيء**».

أمسك لوبين بإناء من الزهور كان بالقرب منه على المدفأة وحطمه إلى قطع. قال بغضب: «مفهوم، مفهوم. يلعبون معي كما اعتدت اللعب مع الآخرين. الأساليب نفسها. الحيل نفسها. لكن، هناك فرق!».

ما هو الفرق؟ لم يكن يعرف حقًّا. الحقيقة هي أنه كان مرتبكًا، مضطربًا حتى النخاع، وأنه استمر في العمل بدافع الإصرار، وكأن ذلك كان واجبه، دون أن يعمل بحماسته المعتادة وروحه المرحة. قال لأصدقائه: «لنذهب!». بأمر منه، أوقف السائق السيارة بالقرب من ساحة لامارتين، لكنه لم يطفئ المحرك. كان لوبين يتوقع أن دوبريك، للهروب من عملاء الشرطة الذين يراقبون الفندق، سيقفز في سيارة أجرة، ولم يكن يريد أن يتخلف عن متابعته. لكنه لم يحسب حساب براعة دوبريك.

عند الساعة السابعة والنصف، فُتحت بوابة الحديقة على مصراعيها، وانطلق ضوء ساطع، وسرعان ما عبرت دراجة نارية الرصيف، عبرت الساحة، انعطفت أمام السيارة واتجهت نحو الغابة بسرعة كبيرة لدرجة أن ملاحقتها كانت فكرة سخيفة. قال لوبين مازحًا: «رحلة سعيدة، سيد دوبريك». ولكنه، في أعماقه، كان مضطربًا. راقب رفاقه على أمل أن يجرؤ أحدهم على الابتسام بسخرية. كم كان سيسعده تفريغ غضبه على ذلك الشخص! بعد لحظة، قال: «لنعد».

دعاهم للعشاء، ثم دخن سيجارًا، وانطلقوا بالسيارة وأخذوا جولة في المسارح، بدءًا من مسارح الأوبريت والفودفيل، التي كان يُعتقد أن دوبريك وسيدته قد يفضلانها. كان يأخذ مقعدًا، يتفحص المقصورات، ويغادر. ثم ذهب إلى المسارح الأكثر جدية، مثل «لارينيسانس» و«الجيمنازيوم».

أخيرًا، عند الساعة العاشرة مساءً، رأى في مسرح «فودفيل» مقصورة كانت مخفية تقريبًا بستائرها، ودفع بعض المال لموظفة الاستقبال ليخبره أن هناك رجلًا مسنًّا، قصيرًا وبدينًا، وسيدة تُغطي رأسها بدانتيل

كثيف. بما أن المقصورة المجاورة كانت فارغة، أخذها، وعاد إلى رفاقه ليعطيهم التعليمات اللازمة، واستقر بالقرب من دوبريك ومن معه.

خلال الاستراحة، في الضوء الأكثر سطوعًا، استطاع أن يميز ملامح دوبريك. أما السيدة فبقيت في الخلف، غير مرئية. كان الاثنان يتحدثان بصوت منخفض، وعندما ارتفع الستار، واصلا الحديث، لكن بطريقة لا يستطيع لوبين سماع كلمة منها. مرَّت عشر دقائق. طُرق باب مقصورتهما. كان الطارق مفتش المسرح. سأل المفتش: «السيد النائب دوبريك، أليس كذلك؟». أجاب دوبريك بصوت متعجب: «نعم. ولكن كيف عرفت اسمي؟».

- من شخص يطلبك على الهاتف وأخبرني أن أتوجه إلى المقصورة 22.

- ومن يكون هذا الشخص؟

- السيد الماركيز دألبوفكس.

- ماذا؟ كيف؟

- ماذا يجب أن أرد؟

- سأذهب... سأذهب...

نهض دوبريك على عجل وتبع المفتش. وبمجرد أن اختفى، قفز لوبين من مقصورته. فتح الباب المجاور وجلس بجانب السيدة. أطلقت السيدة صرخة مكتومة. قال لها: «اصمتي، أمرها... لدي أمر مهم لأقوله لكِ». قالت من بين أسنانها: «آه!... أرسين لوبين».

أصيب لوبين بالدهشة. لبضع لحظات، بقي صامتًا، وفمه مفتوحًا. كانت هذه المرأة تعرفه! ولم تكن تعرفه فقط، بل تعرفت عليه رغم تنكره! على الرغم من أنه معتاد على أكثر الأحداث غرابة وغير المتوقعة، فإن هذا الحدث أذهله. لم يفكر حتى في الإنكار، وتلعثم: «إذًا تعرفين؟

... تعرفين؟». وفجأة، قبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها، أزاح الحجاب عن وجه السيدة. تمتم مع تزايد دهشته: «كيف يمكن أن يكون ذلك؟».

كانت المرأة التي رآها في منزل دوبريك قبل أيام قليلة، المرأة التي رفعت خنجرها على دوبريك، والتي أرادت ضربه بكل قوتها المليئة بالكراهية. وبدورها، بدت مضطربة. قالت: «ماذا؟ هل رأيتني من قبل؟».

- نعم، في الليلة الأخرى، في منزله، رأيت حركتك...

حاولت المرأة النهوض للهروب. أمسك بها بسرعة وقال: «يجب أن أعرف من أنتِ... لقد ابتكرت فكرة المكالمة فقط لإجبارك على التحدث». انزعجت: «ماذا، لم يكن الماركيز دألبوفكس إذًا؟».

- لا، إنه أحد زملائي.

- إذًا، سيعود دوبريك...

- نعم، ولكن لدينا الوقت... استمعي إليَّ... يجب أن نلتقي مجددًا... هو عدوكِ. سأحميكِ منه...

- لماذا؟ لأي غرض؟

- لا تشكِّي بي... من المؤكد أن مصلحتنا مشتركة... أين يمكنني مقابلتك؟ غدًا، أليس كذلك؟ في أي وقت؟... وأين؟

- حسنًا...

كانت تنظر إليه بتردد واضح، غير متأكدة مما يجب أن تفعله، على وشك التحدث، ومع ذلك، كان الشك والقلق يملأها.

- أرجوكِ! أجيبي... لحظة واحدة فقط... وبسرعة... سيكون من المؤسف أن يجدوني هنا... أرجوكِ.

بصوت واضح، أجابت: «اسمي... لا حاجة إلى معرفة اسمي... سنلتقي أولًا، وستشرح لي... نعم، سنلتقي. غدًا، في الساعة الثالثة بعد

الظهر، في زاوية شارع...». في تلك اللحظة، انفتح باب المقصورة بقوة، وظهر دوبريك. تمتم لوبين بغضب: «تبًّا!»، لأنه جاء قبل أن يحصل على ما يريد.

أطلق دوبريك ضحكة ساخرة وقال: «هكذا إذًا، كنت أشك في شيء ما، آه! حيلة الهاتف، أصبحت قديمة قليلًا يا سيدي. لم أكن في منتصف الطريق حتى عدت». دفع دوبريك لوبين نحو مقدمة المقصورة، وجلس بجانب السيدة وقال: «إذن، من أنت يا سيدي الأمير؟ خادم في المحافظة، ربما؟ لديك مظهر يناسب الوظيفة».

كان دوبريك يحدق إلى لوبين الذي لم يظهر أي خوف، ويحاول معرفة من يكون هذا الرجل، لكنه لم يتعرف عليه. بدوره، كان لوبين يفكر في هذا المأزق. بأي ثمن، لم يكن يرغب في التخلي عن الموقف الذي وصل إليه، والتخلي عن فرصة التوصل إلى تفاهم، لأن الفرصة كانت مناسبة جدًّا، مع عدوه دوبريك اللدود. كانت المرأة ثابتة في زاوية المقصورة تراقبهما. قال لوبين: «لنخرج، سيدي، سيكون الحديث أسهل في الخارج».

- هنا، يا أميري، سيكون الحديث هنا، بعد قليل، في أثناء الاستراحة. وبهذا، لن نزعج أحدًا.

- لكن...

- لا داعي لذلك، يا عزيزي، لن تتحرك من هنا.

وأمسك دوبريك بياقة لوبين بنية واضحة في عدم السماح له بالتحرك حتى وقت الاستراحة. كانت حركة غير محسوبة. كيف يمكن أن يقبل لوبين البقاء في موقف كهذا، خاصة أمام امرأة، امرأة قدَّم لها عرضًا للتحالف معه، امرأة –ولأول مرة يفكر في هذا– كانت جميلة، وجاذبيتها الجادة كانت تعجبه. اهتز كل كبريائه كرجل. ومع ذلك، بقي صامتًا.

قَبِل بثقل اليد على كتفه، وحتى إنه انحنى كما لو كان مهزومًا، عاجزًا، شبه خائف. سخر دوبريك: «آه! أيها الأحمق، يبدو أنك لم تعد متعجرفًا».

على المسرح، كان عدد كبير من الممثلين يتجادلون ويصدرون ضجيجًا. عندما خفف دوبريك قبضته قليلًا، رأى لوبين أن اللحظة مناسبة. بضربة قوية بيده، ضرب دوبريك في منتصف ذراعه، كما لو كان يستخدم فأسًا. تسببت الضربة في إرباك دوبريك. أكمل لوبين تحرير نفسه وانقض على دوبريك ليقبض على عنقه. لكن دوبريك، الذي أصبح في وضع الدفاع على الفور، تراجع، وتشابكت أيديهما الأربع. تشابكت أيديهما بقوة فوق بشرية، حيث تركزت قوة الخصمين في آن واحد. كانت يدا دوبريك ضخمتين بشكل غير عادي، وشعر لوبين، الذي وجد نفسه محاصرًا في قبضة من الحديد، كما لو كان يقاتل ليس مع رجل، بل مع وحش رهيب، غوريلا عملاقة.

كانا يقفان بجانب الباب، كانا منحنيَيْن مثل مصارعين يتصارعان ويحاولان الإمساك ببعضهما. تكسرت عظامهما. في أول لحظة ضعف، سيكون المهزوم مخنوقًا. وكل هذا كان يحدث في صمت، بينما كان الممثلون على المسرح يستمعون إلى أحدهم وهو يتحدث بصوت منخفض. كانت المرأة، التي كانت محشورة بمحاذاة الجدار، مرعوبة وهي تراقب الموقف. إذا قامت بحركة لدعم أحدهما، لكان النصر قد حُسم لصالحه. لكن من ستدعمه؟ ماذا كان يمثل لوبين بالنسبة إليها؟ صديق أم عدو؟

تحركت بسرعة نحو مقدمة المقصورة، دفعت الستارة، وانحنت كما لو كانت تشير إلى شيء ما. ثم عادت وحاولت التسلل نحو الباب. قال لها لوبين، وكأنه يريد أن تساعده: «أزيلي الكرسي». كان يشير إلى كرسي ثقيل كان قد سقط، وكان يفصل بينه وبين دوبريك، وكانا

يتصارعان فوقه. انحنت المرأة وسحبت الكرسي. كان هذا هو ما كان ينتظره لوبين.

بعد أن أُزيل العائق، وجَّه ضربة قوية بقدمه إلى ساق دوبريك بحذائه. كانت النتيجة مماثلة للضربة التي وجهها إلى ذراعه. تسبب الألم في لحظة ارتباك، واستغلها لوبين على الفور لإبعاد يدي دوبريك الممتدتين، والإمساك بعنقه ورقبته بأصابعه العشر. قاوم دوبريك. حاول دوبريك إبعاد اليدين اللتين كانتا تخنقانه، لكنه كان يختنق بالفعل وكانت قواه تضعف. تمتم لوبين وهو يقلبه: «آه! أيها القرد العجوز. لماذا لا تطلب المساعدة؟ هل تخاف من الفضيحة!».

على وقع سقوطه، طرق أحدهم على الجدار من الجهة الأخرى. قال لوبين بصوت منخفض: «لا بأس، المشهد على المسرح. هنا، هذه مشكلتي، ولن أتوقف حتى أروض هذه الغوريلا...». لم يستغرق الأمر طويلًا. كان النائب يختنق. بضربة على الفك، أضعفه. لم يتبقَّ للوبين سوى أن يأخذ المرأة ويهرب معها. لكن عندما استدار، أدرك أن المرأة قد غادرت. لا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيدًا. قفز خارج المقصورة وبدأ يجري، دون أن يهتم بالمراقبات والمراقبين.

في الواقع، عندما وصل إلى الرواق في الطابق الأرضي، رأى، عبر باب مفتوح، أنها كانت تعبر الرصيف في شارع شوسيه دنتين. كانت تصعد إلى سيارة عندما لحق بها. أُغلق الباب خلفها. أمسك لوبين بالمقبض وحاول فتحه. لكن، من الداخل، ظهر رجل وأرسل لكمة إلى وجهه، بمهارة أقل، ولكن بقوة مماثلة لتلك التي وجهها لوبين لدوبريك. ورغم أنه كان مذهولًا من الضربة، فقد تمكَّن في اللحظة الأخيرة، في لحظة من الصدمة، من التعرف على هذا الشخص، والتعرف أيضًا، على السائق الذي كان متنكرًا. كانا جرونيار ولوبالو، الرجلين اللذين كانا

مسؤولَيْن عن القوارب في إنغين ليلة السرقة، وهما صديقان لجلبير وفوشيراي، وباختصار، اثنان من رفاقه، رفاقه هو، لوبين. عندما كان في منزله في شارع شاتوبريان، وبعد أن غسل وجهه الذي كان ينزف، جلس لوبين لأكثر من ساعة في كرسي، وكأنه محطم. للمرة الأولى، شعر بألم الخيانة. للمرة الأولى، ينقلب عليه رفاقه في المعركة.

بشكل آلي، بهدف تشتيت ذهنه، أخذ بريده المسائي ومزق شريط إحدى الصحف. وفي آخر الأخبار، قرأ السطور التالية:

«قضية فيلا ماري-تيريز. لقد اكتُشف أخيرًا الهوية الحقيقية لفوشيراي، أحد المتهمين بقتل الخادم ليونار. إنه مجرم من أسوأ الأنواع، مرتكب جرائم متكررة، وحُكِم عليه غيابيًّا مرتين بجريمة قتل تحت اسم آخر. لا شك أنه سيكشف قريبًا الاسم الحقيقي لشريكه جلبير. في كل الأحوال، القاضي المكلف بالتحقيق مصمم على إحالة القضية في أسرع وقت ممكن إلى محكمة الاتهام. العدالة لا تتأخر أبدًا».

وسط الصحف الأخرى والكتيبات، كانت هناك رسالة. عندما رآها لوبين، قفز من مكانه. كانت موجهة إلى السيد بومون (ميشيل). تمتم: «آه! رسالة من جلبير». كانت تحتوي على بضع كلمات:

«سيدي، أنقذني! أنا خائف... أنا خائف...».

تلك الليلة كانت مرة أخرى ليلة أرق وكوابيس بالنسبة إلى لوبين. مرة أخرى، كانت رؤى مروعة ومخيفة تعذبه. كان لوبين يشعر بثقل المسؤولية، فقد بدا أن الوقت ينفد وأنه لم يكن لديه سوى القليل من الأدلة لإنقاذ جلبير وفوشيراي. الآن، مع رسالة جلبير، أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا وإلحاحًا. كان عليه أن يجد حلًّا، وبسرعة.

الفصل الرابع

زعيم الأعداء

تمتم لوبين وهو يعيد قراءة رسالة جلبير في اليوم التالي: «مسكين. كم يعاني هذا الفتى!». منذ اليوم الأول الذي التقى فيه جلبير، شعر لوبين بعاطفة تجاه هذا الشاب الطويل، المرح، الذي يحب الحياة. كان جلبير مخلصًا له حتى الموت، وكان مستعدًّا لأن يضحي بحياته بأمر من سيده. كان لوبين يحب أيضًا صدق جلبير وروحه المرحة ووجهه المليء بالسعادة.

كان لوبين كثيرًا ما يقول له: «جلبير، أنت رجل شريف. لو كنت مكانك، لتركت هذه المهنة وأصبحت رجلًا شريفًا بالفعل». كان جلبير يجيب ضاحكًا: «بعد أن تتركها أنت يا سيدي».

– ألا تريد؟

- لا، يا سيدي. الرجل الشريف يعمل ويكدح، وهذا أمر ربما كنت أحبه عندما كنت صغيرًا، لكنهم جعلوني أتركه.

- من هم؟

كان جلبير يصمت. كان يصمت دائمًا عندما يُسأل عن السنوات الأولى من حياته، وكان لوبين يعرف بالكاد أنه كان يتيمًا منذ صغره وأنه عاش حياة متجولة، متغيرًا في الأسماء، يعمل في أكثر المهن غرابة. كان هناك لغز كبير حول جلبير لم يتمكن أحد من حله، ولم يبد أن العدالة كانت في طريقها لكشفه. لكن الأمر لم يكن يهم العدالة. اسمه جلبير أو أي اسم آخر، كانت ستُحيل القضية إلى المحكمة وتعامل شريكه فوشيراي بالصرامة نفسها.

كرر لوبين: «مسكين! إذا كانوا يلاحقونه بهذه الصرامة، فهذا بسببي. إنهم يخشون هروبه ويسارعون للوصول إلى الحكم، ومن ثم الإعدام... شاب يبلغ من العمر عشرين عامًا لم يَقْتِل، وليس متورطًا في الجريمة...». لكن لوبين كان يعلم أن هذا أمر مستحيل إثباته، وأنه يجب أن يوجِّه جهوده نحو نقطة أخرى. ولكن إلى أين؟ هل يجب أن يتخلى عن مسار السدادة الكريستال؟

لم يستطع اتخاذ هذا القرار. كانت محاولته الوحيدة للتخفيف من الضغط هي الذهاب إلى إنغين، حيث كان يقيم جرونيار ولوبالو، ليتأكد من أنهما قد اختفيا منذ جريمة قتل فيلا ماري-تيريز. ولكن بخلاف ذلك، لم يكن مشغولًا إلا بدوبريك.

رفض حتى التفكير في الألغاز التي كانت تحاصره، حول خيانة جرونيار ولوبالو، حول علاقته بالمرأة ذات الشعر الرمادي، حول التجسس الذي كان يتعرض له هو شخصيًّا. كان يقول لنفسه: «اصمت يا لوبين. في حالة حمى التفكير هذه، أنت لا تفكر بشكل صحيح.

لذا، اصمت. لا تستنتج شيئًا، على وجه الخصوص! لا شيء أكثر غباءً من استنتاج الأحداث بعضها من بعض قبل أن تجد نقطة انطلاق مؤكدة. هذه هي الطريقة التي تخطئ فيها. استمع إلى حدسك. سِر وفقًا لحدسك، وإذا كنت مقتنعًا، بعيدًا عن أي تفكير منطقي، بأن هذه القضية تدور حول تلك السدادة اللعينة، فتابع بقوة. توجَّه نحو دوبريك والسدادة الكريستال!».

لم ينتظر لوبين كثيرًا حتى تتوافق مع أفعاله مع هذه الاستنتاجات. في اللحظة التي كان يكرر فيها هذه الأفكار لنفسه، كان جالسًا، متخفيًا كصاحب معاش صغير مع وشاح قديم ومعطف، جالسًا على مقعد في شارع فيكتور-هوجو، على مسافة بعيدة من ساحة لامارتين. وفقًا لتعليماته، كانت فيكتوار تمر أمام هذا المقعد كل صباح في الوقت نفسه. كرر لنفسه: «نعم، السدادة الكريستال، كل شيء سيُحل، عندما أحصل عليها».

كانت فيكتوار تقترب، تحمل سلة المشتريات تحت ذراعها. على الفور لاحظ اضطرابها وشحوبها الشديد. سألها لوبين وهو يمشي بجانبها: «ما الأمر؟». دخلت فيكتوار إلى متجر بقالة كبير حيث كان هناك الكثير من الناس، التفتت نحوه وقالت بصوت متأثر: «ها هو ما تبحث عنه». ثم أخرجت شيئًا من سلتها وسلَّمته له. بقي لوبين مذهولًا: كان يحمل في يده **السدادة الكريستال**.

تمتم: «هل هذا ممكن؟ هل هذا ممكن؟». كما لو أن السهولة في الحصول على مثل هذه النتيجة أزعجته. لكن الحقيقة كانت أمامه، مرئية ومحسوسة. في شكلها، وفي أبعادها، في الذهب الباهت على زواياها، تعرَّف لوبين دون شك على السدادة الكريستال التي سبق له أن

رآها. حتى الخدش الصغير الذي لاحظه على الساق كان موجودًا، وكان يتذكره تمامًا.

ومع ذلك، إذا كانت السدادة تحمل العلامات نفسها، لم يكن بها أي شيء آخر يبدو جديدًا. كانت سدادة كريستال، لا أكثر. لا يوجد بها أي علامة مميزة حقًّا، ولا أي نقش، ولا أي رقم، وهي منحوتة من قطعة واحدة، ولا تحتوي على أي مادة غريبة: «إذًا، ماذا بعد؟». وفجأة، أدرك لوبين أنه ربما كان مخطئًا. ما الفائدة من امتلاك هذه السدادة إذا لم يعرف قيمتها؟ هذه القطعة من الزجاج لا تعني شيئًا بمفردها، بل كان لها قيمة فقط بالمعنى المرتبط بها. قبل أن يأخذها، كان عليه أن يعرف. ومن يمكنه أن يضمن له أنه، بأخذها، بسرقتها من دوبريك، لم يكن يرتكب خطأً كبيرًا؟

كان سؤالًا عصيًّا عليه حله، لكنه كان يفرض نفسه عليه بقوة غير عادية. قال لنفسه وهو يضع السدادة في جيبه: «عليَّ تجنب الأخطاء! في هذه القضية اللعينة، الأخطاء لا يمكن إصلاحها». لم يرفع عينيه عن فيكتوار. كانت برفقة موظف، تتنقل من طاولة إلى أخرى، وسط حشد من الزبائن. توقفت لفترة طويلة أمام الصندوق ثم مرت بجانب لوبين. أمرها بهدوء: «التقيني خلف مدرسة جانسون». انضمت إليه في شارع قليل الحركة.

قالت فيكتوار: «وإذا كانوا يتبعونني؟».

- لا، أكد لها. لقد تأكدت جيدًا. اسمعيني، أين وجدت هذه السدادة؟

- في درج منضدته بجانب السرير.

- لكننا قد فتشنا هناك من قبل. نعم، وأنا فعلت ذلك مجددًا صباح أمس. ربما وضعها هناك الليلة الماضية.

- وربما سيعود ليأخذها.

- ربما.

- وماذا لو لم يجدها هناك؟

بدت فيكتوار مذعورة. قال لوبين: «أجيبيني، إذا لم يجدها، هل سيتهمك بالسرقة؟».

- بالتأكيد.

- إذًا عودي، وضعيها هناك بسرعة.

تمتمت، آملة ألا يكون قد لاحظ اختفاءها: «يا إلهي! يا إلهي! أعطني إياها بسرعة». قال لوبين: «ها هي». بحث في جيب معطفه. قالت فيكتوار وهي تمد يدها: «حسنًا؟». قال بعد لحظة: «حسنًا، لم تعد هنا».

- ماذا!

- في الواقع، لم تعد هنا... لقد استعادوها مني.

انفجر لوبين ضاحكًا، ضحكة هذه المرة خالية من أي مرارة. اغتاظت فيكتوار: «أنت تجد هذا مضحكًا، في مثل هذا الوضع!».

- ماذا تريدين؟ اعترفي أن الأمر بالفعل مضحك. لم يعد ما نمر به دراما، بل هو أشبه بمسرحية خيالية، مثل «**حبوب الشيطان**»، أو «**قدم الخروف**». عندما أحصل على بعض الراحة لأسابيع قليلة، سأكتب عنها، «**السدادة السحرية**، أو **مغامرات المسكين أرسين**».

- ولكن، من أخذها منك؟

- ما هذا الذي تقولينه! لقد طارت وحدها، تبخرت من جيبي، هيا، يا لها من خدعة.

اقترب بلطف من المربية العجوز، وبنبرة أكثر جدية قال: «عودي، فيكتوار، ولا تقلقي. من الواضح أن أحدهم رأى أنكِ سلمتيني هذه

السدادة واستغل الفوضى في المتجر ليلتقطها من جيبي. كل هذا يثبت أننا مراقبون بشكل أقرب مما كنت أعتقد، ومن قِبل خصوم من الدرجة الأولى. لكن، مرة أخرى، لا تقلقي. سيظفر الأشخاص الطيبون بالكلمة الأخيرة. ألم يكن لديكِ شيء آخر لتخبريني به؟».

- بلى. جاء شخص ما الليلة الماضية، بينما كان السيد دوبريك خارجًا. رأيت أضواء تنعكس على أشجار الحديقة.

- والبوابة؟

- البوابة لم تكن نائمة.

- إذن، هم رجال الشرطة، ما زالوا يبحثون. إلى اللقاء يا فيكتوار، ستستمري في استضافتي في مسكنك.

- كما تشاء...

- بماذا أخاطر؟ غرفتك في الطابق الثالث. دوبريك لا يشتبه في شيء.

- ولكن الآخرين!

- الآخرون؟ لو كان لديهم أي مصلحة في إيذائي، لكانوا قد حاولوا بالفعل. أنا أزعجهم، هذا كل شيء. هم لا يخافونني. إلى اللقاء يا فيكتوار، الساعة الخامسة.

كانت مفاجأة أخرى بانتظار لوبين. في المساء، أخبرته المربية العجوز أنه، بدافع الفضول، فتحت درج منضدة الليل مرة أخرى ووجدت السدادة الكريستال هناك. لم يعد لوبين يندهش من هذه الأحداث العجيبة. قال لنفسه ببساطة: «إذًا، لقد أعادوا وضعها هناك. والشخص الذي أعادها والذي يدخل هذا الفندق بطرق غير مفسرة، هذا الشخص توصَّل إلى النتيجة نفسها التي توصَّلت إليها: يجب ألَّا تختفي

السدادة. ومع ذلك، فإن دوبريك، الذي يعلم أنه مراقب حتى في غرفته، قد ترك هذه السدادة في الدرج مرة أخرى، كما لو أنه لا يوليها أي أهمية! حاول أن يكون لديك تفسير لهذا».

ورغم أن لوبين لم يكن يُشكل رأيًا نهائيًا، فإنه لم يكن قادرًا على تجنب بعض الاستنتاجات، بعض الأفكار التي أعطته هذا الشعور الغامض بالوضوح الذي يشعر به الشخص عند نهاية نفق. قال لنفسه: «في هذه الحالة، من الحتمي، أن يحدث لقاء قريب بيني وبين «**الآخرين**». وعندئذٍ سأكون سيد الموقف».

مرَّت خمسة أيام دون أن يلاحظ لوبين أي تفصيل جديد. في اليوم السادس، تلقَّى دوبريك زيارة صباحية من شخص ما، النائب لايباخ، الذي، مثل زملائه، تذلل أمام دوبريك، وفي النهاية، أعطاه عشرين ألف فرنك. بعد يومين، وفي ليلة من الليالي، قرابة الساعة الثانية صباحًا، كان لوبين يقف عند الهبوط في الطابق الثاني عندما سمع صرير باب. كان الباب الذي يربط بين المدخل والحديقة. في الظلام، ميَّز، أو بالأحرى تخيَّل وجود شخصين صعدا الدرج وتوقفا في الطابق الأول أمام غرفة دوبريك. ما الذي كانا ينويان فعله؟ لا يمكن لأحد دخول هذه الغرفة، حيث كان دوبريك يغلق بابه كل ليلة. إذًا، فيم كانا يأملان؟

من الواضح أن هناك شيئًا يحدث، حيث كان لوبين يسمع أصوات احتكاك خافتة على الباب. ثم وصلت إليه كلمات بالكاد كانت همسًا: «هل تعمل؟».

- نعم، تمامًا، لكن من الأفضل تأجيله إلى الغد، لأن...

لم يسمع لوبين نهاية الجملة. كان الأفراد ينزلون بالفعل بحذر. أُغلق الباب برفق شديد، ثم البوابة. فكر لوبين: «إنه أمر غريب. في هذا المنزل، حيث يخفي دوبريك فضائحه بعناية، ويتوخى الحذر من التجسس -

ولأسباب وجيهة- يدخل الجميع كما لو كان المنزل طاحونة قديمة. يمكن لفيكتوار أن تدخلني، ويمكن للبوابة أن تُدخِل مبعوثي الشرطة... هذا مقبول. لكن هؤلاء الأشخاص؟ من الذي لصالح من يعملون؟ هل يجب أن نفترض أنهم يعملون بمفردهم؟ لكن ما هذه الجرأة! وما هذه المعرفة الدقيقة بالمكان!».

في فترة ما بعد الظهر، خلال غياب دوبريك، فحص لوبين باب الغرفة في الطابق الأول. من النظرة الأولى، فهم كل شيء: أحد الألواح السفلية، الذي قُطِع بمهارة، كان مثبتًا فقط بأطراف غير مرئية. الأشخاص الذين فعلوا هذا العمل هم الأشخاص أنفسهم الذين فعلوا هذا في منزله في شارع ماتينيون وشارع شاتوبريان.

لاحظ أيضًا أن العمل حدث قبل فترة طويلة، وأنه، كما هو الحال في منزله، جُهِّزت الفتحة مسبقًا لتكون جاهزة في ظروف مواتية أو في حالات الضرورة القصوى. كان اليوم قصيرًا بالنسبة إلى لوبين، وكان على وشك معرفة كل شيء. لم يكن سيعرف فقط كيفية استخدام خصومه لهذه الفتحات الصغيرة، التي تبدو غير قابلة للاستخدام، نظرًا لأنه لا يمكن من خلالها الوصول إلى الأقفال العلوية، ولكنه كان سيعرف أيضًا من هم هؤلاء الخصوم المبتكرون والنشطون، الذين كان يجد نفسه يواجههم بشكل متكرر.

وقعت حادثة أزعجته. في المساء، شكا دوبريك، في أثناء العشاء تناول العشاء، من شعوره بالتعب، وعاد في الساعة العاشرة، وبشكل غير معتاد، أغلق باب الحديقة. في هذه الحالة، كيف سيتمكن «الآخرون» من تنفيذ خططهم والوصول إلى غرفة دوبريك؟

بعد أن أطفأ دوبريك الضوء، انتظر لوبين لمدة ساعة أخرى، ثم، تحسبًا لأي طارئ، ركب السُّلم المصنوع من الحبال، واتخذ موقعه عند

الهبوط في الطابق الثاني. لم يكن عليه أن ينتظر طويلًا. بعد ساعة واحدة من الليلة السابقة، حاول شخص ما فتح باب المدخل. وبعد فشل المحاولة، مرَّت بضع دقائق من الصمت التام. وكان لوبين يعتقد أنهم تراجعوا عندما شعر بشيء غريب. دون أن يصدر أدنى صوت، مرَّ شخص ما. لم يكن ليعرف ذلك، نظرًا لأن خطوات هذا الشخص كانت مكتومة بالسجاد على الدرج، لولا أن الدرابزين الذي كان يمسك به اهتز. كانوا يصعدون.

ومع كل خطوة صعود، كان لوبين يشعر بانزعاج متزايد: لم يكن يسمع شيئًا. بفضل الدرابزين، كان متأكدًا من أن شخصًا ما يتقدم، وكان بإمكانه عدَّ الخطوات بناءً على اهتزازات السلالم، لكن لم يكن هناك أي مؤشر آخر يعطيه الشعور بوجود شخص ما. في الظلام، كان ينبغي أن يتشكل ظلٌّ أكثر سوادًا، وكان ينبغي أن تتغير حالة السكون على الأقل. لا، يبدو أنه لم يكن هناك أحد. ورغم أنه كان مؤمنًا بذلك، ورغم شعوره الغريزي، كان لوبين يقتنع شيئًا فشيئًا أنه ربما كان يهلوس، لأن الدرابزين لم يعد يهتز، وربما كان مجرد وهم.

واستمر هذا لفترة طويلة. تردد لوبين خاصة وهو لا يعرف ما يجب عليه فعله أو افتراضه. ولكن هناك تفصيل غريب لفت انتباهه. كانت الساعة تدق الثانية. من رنينها، عرف أنها ساعة دوبريك. ومع ذلك، كان هذا الرنين يشبه رنين ساعة لا يوجد بينها وبين المستمع حاجز باب.

نزل لوبين بسرعة واقترب من الباب. كان مغلقًا، لكن كان هناك فراغ على اليسار، في الأسفل، فراغ تركه إزالة اللوحة الصغيرة.

استمع. في تلك اللحظة، كان دوبريك يتحرك في سريره، وعادت أنفاسه الثقيلة إلى الهدوء. وسمع لوبين بوضوح أن أحدهم كان يعبث بالملابس. دون شك، كان هذا الشخص يبحث بين ملابس دوبريك

الموضوعة بجانب سريره. فكر لوبين: «هذه المرة، أعتقد أن الأمور ستتضح قليلًا. ولكن بحق الجحيم! كيف دخل هذا الشخص؟ هل نجح في فتح الأقفال وفتح الباب قليلًا؟... لكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا يكون قد ارتكب خطأ إغلاقه؟».

لم يخطر ببال لوبين، وهو أمر غريب بالنسبة إلى رجل مثله، الحقيقة البسيطة التي ستنكشف له قريبًا. بعد أن واصل النزول، جلس على واحدة من الدرجات الأولى أسفل السلم، ووضع نفسه بين باب دوبريك وباب المدخل، وهو المسار الذي يجب أن يسلكه عدو دوبريك للعودة إلى رفاقه. بأي قلق كان يراقب الظلام! كان على وشك كشف هذا العدو، الذي كان أيضًا خصمه. كان سيعترض خططه! وبعد أن استولى على الغنيمة من دوبريك، كان سيستعيدها منه بينما كان دوبريك نائمًا، بينما كان الرفاق المختبئون خلف باب المدخل أو خلف بوابة الحديقة ينتظرون عبثًا عودة قائدهم.

وتحققت العودة. علم لوبين بذلك مجددًا بسبب اهتزاز الدرابزين. ومرة أخرى، بأعصاب متوترة وحواس متيقظة، حاول أن يميز هذا الشخص الغامض الذي كان يتقدم نحوه. فجأة رآه على بعد بضعة أمتار. كان لوبين، المختبئ في زاوية مظلمة، غير مرئي. وما كان يراه -بطريقة ضبابية- كان يتقدم خطوة بخطوة بحذر شديد، متشبثًا بدرابزين السلم. تساءل لوبين، وقلبه ينبض بقوة: «من بحق الجحيم هذا الذي أتعامل معه؟».

تسارعت الأحداث. لاحظ الشخص الغامض حركة غير حكيمة من جانب لوبين، فتوقف فجأة. خشي لوبين من تراجعه أو هروبه. قفز على خصمه، وصُدِم عندما لم يجد سوى الفراغ، ولم يجد أي أثر للشكل

الأسود الذي كان يراه، واصطدم بالدرابزين دون أن يمسك بشيء. لكنه انطلق بسرعة، عبر نصف المدخل، وأمسك بخصمه عند باب الحديقة.

كانت هناك صرخة رعب، تلتها صرخات أخرى من الجانب الآخر من الباب. تمتم لوبين بينما كان يحتضن بقوة شيئًا صغيرًا يرتجف ويئن: «يا إلهي! ما هذا؟».

فجأة، أدرك لوبين ما يحدث، ووقف متجمدًا، غير متأكد مما يجب عليه فعله مع هذه الفريسة التي قبض عليها. لكن الأصوات بدأت تتصاعد من خلف الباب، فأصبح يخشى أن يستيقظ دوبريك. عندها، وضع الكائن الصغير تحت سترته، بالقرب من صدره، منعه من الصراخ بمنديله، ثم صعد بسرعة إلى الطابق الثالث. قال لفيكتوار التي استيقظت مفزوعة: «ها هو، أحضرت لك قائد أعدائنا الذي لا يقهر، هرقل العصابة. هل لديك زجاجة رضاعة؟».

ووضع على الكرسي طفلًا يبلغ من العمر ستة إلى سبعة أعوام، صغيرًا في سترته الرمادية، مرتديًا قبعة من الصوف، ووجهه الجميل الشاحب، وعيناه المليئتان بالخوف كانتا مغمورتين بالدموع. سألت فيكتوار، مذهولة: «من أين حصلت على هذا؟». أجاب لوبين، وهو يفتش دون جدوى سترة الطفل على أمل أن يكون قد أحضر غنيمة ما من الغرفة: «وجدته عند أسفل الدرج خارج غرفة دوبريك».

أشفقت عليه فيكتوار: «المسكين! انظر، إنه يحاول ألا يبكي... يا عذراء، يا مريم، يداه باردتان كالجليد! لا تخف، يا صغيري، لن نؤذيك... السيد هنا ليس قاسيًا». قال لوبين: «لا، السيد ليس قاسيًا على الإطلاق، لكن هناك سيدًا آخر، شرير جدًّا، سيستيقظ إذا واصلت إحداث هذا الضجيج أمام باب المدخل. هل تسمعينهم، فيكتوار؟».

– من هؤلاء؟

- أتباع هرقل الصغير، عصابة القائد الذي لا يقهر.

قالت فيكتوار، وقد بدأت تشعر بالقلق: «وماذا الآن؟».

–حسنًا، بما أنني لا أريد أن أقبض عليه في هذا الفخ، سأهرب. هل ستأتي معي يا هرقل؟

لفَّ الطفل في بطانية من الصوف بحيث تبرز رأسه فقط، ثم ربطه بعناية قدر الإمكان، وطلب من فيكتوار تثبيته على كتفيه.

– انظر يا هرقل، إننا نمزح فقط. لن تجد العديد من الرجال يلعبون بالخل في الثالثة صباحًا. لننطلق، لنبدأ رحلتنا. هل تشعر بالدوار؟

تسلق لوبين النافذة ووضع قدمه على أحد قضبان السلم. في غضون دقيقة، كان قد وصل إلى الحديقة. لم يتوقف عن سماع، بل وأصبح يسمع بوضوح أكثر، الطرقات التي كانت تضرب على باب المدخل. كان من المدهش أن دوبريك لم يستيقظ بسبب هذا الضجيج العنيف. فكر لوبين: «إذا لم أضع حدًّا لذلك، فسيدمرون كل شيء».

توقف عند زاوية الفندق، غير مرئي في الظلام، وقاس المسافة التي تفصله عن البوابة. كانت البوابة مفتوحة. إلى يمينه كان يرى السلم الأمامي، عند أعلاه كان الناس يتزاحمون؛ إلى يساره كان مسكن البوابة. كانت البوابة قد غادرت مكانها، ووقفت بجانب السلم الأمامي، تتوسل إلى الناس: «اصمتوا! اصمتوا! سيأتي الآن».

قال لوبين لنفسه: «آه! ممتاز، البوابة هي أيضًا شريكة لهؤلاء. يا للعجب، إنها تجمع بين الوظائف». اندفع نحوها، وأمسك بها من عنقها، وقال: «اذهبي وأخبريهم أنني أخذت الطفل... دعهم يأتون لاستعادته من منزلي، في شارع شاتوبريان».

على بعد مسافة قليلة، من الشارع، كانت هناك سيارة أجرة افترض لوبين أن العصابة قد حجزتها. بثقة غريبة، وكأنه أحد شركاء العصابة، صعد إلى السيارة، وأمر السائق أن يأخذه إلى منزله. قال للطفل: «حسنًا، هل تأذيت؟ ماذا لو نرتاح قليلًا يا صغيري على سرير السيد؟».

كان خادمه، أشيلي، نائمًا. وضع بنفسه الطفل بلطف على السرير وبدأ يداعبه بلطف. كان الطفل يبدو مرهقًا. وجهه المسكين كان متحجرًا بتعبير جامد، مليئًا بالخوف وإرادة قوية لعدم إظهار هذا الخوف، ورغبة في البكاء وجهد بائس لعدم البكاء. قال لوبين: «ابكِ يا صغيري، البكاء سيريحك». لم يبكِ الطفل، لكن صوت لوبين كان رقيقًا ولطيفًا لدرجة أن الطفل ارتاح. في عينيه الأكثر هدوءًا، وفي فمه الأقل تشنجًا، لاحظ لوبين شيئًا مألوفًا، شبهًا لا يمكن إنكاره.

كان هذا بمنزلة تأكيد على بعض الحقائق التي كان يشك فيها، والتي بدأت تتجمع في ذهنه. في الواقع، إذا لم يكن مخطئًا، فإن الوضع كان يتغير بشكل كبير، وكان قريبًا من التحكم في مسار الأحداث.

رنَّ جرس الباب، ثم تلاه اثنان آخران، بشكل مفاجئ. قال لوبين للطفل: «حسنًا، أظن أن والدتك جاءت لتأخذك. لا تتحرك». ركض إلى الباب وفتحه. دخلت امرأة كالمجنونة. صرخت: «ابني! ... أين ابني؟». قال لوبين: «في غرفتي». دون أن تسأل أكثر، مما يدل على أنها تعرف الطريق، هرعت إلى الغرفة. تمتم لوبين: «المرأة الشابة ذات الشعر الرمادي، الصديقة والعدوة لدوبريك؛ كان ما أفكر فيه صحيحًا».

اقترب من النافذة ورفع الستارة. كان هناك رجلان يسيران على الرصيف، أمام المنزل: جرونيار ولوبالو. أضاف: «إنهما لا يختبئان حتى، هذا علامة جيدة. يبدو أنهما يشعران بالحاجة إلى طاعة القائد. تبقى السيدة الجميلة ذات الشعر الرمادي. سيكون الأمر أكثر صعوبة.

حسنًا، لنبدأ المواجهة!». وجد الأم وابنها متعانقين، وكانت الأم قلقة جدًّا، وأعينها مبللة بالدموع، تقول: «هل أنت بخير؟ هل أنت متأكد؟ أوه! لا بد أنك كنت خائفًا، يا صغيري جاك!». قال لوبين: «إنه فتى شجاع».

لم تجب. كانت تتحسس سترة الطفل كما فعل لوبين من قبل، بلا شك للتحقق مما إذا كان قد نجح في مهمته الليلية، وسألته بهدوء. قال الطفل: «لا، يا أمي، أؤكد لكِ أنني لم أفعل». قبَّلته برفق واحتضنته بقوة، حتى استسلم الطفل، الذي كان منهكًا من التعب والعاطفة، للنوم. ظلت منحنية فوقه لفترة طويلة. بدت هي نفسها مرهقة جدًّا وراغبة في الراحة.

لم يقاطع لوبين تأملاتها. كان ينظر إليها بقلق واهتمام كبيرين، دون أن تلاحظ ذلك، ورصد الهالات الأوسع حول جفونها والعلامات الأوضح للتجاعيد. ومع ذلك، وجدها أجمل مما كان يعتقد، إنه جمال مؤثرة ذلك الذي ينبع من المعاناة ويُمنح لوجوه معينة أكثر إنسانية وحساسية من غيرها. أظهرت تعبيرًا حزينًا لدرجة أنه، بدافع من التعاطف الغريزي، اقترب منها وقال: «لا أعلم ما هي خططك، لكن مهما كانت، فأنت بحاجة إلى المساعدة. لن تنجحي وحدك».

- لست وحدي.

- هذان الرجلان بالخارج؟ أنا أعرفهما. هما لا يهمان. أرجوكِ، استخدمي مساعدتي. هل تتذكرين تلك الليلة في المسرح، في المقصورة؟ كنتِ على وشك التحدث. اليوم، لا تترددي.

نظرت إليه، وراقبته، وكأنها لم تستطع مقاومة هذه الإرادة القوية، وقالت: «ماذا تعرف بالضبط؟ ماذا تعرف عني؟»

- أجهل الكثير من الأشياء. لا أعرف اسمك، لكنني أعلم...

قاطعته بإشارة من يدها، وبقرار مفاجئ، سيطرت على نفسها وتحدثت: «لا فائدة». ثم صرخت: «ما تعرفه لا يهم. لكن ما هي خططك؟ تعرض مساعدتك من أجل ماذا؟ إذا كنت قد انخرطت في هذه القضية بكل ما لديك، وإذا لم أتمكن من القيام بأي شيء دون أن أجدك في طريقي، فهذا لأنك تريد تحقيق هدف ما... ما هو؟».

- ما هو؟ أعتقد أن سلوكي...

قالت بحزم: «لا، لا أريد كلامًا مبهمًا. يجب أن يكون بيننا ثقة، ولتحقيق ذلك، نحتاج إلى صراحة مطلقة. سأبدأ أولًا. السيد دوبريك يملك شيئًا ذا قيمة هائلة، ليس في حد ذاته، ولكن لما يمثله. أنت تعرف هذا الشيء. مرتين، كان في يديك. مرتين، أخذته منك. حسنًا، أعتقد أن رغبتك في الاستيلاء عليه كانت لاستخدام القوة التي يمنحها لك، لاستخدامها لمصلحتك الشخصية...».

- كيف ذلك؟

- نعم، لاستخدامها وفقًا لخططك، في مصلحة أعمالك الشخصية، وبما يتوافق مع عاداتك...

أكمل لوبين: «عادات السارق المحتال». لم تعارضه. حاول أن يقرأ ما بداخل عينيها، ما كانت تفكر فيه. ماذا تريد منه؟ مما تخاف؟ إذا كانت تشك فيه، أليس من الممكن أن يشك هو أيضًا في هذه المرأة التي أخذت منه السدادة الكريستال مرتين وأعادتها إلى دوبريك؟ مهما كانت عداوتها لدوبريك، إلى أي مدى كانت تظل خاضعة لإرادته؟ بالتسليم لها، ألا يخاطر بتسليم نفسه لدوبريك؟ ومع ذلك، لم يكن قد رأى قط أعينًا أكثر جدية ووجهًا أكثر صدقًا.

دون تردد أكثر، قال: «هدفي بسيط: إنقاذ جلبير وفوشيراي».

صرخت، مرتجفة، تنظر إليه بعينين قلقتين: «هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟».

– لو كنت تعرفينني...

– أعرفك، أعرف من أنت، لقد تابعت حياتك لعدة أشهر، دون أن تشك في ذلك، ومع ذلك، لأسباب معينة، ما زلت أشك...

قال بحزم: «أنتِ لا تعرفينني. لو كنتِ تعرفينني، لكنتِ تعلمين أنه لا يمكنني الراحة حتى أنقذ رفيقَيَّ... أو على الأقل جلبير، لأن فوشيراي شخص سيئ، حتى أنقذ جلبير من المصير الرهيب الذي ينتظره». اندفعت نحوه وأمسكته من كتفيه بذعر حقيقي: «ماذا؟ ماذا تقول؟ المصير الرهيب؟ إذًا أنت تعتقد، تعتقد...». قال لوبين، الذي شعر بمدى اضطرابها بسبب هذا التهديد: «أعتقد حقًّا، أعتقد حقًّا أنه إذا لم أصل في الوقت المناسب، فجلبير هالك». صرخت وهي تدفعه بعنف: «اصمت، اصمت، اصمت، أمنعك من قول ذلك، لا يوجد سبب، أنت تفترض ذلك...».

– ليس أنا فقط، بل أيضًا جلبير...

– ماذا؟ جلبير! كيف تعرف ذلك؟

التقط لوبين الرسالة بهدوء ووضعها جانبًا، ثم انحنى فوق المرأة التي فقدت وعيها. كان يعلم أن اللحظة كانت حاسمة، وأن ما سيحدث بعدها قد يُغير مصير جلبير بشكل نهائي. رفعها برفق إلى الأريكة القريبة، وبدأ يتفحص نبضها ويتأكد من أنها تتنفس بانتظام. بعد لحظات قليلة، بدأت تستعيد وعيها ببطء. عادت دموعها لتملأ عينيها وهي تتذكر الرسالة وتستوعب واقع الوضع.

قال لوبين بنبرة حازمة، ولكنها دافئة في الوقت نفسه: «لا وقت لدينا لنضيعه. يجب أن نتعاون، يجب أن نتحرك الآن إذا أردنا أن ننقذ جلبير».

نظرت إليه بأعين مليئة بالخوف والأمل، وتساءلت بصوت مرتعش: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ كيف سننقذه؟».

أجاب لوبين بصلابة: «سنفعل كل ما بوسعنا. سأستخدم كل ما لدي من موارد وخطط. لكنني بحاجة إلى مساعدتك. أنتِ تعرفين دوبريك أكثر مني، تعرفين نقاط ضعفه. معًا، يمكننا التغلب عليه». بدأت المرأة تستعيد بعضًا من رباطة جأشها، وقالت بصوت أكثر ثباتًا: «سأفعل أي شيء لإنقاذه. أخبرني فقط بما يجب عليَّ فعله».

ابتسم لوبين ابتسامة تشجيع، وقال: «أول خطوة هي أن نخطط بعناية. يجب أن نعرف ما لدى دوبريك من خطط وما يخطط له. سنحتاج إلى معلومات داخلية، وسنحتاج إلى التصرف بسرعة. معًا، سنكون أقوى». هزَّت المرأة رأسها موافقةً، وكانت على استعداد لتقديم كل ما في وسعها. بينما كانت تستعد للاستماع إلى خطته، كان هناك شعور مشترك بينهما بأن الوقت ينفد، وأن اللحظات المقبلة ستكون حاسمة في تقرير مصير جلبير ومستقبلهم جميعًا.

الفصل الخامس

قائمة السبعة والعشرين

كان الطفل نائمًا بسلام على السرير. أما الأم فلم تتحرك من الكرسي الطويل حيث مددها لوبين، لكن تنفسها الأكثر هدوءًا وعودة الدم إلى وجهها كانا يشيران إلى أنها ستستيقظ قريبًا. لاحظ أنها كانت ترتدي خاتم زواج. وعندما رأى ميدالية معلقة على صدرها، انحنى وأدارها ليجد صورة صغيرة جدًّا لرجل في الأربعين من عمره وطفل، أو بالأحرى مراهق يرتدي زيًّا مدرسيًّا، وقد درس وجهه الطازج المحاط بشعر مجعد. قال لوبين: «إنه هو بالفعل، آه، يا لها من امرأة مسكينة!».

بدأت اليد التي أمسك بها بين يديه تدفأ تدريجيًّا. فتحت عينيها، ثم أغمضتهما مرة أخرى. همست: «جاك».

- لا تقلقي، إنه نائم، كل شيء على ما يرام.

كانت تستعيد وعيها الكامل. لكنها ظلت صامتة، فطرح لوبين عليها بعض الأسئلة لتحفيزها تدريجيًا على الانفتاح والتحدث. وقال لها وهو يشير إلى الميدالية التي تحتوي على الصور: «المراهق صاحب الزي المدرسي، إنه جلبير، أليس كذلك؟». أجابت: «نعم».

- وجلبير هو ابنك؟

ارتجفت وهمست: «نعم، جلبير هو ابني، ابني الأكبر». هكذا، كانت هي والدة جلبير، المعتقل في سجن سانتيه، المتهم بالقتل، والذي كانت العدالة تلاحقه بصرامة! واصل لوبين: «والصورة الأخرى؟».

– إنها لزوجي.

– زوجك؟

– نعم، لقد توفي منذ ثلاث سنوات.

جلست. عادت الحياة لتتدفق في جسدها مجددًا، وكذلك الخوف من الحياة، والخوف من كل الأمور المروعة التي تهددها. قال لها لوبين مرة أخرى: «ما اسم زوجك؟». ترددت لحظة وأجابت: «ميرجي». صاح: «فيكتوارن ميرجي، النائب؟».

– نعم.

ساد صمت طويل. لم ينسَ لوبين الحدث، ولا الضجة التي أحدثها موت هذا الرجل. قبل ثلاث سنوات، في ممرات البرلمان، أطلق النائب ميرجي النار على نفسه، دون أن يترك كلمة توضح سبب انتحاره، ولم يتمكن أحد فيما بعد من العثور على سبب لهذا الانتحار. قال لوبين مستكملًا أفكاره بصوتٍ عالٍ: «السبب، أنتِ تعلمينه، أليس كذلك؟».

– نعم.

- هل يتعلق بجلبير؟

- لا، جلبير كان قد اختفى منذ عدة سنوات، طرده زوجي ولعنه. كان حزنه عميقًا، لكن كان هناك سبب آخر...

- ما هو؟

لم يكن هناك حاجة إلى أن يسأل لوبين المزيد من الأسئلة. لم تعد السيدة ميرجي تستطيع الصمت، وبدأت تتحدث ببطء في البداية، مع القلق من كل ذلك الماضي الذي كان عليها أن تحييه، فقالت: «قبل خمسة وعشرين عامًا، عندما كنتُ أدعى كلاريس دارسيل، وكان والداي لا يزالان على قيد الحياة، التقيت في نيس، بثلاثة شباب ستصبح أسماؤهم علامات مباشرة على الدراما الحالية: أليكسيسي دوبريك، فيكتوارن ميرجي، ولويس براسفيل. كانوا يعرفون بعضهم منذ الصغر، زملاء دراسة، أصدقاء في الجيش. كان براسفيل يحب حينها ممثلة كانت تغني في أوبرا نيس. أما الآخران، ميرجي ودوبريك، فقد أحباني. سأكون موجزة بشأن كل هذا، فالأحداث تتحدث بما فيه الكفاية. منذ اللحظة الأولى، أحببت فيكتوارن ميرجي. ربما أخطأت بعدم الإعلان عن ذلك فورًا. لكن كل حب صادق يكون خجولًا ومترددًا وخائفًا، ولم أعلن عن اختياري إلا بكل يقين وحرية. لكن، للأسف، فترة الانتظار هذه، التي تكون ممتعة للغاية لأولئك الذين يحبون ولا يصرحون، سمحت لدوبريك بأن يأمل في حبي. كان غضبه مروعًا عند معرفة الحقيقة».

توقفت كلاريس ميرجي لبضع ثوانٍ، ثم واصلت بصوت متغير: «سأتذكر ذلك دائمًا، كنا نحن الثلاثة في الصالون. آه! أسمع الكلمات التي نطق بها، كلمات الكراهية والتهديد الرهيب. كان فيكتوارن مذهولًا. لم يرَ قط صديقه على هذا النحو، بهذا الوجه المقزز، هذه النظرة الوحشية، نعم، كان مثل حيوان مفترس، كان يصر على أسنانه. كان يضرب بقدمه. كانت عيناه –لم يكن يرتدي نظارات حينها– محمرتين، وكانت

تتدحرج في محجريهما، ولم يتوقف عن تكرار: «سأنتقم، سأنتقم، آه! أنتم لا تعلمون ما أنا قادر على فعله. سأنتظر إذا لزم الأمر، عشرة أعوام، عشرين عامًا، لكن الأمر سيحدث كضربة صاعقة، آه! أنتم لا تعلمون، الانتقام، فعل الشر، من أجل الشر، يا لها من سعادة! لقد وُلدتُ لأفعل الشر، وستتوسلان إليَّ كلاكما على ركبتيكما، نعم، على ركبتيكما». بمساعدة والدي الذي دخل في تلك اللحظة، وخادم، طرد فيكتوارن ميرجي هذا الكائن المروع. وبعد ستة أسابيع، تزوجت فيكتوارن».

قاطعها لوبين: «وماذا عن دوبريك؟ ألم يحاول...؟».

- لا، لكن في يوم زفافي، عند عودته إلى منزله، وجد لويس براسفيل، الذي كان شاهدنا على الزواج رغم معارضة دوبريك، المرأة التي أحبها، تلك المغنية من أوبرا نيس... وجدها ميتة، مخنوقة...

قال لوبين، مرتعشًا: «ماذا! هل يمكن أن يكون دوبريك...؟».

- كان من المعروف أن دوبريك كان يلاحق تلك المرأة لعدة أيام، لكن لم يُعرف شيء أكثر من ذلك. لم يكن بالإمكان تحديد من دخل في غياب براسفيل، ومن خرج. لم يُكتشف أي دليل، لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

- وبراسفيل...

- بالنسبة إلى براسفيل وبالنسبة إلينا، لم يكن هناك شك في الحقيقة. دوبريك حاول اختطاف المرأة، وربما حاول إجبارها على شيء ما، وفي أثناء الصراع، فقد السيطرة على نفسه، وأمسك بها من عنقها وقتلها دون أن يدرك تمامًا ما كان يفعله. ولكن، لم يكن هناك أي دليل على ذلك؛ لم يُفتح حتى التحقيق مع دوبريك.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لسنوات، لم نسمع عنه شيئًا. علمنا فقط أنه أفلس بسبب المقامرة، وأنه سافر إلى أمريكا. ورغم أنني حاولت نسيان غضبه وتهديداته، كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه لم يعد يحبني، ولم يعد يفكر في الانتقام. على أي حال، كنت سعيدة جدًّا بما يكفي لأتجاهل ما لم يكن له علاقة بحبي، بسعادتي، بمسيرة زوجي السياسية، وبصحة ابني أنطوان.

- أنطوان؟

- نعم، هذا هو الاسم الحقيقي لجلبير، على الأقل نجح في إخفاء هويته.

سأل لوبين: «في أي وقت، بدأ جلبير؟...».

- لا أستطيع أن أخبرك بالضبط؛ جلبير -وأفضل أن أدعوه هكذا، ولا أنطق باسمه الحقيقي مرة أخرى- جلبير كان في طفولته مثلما هو الآن، لطيفًا، محبوبًا من الجميع، ساحرًا، لكنه كان كسولًا وغير منضبط. عندما بلغ الخامسة عشرة، أرسلناه إلى مدرسة داخلية في ضواحي باريس، تحديدًا لإبعاده عنا قليلًا. طُرِد بعد عامين.

- لماذا؟

- لسوء سلوكه. اكتشفوا أنه كان يهرب ليلًا، وأيضًا، أنه كان يختفي لأسابيع في الوقت الذي كان يدعي فيه أنه معنا.

- ماذا كان يفعل؟

- كان يلهو، يلعب في السباقات، ويقضي وقته في المقاهي والحفلات العامة.

- هل كان لديه المال؟

- نعم.

- من كان يعطيه المال؟

- شيطانه الشرير، الرجل الذي كان يُخرجه سرًّا من المدرسة، الرجل الذي أفسده وأغواه وسلبه منا، الذي علمه الكذب، والفساد، والسرقة.

- دوبريك؟

- نعم، دوبريك.

أخفت كلاريس وجهها بين يديها المتشابكتين، وتابعت بصوت مرهق: «لقد انتقم دوبريك. في اليوم التالي مباشرة لطرد زوجي لطفلنا المسكين من المنزل، كشف لنا دوبريك، في رسالة مليئة بالسخرية، عن الدور البغيض الذي لعبه والمكائد التي استخدمها لإفساد ابننا. وأضاف: «السجن يومًا ما، لاحقًا المحكمة، ثم، **المقصلة**».

صرخ لوبين: «ماذا؟ هل دوبريك هو من دبر هذه القضية الحالية؟».

- لا، لا، الأمر ليس سوى مصادفة. التنبؤ البغيض لم يكن سوى أمنية عبَّر عنها. لكن كم كانت تخيفني! كنت مريضة في ذلك الوقت. ابني الآخر، جاك الصغير، كان قد وُلِد للتو. وفي كل يوم كان يصلنا خبر جديد عن جريمة ارتكبها جلبير، توقيعات مزورة، احتيالات، حتى أعلنَّا في محيطنا أنه سافر للخارج، ثم أنه مات. كانت الحياة بائسة، وزادت بؤسًا عندما اندلعت العاصفة السياسية التي غرق فيها زوجي.

- كيف ذلك؟

- سأختصر لك الأمر، اسم زوجي كان مدرجًا في قائمة السبعة والعشرين.

- آه!

فجأة، انكشفت الأمور أمام أعين لوبين، ورأى في لمحة سريعة العديد من الحقائق التي كانت مخفية عنه. استمرت كلاريس ميرجي بصوت أقوى: «نعم، اسمه كان مدرجًا هناك، لكن عن طريق الخطأ، نوع من الحظ السيئ الذي جعله ضحية. فيكتوارن ميرجي كان عضوًا في اللجنة المكلفة بدراسة قناة بنما الفرنسية[1]. صوَّت مع أولئك الذين أيدوا مشروع الشركة. حتى إنه تلقَّى، نعم، أقولها بوضوح، تلقَّى خمسة عشر ألف فرنك. ولكن، فعل ذلك لصالح صديق سياسي له كان يثق به ثقة مطلقة، وكان مجرد أداة عمياء، غير واعية. كان يعتقد أنه يؤدي عملًا جيدًا، لكنه دمَّر نفسه. وفي اليوم الذي انتحر فيه رئيس الشركة واختفى أمين الصندوق، عندما ظهرت فضيحة القناة بكل قذارتها وتلاعباتها، في ذلك اليوم فقط عرف زوجي أن العديد من زملائه قد باعوا أنفسهم، وفهم أن اسمه، مثل أسماء آخرين من النواب، زعماء المجموعات، البرلمانيين المؤثرين، كان على تلك القائمة الغامضة التي تحدثوا عنها فجأة. يا لها من أيام رهيبة! هل ستُنشر القائمة؟ هل سيُذكر اسمه؟ يا له من عذاب! هل تذكر الفزع الذي عمَّ البرلمان، هذه الأجواء من الرعب والاتهامات؟ من كان يملك القائمة؟ لم نكن نعلم. كنا نعلم فقط بوجودها. هذا كل شيء. لم يُعرف قط من كان وراء الكشف عنها، ولا في أيدي من كانت الأوراق هذه الخطيرة.

(1) النص يشير إلى مشروع قناة بنما في أواخر القرن التاسع عشر كان محاولة طموحة بقيادة فرديناند دي ليسيبس لبناء قناة تربط بين المحيطين الأطلسي والهادئ. رغم البداية الواعدة، واجه المشروع صعوبات تقنية أدت إلى فشله. هذا الفشل تلاه فضيحة فساد كبرى في فرنسا، حيث كشف أن شخصيات سياسية واقتصادية بارزة تورطت في اختلاسات ورشاوى، بعد تبديد الأموال العامة المخصصة للمشروع. الفضيحة أحدثت صدمة كبيرة في المجتمع الفرنسي وأضعفت ثقة الناس بالحكومة، وانتهى الأمر بانسحاب فرنسا من المشروع عام 1904 وأكملته الولايات المتحدة لاحقًا. (المترجم)

- دوبريك؟

- لا! لم يكن دوبريك شيئًا في ذلك الوقت، لم يكن قد ظهر على الساحة بعد. لا، الحقيقة ظهرت فجأة، من قِبَل الشخص الذي كان يمتلكها، جيرمينو، وزير العدل السابق، وابن عم رئيس شركة القناة. كان مريضًا، مصابًا بالسل، وهو على فراش الموت، كتب إلى رئيس الشرطة، وورثه هذه القائمة التي قال له إنه سيجدها بعد موته في صندوق حديدي في غرفته. أُحيط المنزل برجال الشرطة. استقر رئيس الشرطة بجانب المريض. مات جيرمينو. وعندما فتحوا الصندوق، وجدوه فارغًا.

قالت السيدة ميرجي بصوت مرتجف، مما زاد اضطرابها مع كل دقيقة: «نعم، دوبريك، دوبريك، الذي، منذ ستة أشهر، متخفيًا وغير معروف، كان يعمل كسكرتير لجيرمينو. كيف علم أن جيرمينو كان يحمل الورقة الشهيرة؟ لا يهم. المهم أنه قد كسر الخزنة في الليلة التي سبقت الوفاة. التحقيق أثبت ذلك، وحُددت هوية دوبريك.

- لكن، لماذا لم يعتقلوه؟

- لماذا؟ كانوا يعلمون أنه على الأرجح قد أخفى القائمة في مكان آمن. اعتقاله كان سيؤدي إلى فضيحة، وإعادة فتح القضية القبيحة التي كان يريد الجميع إخفاءها بأي ثمن.

- إذًا، ماذا فعلوا؟

- فاوضوه.

ضحك لوبين وقال: «تفاوض مع دوبريك، هذا مضحك!». قالت السيدة ميرجي بحدة: «نعم، مضحك جدًّا. في أثناء ذلك، كان دوبريك يتصرف بسرعة، ودون خجل، متجهًا مباشرة نحو الهدف. بعد ثمانية أيام من سرقته، ذهب إلى مجلس النواب، طلب مقابلة زوجي، وبكل وقاحة طلب

منه ثلاثين ألف فرنك خلال أربع وعشرين ساعة. وإلا، الفضيحة والعار. كان زوجي يعرف هذا الشخص، وكان يعلم أنه لا يرحم، مليء بالضغينة والوحشية، لذا فقد صوابه وانتحر».

لم يستطع لوبين أن يمنع نفسه من القول: «هذا جنون! دوبريك يملك قائمة تضم سبعة وعشرين اسمًا. لكي يكشف عن اسم واحد منها، يجب عليه، إذا أراد أن يصدق الناس اتهامه، أن ينشر القائمة بأكملها، وهذا يعني التخلي عن الوثيقة، أو على الأقل صورة لها، مما سيؤدي إلى الفضيحة، ولكنه سيحرم نفسه من أي وسيلة للضغط أو الابتزاز».

- الأمر ليس هكذا.

- كيف عرفتِ؟

- من دوبريك نفسه، من دوبريك الذي جاء لزيارتي، هذا الوغد، روى لي ببرود لقاءه مع زوجي والكلمات التي تبادلاها. الحقيقة أنه لا يملك فقط هذه الورقة الشهيرة التي كتب عليها الصراف الأسماء والمبالغ المستلمة، والتي وقع عليها رئيس الشركة بدمه قبل أن يموت. ليس هذا فقط. هناك أيضًا أدلة أخرى أقل وضوحًا يعرف المهتمون بوجودها: مراسلات بين رئيس الشركة وصرافه، بين الرئيس ومستشاريه القانونيين، إلخ. الورقة المرسومة هي الدليل الوحيد، الذي لا يمكن إنكاره، والذي لن يكون له فائدة إذا نُسخ أو صُوِّر، لأن أصالته يمكن التحقق منها بدقة شديدة، كما يقولون. ومع ذلك، فإن الأدلة الأخرى خطيرة. لقد كانت كافية بالفعل لتدمير نائبين. ودوبريك يعرف كيف يستغل ذلك ببراعة. يخيف الضحية المختارة، يرعبها، يظهر لها الفضيحة الحتمية، فتدفع الضحية المبلغ المطلوب، أو ينتهي الأمر بالانتحار كما فعل زوجي. هل تفهم الآن؟

- فهمت.

وفي الصمت الذي تلا ذلك، أعاد بناء حياة دوبريك في ذهنه. رأى دوبريك وهو يستغل تلك القائمة، يستخدم قوته، يظهر تدريجيًا من الظلال، يوزع المال الذي كان يبتزه من ضحاياه بسخاء، يُنتخب كمستشارٍ عامٍ، ثم نائبٍ، يحكم بالتهديد والرعب، دون عقاب، لا يمكن الوصول إليه، ولا يمكن مهاجمته، يُخشى منه من الحكومة التي تفضل الخضوع لأوامره بدلًا من إعلان الحرب عليه، يُحترم من السلطات العامة، لدرجة أنه عيَّن براسفيل أمينًا عامًّا لشرطة باريس، رغم كل المعايير، لمجرد أنه يكره دوبريك كرهًا شخصيًّا.

سألها لوبين: «وهل رأيتِه مجددًا؟».

- نعم، رأيته. كان لا بد من ذلك. كان زوجي قد مات، لكن شرفه ظل سليمًا. لم يشك أحد في الحقيقة. لحماية الاسم الذي تركه لي، قبلت لقاءً أوليًّا مع دوبريك.

- لقاء أولي، كان هناك العديد من اللقاءات الأخرى، أليس كذلك؟

قالت بصوت مختنق: «نعم، العديد من اللقاءات، نعم، العديد من اللقاءات، في المسرح، أو أحيانًا في إنغين، أو في باريس، ليلًا... لأنني كنت أخجل من مقابلة هذا الرجل، ولا أريد أن يعرف أحد، لكن كان لا بد من ذلك، واجب أكثر إلحاحًا من أي شيء أمرني بذلك، واجب الانتقام لزوجي...».

انحنت نحو لوبين، وقالت بحماس: «نعم، الانتقام كان سبب تصرفي والهدف من حياتي. الانتقام لزوجي، الانتقام لابني المفقود، الانتقام لنفسي، من كل الأذى الذي ألحقه بي، لم يكن لديَّ حلم آخر، أو هدف آخر. أردت فقط تدمير هذا الرجل، إفلاسه، دموعه -كما لو كان بإمكانه البكاء!- نحيبه، يأسه...

قاطعها لوبين، وهو يتذكر المشهد بينهما في مكتب دوبريك: «أردتِ موته...».

- لا، ليس موته. فكرت في ذلك كثيرًا، حتى إنني رفعتُ يدي عليه، لكن ما الفائدة! لا بد أنه اتخذ احتياطاته. ستبقى الورقة. ثم، الانتقام ليس في القتل، كان حقدي أعمق، كنت أريد تدميره وسقوطه، ولهذا، كانت هناك طريقة واحدة فقط: اقتلاع مخالبه. دوبريك دون تلك الوثيقة التي تجعله قويًّا، دوبريك لن يكون موجودًا. إنها الانهيار الفوري، الغرق، وفي أي ظروف بائسة! هذا ما كنت أبحث عنه.

- لكن دوبريك لم يكن يشك في نواياكِ؟

- بالطبع لا. وكانت، أؤكد لك، لقاءات غريبة بيننا، أنا أراقبه، أحاول اكتشاف السر الذي يخفيه وراء كلماته، وهو...

قال لوبين، مكملًا أفكار كلاريس ميرجي: «وهو، هو يراقب الفريسة التي يريدها، المرأة التي لم يتوقف عن حبها، والتي يحبها، والتي يريدها بكل قوته، وبكل غضبه...». خفضت رأسها وقالت ببساطة: «نعم».

مبارزة غريبة، بالفعل، تلك التي وضعت هذين الكائنين وجهًا لوجه، حيث كان يفصل بينهما الكثير من الأشياء التي لا ترحم. يا لها من شهوة جامحة عند دوبريك حتى يجازف بمثل هذا التهديد الدائم بالموت، ويُدخل إلى جانبه، في خصوصيته، تلك المرأة التي كان قد دمَّر حياتها! ولكن، يا له من شعور بالأمان المطلق يجب أن يكون قد شعر به أيضًا! سأل لوبين: «وإلى ماذا قادتكِ أبحاثكِ؟».

- أبحاثي، كانت طويلة وغير مجدية. الوسائل التي استخدمتها، تلك التي استخدمتها الشرطة، كنتُ قد استخدمتها أنا قبل سنوات دون جدوى. كنت بدأت بفقدان الأمل، وفي يوم من الأيام، في أثناء

زيارتي لدوبريك في فيلته في إنغين، التقطت ورقة ممزقة تحت طاولة مكتبه، ملقاة بين أوراق سلة المهملات. كانت تحتوي على بضع سطور مكتوبة بخط يده بالإنجليزية الركيكة. قرأت: «فرِّغ الكريستال من الداخل بحيث يترك فراغًا لا يمكن اكتشافه».

ربما لم أكن لأُولي هذه العبارة كل تلك الأهمية التي تستحقها، لو لم يكن دوبريك، الذي كان في الحديقة في ذلك الوقت، قد دخل بسرعة وبدأ في البحث في سلة المهملات بلهفة واضحة. نظر إليَّ بنظرة مريبة. قال: «كانت هناك... رسالة». تظاهرت بعدم الفهم. لم يُصِرَّ على سؤاله، ولكن لم أنسَ اضطرابه، ووجهت أبحاثي في هذا الاتجاه. وبعد شهر، اكتشفت في رماد المدفأة في الصالون نصف فاتورة إنجليزية. جون هوارد، صانع الزجاج في ستوربريدج، قد زود النائب دوبريك بزجاجة من الكريستال مطابقة للنموذج. أثارتني كلمة «كريستال»، فانطلقت إلى ستوربريدج، ورشوت المشرف على الزجاج، وعلمت أن سدادة هذه الزجاجة، وفقًا لتعليمات صاحب الطلب، قد فُرغت من الداخل بحيث تترك فراغًا لا يمكن اكتشافه.

هزَّ لوبين رأسه: «لم يترك هذا التوضيح أي شك. ومع ذلك، لم يبد لي، حتى تحت طبقة الذهب... ستكون تلك مخبأ صغيرًا جدًّا. قالت: «صغير، لكنه كافٍ».

- كيف تعرفين ذلك؟

- من براسفيل.

- هل تلتقين به؟

- منذ ذلك الوقت، نعم. قبل ذلك، كنت أنا وزوجي قد قطعنا كل علاقتنا به، بعد بعض الحوادث المشبوهة. براسفيل رجل ذو أخلاق مشكوك فيها، طموح بلا ضمير، وقد لعب بالتأكيد دورًا

قذرًا في قضية قناة بنما. وتربحه من هذا المشروع كان احتمالًا قويًا. على أي حال، كنت بحاجة إلى المساعدة. لقد عُيِّن للتو سكرتيرًا عامًّا لشرطة باريس. لذا، اخترته.

- هل كان يعلم بسلوك ابنكِ جلبير؟

- لا. وكنتُ حذرة، بسبب موقعه، فأكدت له، كما فعلت مع جميع أصدقائنا، مغادرة جلبير ووفاته. أما باقي الأمور، فقد أخبرته بالحقيقة، أي الأسباب التي أدت إلى انتحار زوجي والهدف الانتقامي الذي كنت أتبعه. عندما أطلعته على اكتشافاتي، قفز من الفرح وشعرت أن كراهيته تجاه دوبريك لم تقل. تحدثنا طويلًا، وأخبرني أن القائمة كانت مكتوبة على قطعة رقيقة جدًّا من الورق، وكان من الممكن، إذا ما تم ضغطها وتحويلها إلى كرة صغيرة، أن توضع في مساحة صغيرة جدًّا. بالنسبة إليه، كما بالنسبة إليَّ، لم يكن هناك أدنى شك. كنا نعرف المكان المخفي. اتفقنا على أن يعمل كل منا بشكل مستقل، بينما نتواصل سرًّا. أوصلته إلى كليمنس، البوابة في ساحة لامارتين التي كانت مخلصة لي تمامًا.

- لكنها كانت أقل إخلاصًا لبراسفيل، لديَّ الدليل على أنها خانته.

- ربما الآن، في البداية لا. كانت علميات تفتيش الشرطة عديدة. وفي تلك الفترة، قبل عشرة أشهر، عاد جلبير إلى حياتي. الأم لا تتوقف عن حب ابنها، مهما فعل، مهما يفعل. ولدى جلبير الكثير من السحر! أنت تعرف ذلك. بكى، وقبَّل جاك الصغير، أخوه... باختصار سامحته.

قالت بصوت منخفض، وعيناها مثبتتان على الأرض: «ليتني لم أسامحه! آه! لو أن تلك اللحظة يمكن أن تعود، لكان لديَّ الشجاعة المروعة لطرده. يا لطفلي المسكين، أنا من أضعته...

تابعت بتأمل: «كنت سأمتلك كل الشجاعة لو كان كما تخيلته، وكما كان لفترة طويلة، حسب ما قال لي، كان مستغرقًا في الفساد والرذيلة، فظًّا، منحطًّا، لكن رغم أنه كان لا يمكن التعرف عليه من حيث المظهر، من الناحية الأخلاقية، بالتأكيد، كان هناك تحسن. لقد دعمته. وعلى الرغم من أن حياته كانت مثيرة للاشمئزاز بالنسبة إليَّ، فإنه كان يحتفظ بشيء من الشرف، شيء كان يحاول التغيير من نفسه، كان مبتهجًا، غير مبالٍ، سعيدًا، وكان يتحدث عنك بمثل هذه العاطفة!».

كانت تبحث عن كلماتها، مترددة، غير راغبة في إدانة نمط الحياة الذي اختاره جلبير أمام لوبين، ولكنها غير قادرة على الثناء عليه أيضًا.

قال لوبين: «وماذا بعد؟».

- بعد ذلك، رأيته كثيرًا. كان يأتي لزيارتي، سرًّا، أو كنت أذهب للقائه، ونسير معًا في الريف. وهكذا، شيئًا فشيئًا، قمت بإخباره بقصتنا. اشتعل حماسه على الفور. أراد أيضًا الانتقام لوالده، عن طريق سرقة السدادة الكريستال، الانتقام لنفسه من الضرر الذي ألحقه به دوبريك. فكرته الأولى، والتي يجب أن أقول إنه لم يتراجع عنها قط، كانت التعاون معك.

صرخ لوبين: «إذًا، كان عليكِ أن...».

- نعم، أعلم، وكان لي الرأي نفسه. ولكن للأسف، ابني المسكين جلبير -كما تعلمون، ضعيف- كان تحت تأثير أحد أصدقائه.

- فوشيراي، أليس كذلك؟

- نعم، فوشيراي، روح مريبة، مليئة بالحقد والحسد، طموح ماكر، رجل يحيك المكائد، وكان قد استولى على عقل ابني بشكل كبير. ارتكب جلبير خطأً كبيرًا عندما وثق به وطلب نصيحته. كل المشكلات بدأت من هنا. أقنعه فوشيراي وأقنعني أيضًا، بأن

الأفضل أن نتصرف بأنفسنا. درس فوشيراي القضية، وتولى القيادة، وأخيرًا نظَّم العملية في إنغين تحت قيادتك، وكذلك عملية السطو على فيلا ماري تيريز التي لم يتمكن براسفيل وعملاؤه من تفتيشها بالكامل بسبب الحراسة المشددة من قِبَل الخادم ليونار. كان ذلك جنونًا. كان يجب علينا إما أن نعتمد على خبرتك بالكامل وإما أن نبقيك بعيدًا تمامًا عن المؤامرة، لتجنب أي سوء فهم أو تردد. ولكن ماذا تريد؟ كان فوشيراي يسيطر علينا. قَبِلت لقاءً مع دوبريك في المسرح. وفي ذلك الوقت جرت العملية. عندما عدت إلى منزلي قرابة منتصف الليل، علمت بالنتيجة المروعة، مقتل ليونار واعتقال ابني. على الفور شعرت بمستقبل مظلم. كانت نبوءة دوبريك الرهيبة تتحقق، الإدانة والمحكمة والإعدام. وكل ذلك بسببي، بسبب أنا الأم التي دفعت ابنها نحو الهاوية التي لا يمكن لأحد أن ينقذه منها.

كلاريس كانت تلوي يديها وتهتز من الغضب. أي معاناة يمكن مقارنتها بمعاناة أم تخشى على حياة ابنها. بتأثر وشفقة، قال لها لوبين: «سوف ننقذه. لا شك في ذلك. لكن من الضروري أن أعرف جميع التفاصيل. أرجوكِ، أكملي، كيف علمتِ، في الليلة نفسها، بأحداث إنغين؟».

تحكمت في نفسها، وبوجه متجهم من القلق، أجابت: «من اثنين من أتباعك، أو بالأحرى من اثنين من أتباع فوشيراي اللذين كانا مخلصين له تمامًا، وقد اختارهما لقيادة القاربين».

- هذان اللذان بالخارج، جرونيار ولوبالو؟

- نعم. عند عودتك من الفيلا، عندما كنت مطاردًا على البحيرة من قِبَل مفوض الشرطة، وذهبت إلى سيارتك، ألقيتَ عليهم بعض

الكلمات التوضيحية وأنت تتجه نحو سيارتك. مذعورَيْن، هرعا إلى منزلي، حيث كانا قد زاراني من قبل، وأخبراني بالخبر الرهيب. كان جلبير في السجن! يا لها من ليلة مرعبة! ماذا نفعل؟ أن نبحث عنك؟ بالطبع، ونتوسل مساعدتك. لكن أين يمكننا أن نجدك؟ عندها قرر جرونيار ولوبالو، تحت ضغط الظروف، أن يشرحا لي دور صديقهما فوشيراي، طموحاته، وخطته التي لطالما فكر فيها...

قال لوبين بابتسامة ساخرة: «للتخلص مني، أليس كذلك؟».

- نعم. بما أن جلبير كان محل ثقتك الكاملة، كان يراقب جلبير، وبذلك عرف جميع أمكنة إقامتك. خلال بضعة أيام، بمجرد أن يكون بحوزته السدادة الكريستال، ويصبح مالكًا لقائمة الـ27، ووريثًا لسلطة دوبريك المطلقة، كان سيُسلمك للشرطة، دون أن تتورط عصابتك، التي ستصبح عصابته الآن.

همس لوبين: «يا له من أحمق! تابع مخلص مثله!». وأضاف: «إذًا، ألواح الأبواب...».

- قُطعت بإشرافه، استعدادًا للمعركة التي بدأها ضدك وضد دوبريك، حيث بدأ العمل نفسه في منزله. كان لديه تحت تصرفه نوع من البهلوان، قزم شديد النحافة، كانت هذه الفتحات كافية له ليتجسس على جميع مراسلاتك وكل أسرارك. هذا ما كشفه لي رفيقاه. على الفور خطرت لي فكرة استخدام ابني الأصغر جاك، وهو نحيف أيضًا وذكي للغاية وشجاع كما رأيت بنفسك، لإنقاذ أخيه الأكبر. انطلقنا في الليل. بناءً على توجيهات رفاقي، وجدت في منزل جلبير الشخصي مفاتيح مكررة لشقتك في شارع ماتينيون، حيث كنت تقيم على ما يبدو. في أثناء الرحلة،

أكد لي جرونيار ولوبالو صحة قراري، وكنت أفكر قليلًا في طلب مساعدتك، وأفكر كثيرًا في استعادة السدادة الكريستال منك، والتي بالتأكيد، إذا كانت قد اكتُشفت في إنغين، كان يجب أن تكون في حوزتك. لم أكن مخطئة. بعد بضع دقائق، كان جاك الصغير، الذي دخل إلى غرفتك، قد أعادها إليَّ. غادرت، مليئة بالأمل. أصبحتُ بدوري مالكة التميمة، واحتفظت بها لنفسي دون أن أخبر براسفيل. كان لديَّ كل السلطة على دوبريك. كان سيفعل ما أريد، وبتوجيهاتي، عبدًا لإرادتي، كان سيضاعف جهوده لصالح جلبير، ويحصل على موافقة لإطلاق سراحه، أو على الأقل لضمان عدم إدانته. كان ذلك هو الخلاص.

- حسنًا، ماذا حدث؟

نهضت كلاريس في حركة مفعمة بالطاقة، انحنت نحو لوبين، وقالت بصوت خافت: «لم يكن هناك شيء في هذا السدادة، لا شيء، أتسمع؟ لا ورقة، ولا مخبأ. كانت حملة إنغين بأكملها بلا جدوى! مقتل ليونار بلا جدوى! اعتقال ابني بلا جدوى! كل جهودي بلا جدوى!».

- ولكن لماذا؟ لماذا؟

- لماذا؟ لأنكم لم تسرقوا من دوبريك السدادة التي صُنِعت بناءً على طلبه، بل السدادة التي استخدمها كعينة لصانع الزجاج جون هوارد في ستوربريدج.

لو لم يكن لوبين أمام مثل هذه المعاناة العميقة، لما تمكَّن من كبح بعض تلك التعليقات الساخرة التي تلهمها له مكائد القدر. قال بين أسنانه: «يا لها من حماقة! وما يجعلها أكثر حماقة هو أننا قد نبهنا دوبريك».

- لا، في اليوم نفسه ذهبت إلى إنغين. لم يلحظ دوبريك ولا يرى حتى اليوم سوى عملية سطو عادية، مجرد استيلاء على مجموعاته. مشاركتك أربكته.

- ومع ذلك فقد اختفت السدادة...

- في البداية، لا يمكن أن يكون لهذا الشيء أهمية كبيرة بالنسبة إليه، لأنه مجرد عينة.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- هناك خدش عند قاعدة الساق، وقد استفسرت عنه لاحقًا في إنجلترا.

- حسنًا، ولكن، لماذا كان المفتاح دائمًا مع الخادم ولم يتركه مطلقًا؟ ولماذا عُثِر عليه في درج طاولة في منزل دوبريك في باريس؟

- من الواضح أن دوبريك يهتم بهذا الشيء، ويحتفظ به كما يحتفظ الشخص بعينة لشيء ذي قيمة. ولهذا السبب أعدت السدادة إلى الخزانة قبل أن يُكتشف اختفاؤها. ولهذا السبب أيضًا، في المرة الثانية، جعلت طفلي جاك يأخذ السدادة من جيب معطفك ويعيدها عبر البواب.

- إذًا، لم يشك في شيء؟

- لا، إنه يعلم أنهم يبحثون عن القائمة، لكنه لا يعرف أن براسفيل وأنا نعرف الشيء الذي يخفي فيه القائمة.

نهض لوبين وبدأ يسير عبر الغرفة مفكرًا. ثم توقف بجانب كلاريس ميرجي.

- في النهاية، منذ أحداث إنغين، لم تتقدمي خطوة واحدة إلى الأمام؟

- ولا خطوة واحدة. لقد تصرفت يومًا بيوم، مدفوعة بهذين الرجلين أو أدفعهما، كل ذلك دون خطة واضحة.

- أو على الأقل، دون خطة أخرى غير نزع قائمة الـ27 من دوبريك.

- نعم، ولكن كيف؟ لقد كانت مناوراتك تربكنا، ولم يطل الوقت حتى اكتشفنا أن الطاهية الجديدة لدوبريك خادمتك القديمة فيكتوار، وبواسطة توجيهات البوابة، اكتشفنا أن فيكتوار كانت توفر لك مأوى، وكنت أخشى خططك.

- هل أنتِ من كتبت لي تطلبين مني الانسحاب من المعركة؟

- نعم.

- هل أنتِ أيضًا من طلب مني عدم الذهاب إلى المسرح في ليلة الفودفيل؟

- نعم، فقد رأت البوابة فيكتوار وهي تستمع إلى المحادثة التي كانت بيني وبين دوبريك عبر الهاتف، ورأى لوبالو، الذي كان يراقب المنزل، أنك خرجت. لذا كنت واثقة أنك ستتبع دوبريك في تلك الليلة.

- والمرأة التي جاءت هنا في إحدى الأمسيات؟

- كانت أنا، أنا، المحبطة، التي أرادت مقابلتك.

- هل أنت من اعترضتِ رسالة جلبير؟

- نعم، كنت قد تعرفت على خطه على الظرف.

- ولكن لم يكن طفلك جاك معك؟

- لا. كان بالخارج، في سيارة مع لوبالو. جعلته يصعد عبر نافذة الصالون، وانزلق إلى هذه الغرفة عبر فتحة اللوح.

- ماذا كانت تحتوي الرسالة؟

- للأسف، كانت تحتوي على انتقادات من جلبير. كان يتهمك بإهماله، وبأنك تستولي على القضية لنفسك. باختصار، أكد لي ذلك شكوكي. فهربت.

رفع لوبين كتفيه بغيظ: «يا للوقت الذي ضاع! وبأي قدر من الحظ السيئ لم نتمكن من التفاهم في وقت مبكر! كنا نلعب لعبة الغميضة، ننصب الفخاخ الغبية بعضنا لبعض، وكانت الأيام تمر، أيام ثمينة لا يمكن تعويضها».

قالت وهي ترتعش: « أنت أيضًا تخشى ما هو قادم!». صرخ لوبين: «لا، لا أخشى، لكنني أفكر فيما كان يمكننا تحقيقه من فائدة لو كنا قد وحَّدنا جهودنا. أفكر في كل الأخطاء، وكل التهورات التي كان يمكن أن نتجنبها لو كنا متفقين. أفكر في أن محاولتك الليلة لتفتيش ملابس دوبريك كانت بلا جدوى مثل المحاولات الأخرى، وأنه الآن، بفضل معركتنا الغبية، وبفضل الضجيج الذي أحدثناه في منزله، أصبح دوبريك مستعدًا وسيتخذ احتياطاته أكثر من أي وقت مضى». هزَّت كلاريس ميرجي رأسها: «لا، لا أعتقد ذلك، فالضجيج لم يكن كافيًا لإيقاظه، لأننا أجلنا هذه المحاولة ليوم واحد حتى تتمكن البوابة من وضع مخدر قوي في النبيذ الذي شربه».

وأضافت ببطء: «وبعد ذلك، كما ترى، لن يحدث أي شيء يجعل دوبريك يتخذ المزيد من الاحتياطات. حياته كلها مجموعة من الاحتياطات ضد الخطر. لا شيء يُترك للمصادفة، علاوة على ذلك، ألا يملك كل الأوراق الرابحة بين يديه؟». اقترب لوبين منها وسألها: «ماذا تقصدين؟ وفقًا لكِ، ألا يوجد أمل من هذا الجانب؟ ألا يوجد أي وسيلة للوصول إلى الهدف؟». همست: «نعم، هناك واحدة فقط، واحدة...». قبل أن تخفي وجهها مجددًا بين يديها، لاحظ شحوبها. ومرة أخرى،

ارتجفت من حمى الرعب التي اجتاحتها. اعتقد أنه فهم سبب رعبها، وانحنى نحوها، متأثرًا بألمها: «أرجوك، أجيبي بصراحة. هل هذا بسبب جلبير، أليس كذلك؟ إذا لم تستطع العدالة، لحسن الحظ، فكَّ رموز لغز ماضيه، وإذا لم يعرف أحد حتى الآن الاسم الحقيقي لشريك فوشيراي، فهناك شخص واحد على الأقل يعرف، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هل دوبريك يعرف ابنك أنطوان تحت اسم جلبير؟».

- نعم، نعم...

- ووعدك بإنقاذه، أليس كذلك؟ عرض عليك حريته، هروبه، لا أعرف ماذا، هذا ما عرضه عليك في إحدى الليالي، في مكتبه، في ليلة كنتِ فيها على وشك أن تهاجميه، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، هذا ما حدث...

- وشرطه الوحيد كان مصممًا عليه، أليس كذلك؟ شرط فظيع، مثل ما يمكن أن يتخيله هذا الوغد، لقد فهمت، أليس كذلك؟

كلاريس لم تجب. بدت مستنفدة من صراع طويل ضد عدو كان يكسب الأرضية يومًا بعد يوم، ولم يكن بإمكانها حقًّا محاربته. رأى لوبين فيها الفريسة التي استولى عليها غيره من قبل، والتي سُلِمت له كمنتصر. كلاريس ميرجي، الزوجة المحبة لميرجي الذي قتله دوبريك فعليًّا، والأم المرعوبة لجلبير الذي أفسده دوبريك، كان عليها أن تخضع لرغبة دوبريك من أجل إنقاذ ابنها من المقصلة. كانت ستصبح العشيقة، المرأة الجارية المطيعة لهذا الشخص الذي لا يمكن تصنيفه والذي لم يستطع لوبين التفكير فيه دون شعور بالاشمئزاز والغضب. جلس بجانبها، بلطف، بحركات ممزوجة بالشفقة، أجبرها على رفع رأسها، وقال لها، وهو ينظر في عينيها: «استمعي إليَّ جيدًا. أعدكِ أنني سأنقذ

ابنكِ، أعدكِ، لن يموت ابنكِ، أتسمعين، لا توجد قوة في العالم يمكنها أن تمسَّ رأس ابنكِ ما دمتُ أنا على قيد الحياة».

- أصدقك، أثق بكلامك.

- ثقي بي، هذا وعد رجل لا يعرف الهزيمة. سأنجح. فقط أرجوك أن تُعطيني التزامًا لا رجعة فيه.

- ما هو؟

- لا تري دوبريك مجددًا.

- أعدك!

- اطردي من ذهنك أي فكرة، أي خوف، مهما كان غامضًا، من أي اتفاق بينك وبينه، أي صفقة مهما كانت...

- أعدك.

كانت تنظر إليه بتعبير من الأمان والاستسلام المطلق، وتحت نظرتها، شعر بالرغبة في التضحية بنفسه، والرغبة الشديدة في إعادة السعادة لهذه المرأة، أو على الأقل، السلام والنسيان اللذان يغلقان الجراح. قال وهو ينهض، وبنبرة مفعمة بالفرح: «لنذهب، كل شيء سيكون على ما يرام. لدينا شهران أو ثلاثة أشهر أمامنا. وهذا أكثر مما نحتاج، بشرط، بالطبع، أن أكون حرًّا في تحركاتي. ولهذا السبب، ترين، يجب عليكِ الانسحاب من المعركة».

- كيف؟

- اختفي لبعض الوقت، انتقلي للعيش في الريف. ألا تشفقين على طفلك الصغير جاك؟ في هذه اللعبة، ستتضرر أعصابه، المسكين، والحقيقة أنه قد كسب حقه في الراحة، أليس كذلك، يا هرقل الصغير؟

في اليوم التالي، غادرت كلاريس ميرجي، التي أرهقتها الأحداث العديدة، والتي كانت بحاجة هي أيضًا إلى بعض الراحة كي لا تسقط مريضة، لتقيم مع ابنها في منزل صديقة لها كان يقع عند أطراف غابة سان جيرمان. ضعيفة للغاية، وعقلها مُثقل بالكوابيس، كانت عرضة لاضطرابات عصبية تتفاقم بسبب أقل اضطراب، عاشت هناك بضعة أيام من الإرهاق البدني واللا وعي. لم تعد تفكر في شيء. كانت قراءة الصحف ممنوعة عليها.

وفي ظهيرة أحد الأيام -بينما كان لوبين، يعد استراتيجيته، يدرس كيفية تنفيذ عملية اختطاف واحتجاز النائب دوبريك، وبينما كان جرونيار ولبالو، اللذان وعدهما بالعفو في حالة النجاح، يراقبان تحركات العدو، وبينما كانت جميع الصحف تعلن عن المحاكمة القادمة لشركاء أرسين لوبين، كلاهما متهم بالقتل- في هذه الظهيرة، قرابة الساعة الرابعة، دقَّ جرس الهاتف فجأة في شقة شارع شاتوبريان. التقط لوبين الهاتف: «ألو؟». نطقت صوت امرأة، بصوت لاهث: «هل السيد ميشيل بومون موجود؟».

- أنا هو، سيدتي. مع من لي شرف...

- بسرعة، سيدي، تعالَ على وجه السرعة، السيدة ميرجي قد تسممت.

لم يطلب لوبين المزيد من التوضيحات. اندفع من منزله، صعد إلى سيارته، وطلب من السائق التوجه إلى سان جيرمان. كانت صديقة كلاريس تنتظره عند باب الغرفة. قال لوبين: «هل ماتت؟».

- لا، الجرعة لم تكن كافية. الطبيب خرج للتو. لقد طمأننا على حالتها.

- ولماذا حاولت الانتحار؟

- ابنها جاك قد اختفى.

- اختُطِف؟

- نعم، كان يلعب عند مدخل الغابة. شوهدت سيارة تتوقف، نزلت منها امرأتان مسنتان. ثم سُمعت صرخات. حاولت كلاريس الركض، لكنها انهارت دون قوى، وهي تئن: إنه هو، إنه ذلك الرجل، كل شيء ضاع. كانت تبدو كالمجنونة. فجأة، حملت زجاجة إلى فمها، وشربت منها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك، بمساعدة زوجي، نقلناها إلى غرفتها. كانت تتألم كثيرًا.

- كيف عرفتِ عنواني واسمي؟

- منها، بينما كان الطبيب يعالجها. عندها اتصلت بك.

- هل يعلم أحد بالأمر؟

- لا أحد. أعلم أن كلاريس تمر بمشكلات رهيبة وأنها تفضل الصمت.

- هل يمكنني رؤيتها؟

- إنها نائمة حاليًا. بالإضافة إلى ذلك، منع الطبيب أي إثارة عاطفية.

- هل الطبيب قلق بشأن حالتها؟

- يخشى من الحمى، والاضطراب العصبي، وأي نوبة قد تجعلها تعيد محاولتها. وفي هذه المرة...

- ماذا يجب فعله لتجنب ذلك؟

- أسبوع أو أسبوعان من الهدوء التام، وهو أمر مستحيل ما دام أن ابنها جاك...

قاطعها لوبين: «هل تعتقدين أنه إذا عاد ابنها إليها...».

- آه! بالطبع، لن يكون هناك شيء للخوف منه!

- أنت متأكدة؟ حسنًا، عندما تستيقظ السيدة ميرجي، أخبريها من جانبي أنني سأعيد ابنها إليها الليلة، قبل منتصف الليل. الليلة، قبل منتصف الليل، أعدك بذلك.

بعد أن أنهى كلماته، خرج لوبين بسرعة من المنزل وصعد إلى سيارته مجددًا، وهو يصيح للسائق: «إلى باريس، ساحة لامارتين، إلى منزل النائب دوبريك».

الفصل السادس

عقوبة الإعدام

كانت سيارة لوبين تحتوي، بالإضافة إلى مكتب عمل مجهز بالكتب والورق والحبز والأقلام، على ما يشبه غرفة تغيير ملابس كاملة، تحتوي على صندوق مملوء بأدوات المكياج، وخزانة مملوءة بمختلف أنواع الملابس، وصندوق آخر مملوء بالإكسسوارات، كالمظلات والعصي والأوشحة والنظارات، وغيرها من الأدوات التي تسمح له، في أثناء التنقل، بأن يتحول من رأسه إلى قدميه.

كان الشخص الذي دقَّ جرس منزل النائب دوبريك في قرابة الساعة السادسة مساءً، رجلًا ممتلئًا بعض الشيء، يرتدي معطفًا أسود طويلًا وقبعة عالية، ووجهه مزين بخصلات شعر جانبية، وأنفه مغطى بنظارات. أخذته البوابة إلى الباب الأمامي حيث ظهرت فيكتوار بعدما رنَّ الجرس. سألها: «هل يمكن للنائب دوبريك أن يستقبل الدكتور فيرن؟».

- السيد في غرفته، وفي هذا الوقت...

- أرسلي إليه بطاقتي.

كتب في الهامش هذه الكلمات: من طرف السيدة ميرجي، وأصر قائلًا: «لا أشك أنه سيستقبلني». اعترضت فيكتوار: «ولكن...».

- أيتها العجوز، هل ستقررين أم لا؟ ما هذا الهراء!

كانت مذهولة وتمتمت: «أنت!... إنه أنت!».

- لا، إنه لويس الرابع عشر.

ودفعها إلى زاوية في المدخل: «اسمعي، بمجرد أن أكون وحدي معه، اصعدي إلى غرفتك، جهزي أغراضك بسرعة، وغادري!».

- ماذا؟

- افعلي ما أقول. ستجدين سيارتي على بعد قليل في الشارع. هيا، أعلنيني، سأنتظرك في المكتب.

- ولكن لا يوجد ضوء هنا.

- أضيئي الكهرباء.

أضاءت الكهرباء وتركت لوبين وحده.

هنا، كان يفكر بينما يجلس، هنا توجد السدادة الكريستال. إلا إذا كان دوبريك يحتفظ بها دائمًا معه، لكن لا، عندما يكون لديك مخبأ جيد، تستخدمه. وهذا المخبأ ممتاز، لأن لا أحد... حتى الآن...

كان يتفحص الأغراض في الغرفة بكل انتباه، ويتذكر الرسالة التي كتبها دوبريك إلى براسفيل: «على بعد خطوة من يدك، يا صديقي العزيز، لقد لمستها، قليلًا فقط، وستحصل عليها».

لم يَبد أن شيئًا قد تحرَّك منذ ذلك اليوم. الأشياء نفسها كانت مرمية على الطاولة، كتب، سجلات، زجاجة حبر، علبة طوابع، تبغ، غليون، كل

الأشياء التي فُتِّشت وفُحِصت مرات ومرات. فكر لوبين: «آه! ماكر، خطته مرتبة بإحكام! إنها متماسكة مثل دراما الكاتب الجيد...».

في الحقيقة، كان لوبين، رغم معرفته تمامًا بما جاء ليفعله وكيف سيتصرف، يدرك أن زيارته لم تكن دون مخاطرة مع خصم بهذه القوة. كان من الممكن تمامًا أن يظل دوبريك سيد الموقف، وأن تأخذ المحادثة مسارًا مختلفًا تمامًا عما كان يتوقعه لوبين. وهذه الاحتمالية لم تكن لتمر دون إزعاجه.

نصب كتفيه، عندما سمع صوت خطوات تقترب. دخل دوبريك. دخل دون أن ينطق بكلمة، أشار إلى لوبين الذي كان قد نهض بأن يجلس مرة أخرى، وجلس هو بنفسه أمام الطاولة، ونظر إلى البطاقة التي احتفظ بها: «الدكتور فيرن».

- نعم، يا سيد النائب، الدكتور فيرن من سان جيرمان.

- وأرى أنك تأتي من طرف السيدة ميرجي، مريضتك، بلا شك؟

- مريضتي الطارئة. لم أكن أعرفها قبل أن أُستدعى إليها، اليوم، في ظروف مأساوية للغاية.

- هل هي مريضة؟

- السيدة ميرجي سممت نفسها.

- ماذا!

أظهر دوبريك رد فعل مفاجئ، ثم تابع، دون إخفاء اضطرابه: «ماذا تقول؟ تسممت! هل ماتت؟».

- لا، الجرعة لم تكن كافية. باستثناء التعقيدات، أعتقد أن السيدة ميرجي نجت.

صمت دوبريك، وبقي ثابتًا، رأسه موجه نحو لوبين. كان لوبين يتساءل. هل ينظر إليَّ؟ هل لديه أعيُن مغلقة؟ كان من المحرج للغاية ألا يرى أعيُن خصمه، تلك الأعيُن التي كانت محجوبة بعائقين: النظارات وعدسة سوداء، أعيُن مريضة، كما أخبرته السيدة ميرجي محاطة بالدم. كيف يمكن متابعة الأفكار الخفية دون رؤية تعابير الوجه؟ كان الأمر أشبه بالقتال ضد عدو يحمل سيفًا غير مرئي. استأنف دوبريك بعد لحظة: «إذن، السيدة ميرجي قد نجت، وترسلك إليَّ، لا أفهم، أنا بالكاد أعرف هذه السيدة».

هذه هي اللحظة الحرجة، فكر لوبين. لنبدأ. وبنبرة ودية تخفي توتر شخص خجول، قال: «يا إلهي، سيدي النائب، هناك حالات يكون فيها واجب الطبيب معقدًا للغاية، وغامضًا جدًّا، وربما ستعتقد أنني بتقديمي هذا الطلب إليك... باختصار، هكذا... بينما كنت أعالجها، حاولت السيدة ميرجي مرة أخرى تسميم نفسها... نعم، كانت الزجاجة للأسف في متناول يدها. انتزعتها منها. كانت هناك مقاومة بيننا. وفي هذيان الحمى، قالت لي بصوت متقطع: إنه هو، إنه هو، دوبريك، النائب، ليعيد لي ابني، قل له ذلك، وإلا سأموت، نعم، فورًا، الليلة. أريد أن أموت. هكذا، سيدي النائب، ففكرت أنه يجب أن أحيطك علمًا. من المؤكد أن السيدة في حالة غضب شديد، بالطبع، لا أعرف المعنى الدقيق لكلماتها، لم أستجوب أحدًا، لقد جئت مباشرة، بدافع عفوي...».

فكر دوبريك طويلًا وقال: «في النهاية، دكتور، أتيت لتسألني إذا كنت أعرف مكان هذا الطفل، الذي أعتقد أنه مفقود، أليس كذلك؟».

- نعم.

- وإذا كنت أعرف، ستعيده إلى والدته؟

- نعم.

؟ يا

صمت طويل آخر. كان لوبين يفكر: «هل من الممكن أن يصدق هذه القصة؟ هل تهديد الموت هذا سيكون كافيًا؟ لا، لنرى، هذا ليس ممكنًا، ومع ذلك... ومع ذلك... يبدو أنه متردد». قال دوبريك: «وهو يقرب الهاتف الذي كان على الطاولة نحوه... هل تسمح لي؟ إنه لأمر عاجل...».

- بالطبع، سيدي النائب.

اتصل دوبريك: «آنسة... هل يمكن أن تتصلي بالرقم 822.19؟».

كرر الرقم وانتظر دون أن يتحرك. ابتسم لوبين: «إنها مديرية الشرطة، أليس كذلك؟ الأمانة العامة...».

- بالفعل، دكتور، إذًا أنت تعرف؟

- نعم، بصفتي طبيبًا شرعيًّا، كان عليَّ الاتصال بعض الأحيان، وفكر لوبين في نفسه: «ماذا يعني كل هذا بحق الجحيم؟ الأمانة العامة تعني براسفيل، ماذا إذًا؟».

وضع دوبريك السماعتين على أذنيه وقال: «الرقم 822.19؟... أريد الأمانة العامة، السيد براسفيل، إنه ليس هناك؟... لا، لا، إنه دائمًا في مكتبه في هذا الوقت، قل له إنه اتصال من السيد دوبريك، السيد دوبريك، النائب... هناك أمر مهم للغاية». قال لوبين: «ربما أكون متطفلًا؟».

- أبدًا، أبدًا، دكتور، بالإضافة إلى أن هذه المكالمة ليست بعيدة عما جئت من أجله...

ثم توقف وقال: «ألو... السيد براسفيل؟... آه! إنه أنت، صديقي العزيز براسفيل. حسنًا، تبدو متفاجئًا... نعم، هذا صحيح، لقد مرَّ وقت طويل منذ آخر لقاء بيننا، لكن، في الواقع، لم نكن بعيدين عن بعضنا بالأفكار، وقد زرتني أنت وفنانوك مرارًا... لكن، أليس كذلك...

ألو... ماذا؟ أنت مستعجل؟ آه! أعذرك، وأنا أيضًا. لذا، لننتقل مباشرة إلى الموضوع... أريد أن أقدم لك خدمة صغيرة، انتظر، أيها الأحمق، لن تندم، يتعلق بمجدك، ألو... هل تسمعني؟ حسنًا، خذ قرابة عشرة من الرجال معك... من الأمن، الأفضل أن يكونوا من رجال الأمن، الذين تجدهم في الخدمة... اقفزوا في السيارات، وتعالوا هنا بسرعة البرق، أقدم لك فريسة نادرة، يا صديقي، نبيل من الطبقة العليا. نابليون نفسه، باختصار، **أرسين لوبين**».

قفز لوبين على قدميه. كان يتوقع كل شيء إلا هذا التطور. لكن شيئًا أقوى من المفاجأة جعله يقول ضاحكًا: «آه! رائع! رائع!». انحنى دوبريك برأسه كإشارة على الشكر، وهمس: «لم ينتهِ الأمر بعد، أنت قليل من الصبر، أليس كذلك؟». وتابع: «ألو... براسفيل... ماذا؟... لكن، يا صديقي، هذا ليس مزاحًا، ستجد لوبين هنا، أمامي، في مكتبي، لوبين الذي يزعجني كما يزعج الآخرين... آه! واحد آخر، لا يهمني. ولكن، مع ذلك، هذا الشخص يتدخل بشكل غير ملائم. ولجأت إلى صداقتك. تخلص من هذا الشخص، أرجوك... بقرابة خمسة من رجال الأمن، والاثنين اللذين يقفون أمام منزلي، سيكون ذلك كافيًا. آه! وفي أثناء وجودك هنا، اصعد إلى الطابق الثالث، ستقبض على طباختي، إنها فيكتوار الشهيرة... تعرفها؟ المربية القديمة للسيد لوبين. وبالمناسبة، إليك معلومة أخرى، كم أحبك؟ أرسل فرقة إلى شارع شاتوبريان، في زاوية شارع بالزاك... هذا هو المكان الوطني الذي يقيم فيه لوبين، تحت اسم ميشيل بومون... فهمت، صديقي؟ والآن، إلى العمل. أسرع...».

عندما التفت دوبريك، كان لوبين يقف، وقبضتيه مشدودتين. لم يصمد شعوره بالإعجاب أمام بقية الخطاب، وكشف دوبريك عن معلومات حول فيكتوار ومقره في شارع شاتوبريان. كانت الإهانة قوية

جدًّا، ولم يفكر في الاستمرار بلعب دور الطبيب من البلدة الصغيرة. كان لديه فكرة واحدة فقط، وهي عدم الاستسلام لفيضان الغضب الهائل الذي دفعه للاندفاع نحو دوبريك مثل اندفاع الثور نحو العائق.

أطلق دوبريك ضحكة غريبة، تملأ الهواء بسخرية. تقدم بخطوات بطيئة، يداه في جيوب سرواله، وقال ببطء: «أليس كذلك؟ كل شيء أفضل بهذه الطريقة؟ أرض واضحة، وضع واضح، على الأقل، كل شيء واضح الآن. لوبين ضد دوبريك، نقطة على السطر. وماذا عن الوقت الذي نكسبه! كان الدكتور فيرن، الطبيب الشرعي، سيستغرق ساعتين لتفكيك قصته! بينما بهذه الطريقة، السيد لوبين مضطر إلى حل مشكلته في ثلاثين دقيقة، وإلا سيُقبض عليه هو وأعوانه، يا لها من ضربة صاعقة! ثلاثون دقيقة، ولا دقيقة أكثر. في غضون ثلاثين دقيقة، سيتعين عليه إخلاء المكان، والهرب مثل الأرنب، والفرار بسرعة. آه! آه! ما أروع هذا! بالمناسبة يا بولونيوس، صحيح أنك لم تكن محظوظًا مع السيد دوبريك! لأنك كنت أنت الذي اختبأ خلف هذا الستار، يا بولونيوس المسكين؟».

لوبين لم يتحرك. كان الحل الوحيد الذي كان سيخفف من غضبه، وهو خنق خصمه، سخيفًا للغاية بحيث فضَّل أن يتحمل السخرية التي كانت تلسعه كضربات سوط، دون أن يرد عليها. كانت هذه هي المرة الثانية، في الغرفة نفسها وفي ظروف مشابهة، التي يضطر فيها لوبين إلى الانحناء أمام هذا الدوبريك المزعج والبقاء في أكثر المواقف سخرية دون أن يتكلم، وكان لديه يقين عميق أنه إذا فتح فمه، فسيكون ذلك ليلقي بكلمات الغضب والإهانات في وجه من انتصر عليه. لكن ما الفائدة؟ أليس الأهم أن يتصرف ببرود الأعصاب ويفعل ما تتطلبه هذه الحالة الجديدة؟

استأنف النائب: «حسنًا! حسنًا! يا سيد لوبين؟ تبدو محبطًا تمامًا. لنرى، يجب عليك أن تتقبل أن هناك أحيانًا شخصًا على الطريق أقل سذاجة من الآخرين. هل كنت تعتقد، لأنني أرتدي نظارات، أنني أعمى؟ لن أقول إنني اكتشفت في الحال أن لوبين يختبئ خلف بولونيوس، وبولونيوس خلف الرجل الذي جاء ليزعجني في المسرح. لا. لكن مع ذلك، كان يزعجني. كنت أرى بوضوح أنه بين الشرطة والسيدة ميرجي، كان هناك شخص ثالث يحاول التسلل... ثم، شيئًا فشيئًا، بالكلمات التي قالتها البوابة، وبمراقبة ذهاب وإياب الطباخة، والحصول على المعلومات من المصادر الجيدة، بدأت أفهم. ثم، في الليلة الأخرى، كانت هناك لحظة إلهام. رغم أنني كنت نائمًا، سمعت الضجيج في الفندق. تمكّنت من إعادة بناء القصة، وتمكنت من تتبع أثر السيدة ميرجي أولًا إلى شارع شاتوبريان، ثم إلى سان جيرمان... ثم... ثم ماذا! جمعت الوقائع... السطو في إنغين، اعتقال جلبير... التحالف الحتمي بين الأم الحزينة ورئيس العصابة... المربية العجوز التي عُيِّنت طباخة، كل هؤلاء الناس يدخلون بيتي من الأبواب أو من النوافذ... كنت قد تأكدت. كان السيد لوبين يستعمل حاسته في الشم. رائحة الأوراق النقدية جذبتك. لم يكن هناك سوى الانتظار لزيارتك. وقد حانت الساعة. صباح الخير يا سيد لوبين».

توقف دوبريك للحظة. كان قد ألقى خطابه بارتياح واضح لرجل يعتقد أنه يستحق تقدير أذواق الأفراد الأكثر تطلبًا. بينما ظل لوبين صامتًا، أخرج دوبريك ساعته وقال: «آه! آه! لم يتبقَّ سوى ثلاث وعشرين دقيقة! كيف يمر الوقت بسرعة! إذا استمر هذا، لن يكون لدينا وقت للتفسير». وتقدم نحو لوبين مرة أخرى: «ومع ذلك، أشعر بالحزن. كنت

أعتقد أن لوبين شخص آخر. إذًا، أمام أول خصم جاد، ينهار العملاق؟ يا للشاب المسكين! هل تريد كأسًا من الماء لتستعيد أنفاسك؟».

لم يقل لوبين كلمة، ولم يتحرك من مكانه بإشارة ضيق. وبتحكم تام في نفسه، وبحركات دقيقة تشير إلى سيطرته المطلقة ووضوح خطته، أزاح دوبريك بهدوء، وتقدم نحو الطاولة وأمسك بسماعة الهاتف. طلب: «من فضلك، آنسة، أعطيني الرقم 565-34».

وعندما حصل على الرقم، قال بصوت بطيء، مميزًا كل مقطع: «ألو... أنا في شارع شاتوبريان... هل هذا أنت، أشيلي؟... نعم، إنه أنا، الرئيس... استمع إليَّ جيدًا... أشيلي... يجب أن تترك الشقة. ألو؟... نعم، فورًا... الشرطة ستأتي خلال بضع دقائق. لا، لا، لا ترتعب... لديك الوقت. فقط افعل ما أقوله لك. هل حقيبتك جاهزة؟... جيد. وهل أحد الصناديق بقي فارغًا كما قلت لك؟ ممتاز. حسنًا، اذهب إلى غرفتي، وقف أمام المدفأة. باليد اليسرى، اضغط على الزخرفة الصغيرة المنحوتة التي تزين لوحة الرخام، في المقدمة، في المنتصف؛ وباليد اليمنى، اضغط على أعلى المدفأة. ستجد هناك درجًا، وفي هذا الدرج، علبتين. كن حذرًا. تحتوي إحداهما على جميع أوراقنا، والأخرى على أوراق نقدية ومجوهرات. ضع الاثنين في الصندوق الفارغ في الحقيبة. خذ الحقيبة في يدك، واتجه مشيًا بسرعة إلى زاوية شارع فيكتور هوجو وشارع مونتسبان. السيارة هناك مع فيكتوار. سألحق بكم هناك... ماذا؟ ملابسي؟ متعلقاتي؟ اترك كل ذلك، وهيا بأسرع ما يمكن. أراك قريبًا».

دفع لوبين الهاتف بهدوء جانبًا. ثم أمسك دوبريك من ذراعه، وجعله يجلس على كرسي بجوار كرسيه، وقال له: «والآن، استمع إليَّ». ضحك النائب: «أوه! أوه! هل سنتحدث بلا ألقاب؟». قال لوبين: «نعم، سأسمح لك بذلك». وعندما حاول دوبريك، الذي لم يترك لوبين ذراعه، أن يتحرر

بحذر، قال: «لا، لا تخف. لن نتقاتل. ليس لدينا ما نكسبه من تدمير بعضنا بعضًا. ضربة بالسكين؟ لماذا؟ لا. كلمات، فقط كلمات. لكن كلمات قوية. ها هي كلماتي. إنها قاطعة. أجب بالأسلوب نفسه، دون تفكير. سيكون ذلك أفضل».

- أين الطفل؟

- لديَّ.

- أعده...

- لا.

- السيدة ميرجي ستقتل نفسها.

- لا.

- أقول لك إنها ستفعل.

- أؤكد لك أنها لن تفعل.

- ومع ذلك، لقد حاولت بالفعل.

- وهذا بالضبط هو السبب في أنها لن تحاول مرة أخرى.

- إذًا؟

- لا.

توقف لوبين للحظة ثم استأنف: «كنت أتوقع ذلك. كما توقعت، عندما جئت إلى هنا، أنك لن تتقبل قصة الدكتور فيرن، وأنه سيتعين عليَّ استخدام وسائل أخرى».

- وسائل لوبين.

- لقد قلتها. كنت مصممًا على كشف هويتي. لقد فعلت ذلك بنفسك. رائع. لكن هذا لا يغير شيئًا من خططي.

- تحدث.

أخرج لوبين من دفتر ملاحظاته ورقة مزدوجة من ورق الوزارة، فتحها وقدمها إلى دوبريك قائلًا: «إليك الجَرد الدقيق والمفصل، مع أرقام ترتيبية، للأشياء التي أخذتها أنا وأصدقائي من فيلتك ماري تيريز على ضفاف بحيرة إنغين. كما ترى، هناك 113 عنصرًا. من بين هذه العناصر، هناك 68، تلك التي تحمل علامة صليب أحمر، بِيعت وشُحِنت إلى أمريكا. أمَّا العناصر الأخرى، التي يبلغ عددها 45، فهي لا تزال بحوزتي حتى إشعار آخر. وهي بالمناسبة الأجمل. أقدمها لك مقابل تسليم الطفل فورًا».

لم يستطع دوبريك إخفاء دهشته.

- آه! آه! يبدو أنك تهتم بالأمر كثيرًا!

- كثيرًا جدًّا، لأنني مقتنع بأن غياب ابنها لفترة أطول يعني الموت للسيدة ميرجي.

- وهذا ما يزعجك، سيدي الدون جوان؟

- ماذا؟

وقف لوبين أمامه وكرر: «ماذا؟ ماذا تقصد؟».

- لا شيء، لا شيء، مجرد فكرة، كلاريس ميرجي لا تزال شابة، وجميلة...

رفع لوبين كتفيه باستخفاف. تمتم: «يا لك من حيوان! تظن أن الجميع مثلك، بلا قلب وبلا رحمة. يدهشك تصرفي، أليس كذلك، أن يتعب رجل مجرم مثلي في لعب دور دون كيخوتي[1]؟ وتتساءل عن

(1) «Don Quichotte» هي رواية شهيرة كتبها ميغيل دي ثيربانتس في أوائل القرن السابع عشر. نشرت في جزئين عامي 1605 و1615، وتُعد من أعظم الأعمال الأدبية العالمية وأحد أعمدة الأدب الإسباني. (المترجم)

الدافع القذر الذي قد يدفعني؟ لا تبحث، فهذا خارج نطاقك، أيها الرجل الطيب. الآن، أجبني... هل تقبل؟».

سأل دوبريك، غير مبالٍ بازدراء لوبين: «هل أنت جاد؟».

- تمامًا. العناصر الـ45 موجودة في مخزن، سأعطيك عنوانه، وتُسَلَّم لك إذا أتيت إلى هناك الليلة في التاسعة ومعك الطفل.

لم تكن هناك شكوك حول إجابة دوبريك. كان اختطاف الصغير جاك بالنسبة إليه مجرد وسيلة للضغط على كلاريس ميرجي، وربما أيضًا تحذير لها للتوقف عن الحرب التي شنتها. ولكن تهديدها بالانتحار كان يجب أن يظهر لدوبريك أنه يسير في الاتجاه الخاطئ. في هذه الحالة، لماذا يرفض الصفقة المربحة التي يعرضها عليه أرسين لوبين؟

قال: «أوافق».

- إليك عنوان مخزني: 95 شارع شارل لافيت، في نويي. كل ما عليك فعله هو قرع الجرس.

- ماذا لو أرسلت إليك السكرتير العام براسفيل بدلًا مني؟

- إذا أرسلت براسفيل، فإن المكان مصمم بحيث يمكنني رؤيته قادمًا، وسأكون قادرًا على الهروب، ليس قبل أن أُشعل النار في كومة التبن والقش التي تحيط وتخفي أثاثك، ساعاتك وتماثيلك القوطية.

- لكن مخزنك سيحترق...

- لا يهمني. الشرطة تراقبه بالفعل. في كل الأحوال، سأتركه.

- وكيف أضمن أن هذا ليس فخًّا؟

- ابدأ بأخذ البضائع، ولا تسلم الطفل إلا بعد ذلك. أنا واثق.

- حسنًا، لقد خططت لكل شيء. حسنًا، ستحصل على الطفل، ستعيش الجميلة كلاريس، وسنكون جميعًا سعداء. الآن، إذا كان لي أن أقدم لك نصيحة، فهي أن تغادر، وبسرعة.

- ليس بعد.

- ماذا؟...

- قلت، ليس بعد.

- لكنك مجنون، براسفيل في الطريق.

- سينتظر؛ لم أنتهِ بعد.

- ماذا؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ كلاريس ستحصل على ابنها. ألا يكفيك ذلك؟

- لا.

- لماذا؟

- هناك ابن آخر.

- جلبير؟

- نعم.

- حسنًا؟

- أطلب منك إنقاذ جلبير!

- ماذا تقول؟ أنا؟ أنقذ جلبير!

- يمكنك ذلك؛ يكفيك اتخاذ بعض الخطوات...

دوبريك، الذي حافظ حتى الآن على هدوئه، فجأة انفجر غاضبًا، وضرب بقبضته: «لا! لا، أبدًا! لا تعتمد عليَّ... آه! لا، سيكون ذلك سخيفًا للغاية!».

بدأ يمشي بتوتر شديد، بخطواته الغريبة التي توازنه من اليمين إلى اليسار على كل من ساقيه، مثل وحش بري، دب يتحرك بثقل وعدم رشاقة. وبصوت خشن، ووجه مشوه بالتشنجات، صرخ: «لتأتِ إلى هنا! لتأتِ وتتوسل من أجل حياة ابنها! لكنها يجب أن تأتي بلا سلاح وبلا نية إجرامية، كما فعلت في المرة السابقة! لتأتِ متوسلة، امرأة مهزومة، خاضعة، تفهم وتقبل... ثم سنرى... جلبير؟ حكم جلبير؟ المقصلة؟ لكن كل قوتي تكمن في ذلك! ماذا! لقد انتظرت أكثر من عشرين عامًا لهذه اللحظة، والآن عندما تحين، عندما يجلب لي الحظ هذه الفرصة التي لا تُصدق، عندما سأختبر أخيرًا فرحة الانتقام الكامل... وأي انتقام! الآن هو الوقت الذي يجب أن أتخلى فيه عن ذلك، عن هذا الشيء الذي أسعى إليه منذ عشرين عامًا؟ أنقذ جلبير، أنا، من أجل لا شيء! من أجل الشرف، أنا، دوبريك! آه! لا، لا، لم تنظر إليَّ هكذا».

كان دوبريك يضحك ضحكة بشعة وشريرة. كان واضحًا أنه يرى أمامه، في متناول يده، الفريسة التي كان يطاردها منذ زمن طويل. وأيضًا، تذكر لوبين كلاريس، كما رآها قبل أيام قليلة، منهارة، منهزمة بالفعل، قابلة للاستسلام، لأن كل القوى المعادية كانت تتآمر ضدها. متحكمًا في نفسه، قال لوبين: «اسمعني». وعندما حاول دوبريك، الذي شعر بالضجر، التملص، أمسكه لوبين من كتفيه بكل تلك القوة الخارقة التي يعرفها دوبريك، لأنه سبق أن شعر بها في المسرح، وثبَّته في مكانه، وقال: «كلمة أخيرة». تمتم النائب: «لقد فقدت قدرتك على الإقناع».

- كلمة أخيرة. اسمع يا دوبريك، انسَ السيدة ميرجي، تخلَّ عن كل الحماقات والتهورات التي تجعلك شهواتك ترتكبها، تجاهل كل ذلك وفكر فقط في مصلحتك...

قال دوبريك ساخرًا: «مصلحتي! إنها تتفق دائمًا مع كبريائي ومع ما تسميه شهواتي».

- ربما حتى الآن. ولكن ليس بعد الآن، ليس الآن وأنا قد دخلت اللعبة. هناك عنصر جديد هنا تتجاهله. وهذا خطأ. جلبير هو شريكي. جلبير هو صديقي. يجب إنقاذ جلبير من المقصلة. افعل ذلك، استخدم نفوذك. وأقسم لك، هل تسمعني، أقسم لك إننا سنتركك بسلام. إنقاذ جلبير، هذا كل شيء. لا مزيد من الصراعات ضد السيدة ميرجي، ولا ضدِّي. لا مزيد من الفخاخ. ستكون سيدًا لتتصرف على هواك. إنقاذ جلبير، دوبريك. وإلا...

- وإلا ماذا؟

- وإلا، الحرب، الحرب بلا رحمة، وهذا يعني، بالنسبة إليك، الهزيمة المؤكدة.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أنني سأعود إلى قائمة السبعة والعشرين.

- آه! حقًّا؟ تعتقد ذلك؟

- أقسم بذلك.

- ما لم يستطع براسفيل وكل جماعته، ما لم تستطع كلاريس ميرجي أو أي شخص آخر فعله، ستفعله أنت؟

- سأفعله.

- ولماذا؟ بفضل أي قوة ستنجح حيث فشل الجميع؟ هل هناك سبب؟

- نعم.

- ما هو؟

- اسمي أرسين لوبين.

ترك لوبين دوبريك، لكنه استمر في التحديق إليه بنظرة قوية، تحت تأثير إرادته. في النهاية، وقف دوبريك مستقيمًا، وربت على كتفه بنقرات صغيرة، وقال بالهدوء نفسه، وبالإصرار الغاضب نفسه: «وأنا، اسمي دوبريك. حياتي كلها ليست سوى معركة شرسة، سلسلة من الكوارث والهزائم حيث بذلت الكثير من الطاقة حتى حققت النصر، النصر الكامل، النهائي، المتغطرس، الذي لا يمكن تغييره. كل الشرطة ضدِّي، كل الحكومة، كل فرنسا، العالم بأسره. تظن أن إضافة السيد أرسين لوبين فوق ذلك سيحدث فرقًا؟ سأذهب أبعد: كلما زاد عدد أعدائي ومهارتهم، زادت حاجتي إلى اللعب بجدية أكبر. ولهذا السبب، يا سيدي المحترم، بدلًا من إلقاء القبض عليك، كما كان بإمكاني... نعم، كما كان بإمكاني، وبكل سهولة... أترك لك المجال مفتوحًا، وأذكرك بكرم أنه يجب عليك أن تخلي المكان قبل مرور ثلاث دقائق».

- إذًا، هذا يعني لا؟

- نعم، لا.

- لن تفعل شيئًا من أجل جلبير؟

- نعم، سأستمر في فعل ما أفعله منذ اعتقاله، وهو التأثير بشكل غير مباشر على وزير العدل لضمان أن تكون المحاكمة سريعة وبالاتجاه الذي أريده.

صرخ لوبين، خارجًا عن طوره: «ماذا! هذا بسببك، من أجلك...».

- نعم، من أجلي، أنا دوبريك، نعم. لديَّ ورقة رابحة، رأس الابن؛ سأستخدمها. عندما أحصل على حكم بالإعدام ضد جلبير، وعندما تمر الأيام، ويُرفَض العفو عنه بفضل خدماتي الطيبة، يمكنك أن تكون واثقًا، يا سيد لوبين، أن والدته لن ترى بعد ذلك أي اعتراضات

على أن تصبح زوجة السيد دوبريك، وستعطيني ضمانات فورية لا تقبل الجدل عن حسن نيتها. هذه النهاية السعيدة حتمية، سواء شئت أم أبيت. هذا أمر مؤكد. كل ما يمكنني فعله من أجلك هو أن أدعوك كشاهد في يوم زفافي، وأدعوك إلى الغداء. هل يناسبك ذلك؟ لا؟ هل تصر على خططك السوداء؟ حسنًا، حظًا سعيدًا، انصب فخاخك، انشر شباكك، حضِّر أسلحتك، وراجع دليل اللص البارع. ستحتاج إليه. بناء على هذا، أقول لك وداعًا. قواعد الضيافة الاسكتلندية تأمرني بإخراجك. اغرب.

ظل لوبين صامتًا لفترة طويلة. وعيناه مثبتتان على دوبريك، بدا وكأنه يقيس حجم خصمه، ويُقَدِّر وزنه، ويُقَيِّم قوته البدنية، وأخيرًا يقرر المكان الذي سيهاجمه فيه. ضغط دوبريك قبضتيه، واستعد داخليًا لأسلوب الدفاع الذي سيعتمده لمواجهة هذا الهجوم.

مرت نصف ساعة. وضع لوبين يده في جيبه. فعل دوبريك الشيء نفسه وأمسك بمقبض مسدسه، بضع ثوانٍ أخرى... ببرود، أخرج لوبين علبة ذهبية، فتحها، وقدمها لدوبريك: «حبة نعناع؟». سأل الآخر: «ما هذا؟ مندهشًا».

- حبات جيراودل[1].

- لماذا؟

- لنزلة البرد التي ستصاب بها.

---

(1) Pastilles Géraudel هي نوع من الحلوى التي كانت تُستخدم لتخفيف أعراض السعال وتهيج الحلق. صُنِعت في فرنسا لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر بواسطة لويس جيرول (Louis Géraudel). كانت تحتوي على مكونات مهدئة للحلق، وكانت تُباع كمنتج طبي لعلاج السعال والالتهابات الطفيفة في الجهاز التنفسي. (المترجم)

وباستغلال الارتباك الطفيف الذي خلفته هذه المزحة في دوبريك، أمسك لوبين بقبعته وغادر بسرعة. بالطبع، كان يفكر وهو يعبر البهو ويقول: «لقد هُزِمت هزيمة ساحقة. ولكن، مع ذلك، هذه المزحة الصغيرة لبائع متجول كان لها، في هذا السياق، شيء جديد. تَوقُّع رصاصة وتلقي حبة نعناع جيراودل... هناك شيء مخيب للآمال في ذلك. لقد تركته في حالة ذهول، القرد العجوز».

عندما كان يغلق البوابة، توقفت سيارة، ونزل منها رجل بسرعة، تبعه عدة آخرون. تعرف لوبين على براسفيل. تمتم: «السيد السكرتير العام، أحييك. لديَّ فكرة أن القدر سيضعنا وجهًا لوجه في يوم من الأيام، وأنا آسَفُ لذلك من أجلك، لأنك لا تلهمني سوى القليل من الاحترام، وستمر بوقت عصيب. اليوم، لو لم أكن في عجلة من أمري، كنت سأنتظر رحيلك وأتبعت دوبريك لمعرفة إلى من سيعهد بالطفل الذي سيعيده لي. لكنني في عجلة من أمري. بالإضافة إلى ذلك، لا شيء يضمن أن دوبريك لن يتصرف عبر الهاتف. لذا، دعونا لا نضيع جهدًا بلا طائل، ولنلتحق بفيكتوار وأشيلي وحقيبتنا الثمينة».

بعد ساعتين، كان لوبين في موقعه في المخزن في نويي، بعد أن اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة، ورأى دوبريك يخرج من شارع مجاور ويتقدم بحذر. فتح لوبين بنفسه الباب الكبير وقال: «أمتعتك هنا، سيادة النائب. يمكنك التحقق منها. يوجد بجانبنا مؤجر للسيارات، يمكنك أن تطلب شاحنة وبعض الرجال. أين الطفل؟».

فحص دوبريك الأشياء أولًا، ثم قاد لوبين إلى شارع نويي، حيث كانت امرأتان مسنتان، محجبتان، تنتظران مع الصغير جاك. ثم أخذ لوبين الطفل إلى سيارته، حيث كانت فيكتوار تنتظره. نُفِّذ كل ذلك بسرعة، دون أي كلمات غير ضرورية، وكأن الأدوار كانت قد أدوها

مسبقًا، والتحركات كانت منتظمة كما لو كانت مشاهد دخول وخروج في مسرحية.

عند الساعة العاشرة مساءً، وفَّى لوبين بوعده وأعاد الطفل جاك إلى والدته. ولكن، كان يجب استدعاء الطبيب على عجل، حيث كان الطفل يعاني اضطرابًا شديدًا ورعبًا بسبب كل هذه الأحداث. استغرق الأمر أكثر من أسبوعين حتى يتعافى الطفل ويصبح قادرًا على تحمل مشقة الانتقال، وهو أمر عَدَّه لوبين ضروريًّا. وفي الحقيقة، بالكاد كانت السيدة ميرجي نفسها قد تعافت وقت الرحيل، الذي حدث في الليل، مع اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة وتحت إشراف لوبين.

قادهما لوبين إلى شاطئ صغير في بريتاني، وأوكل رعاية الأم والابن إلى فيكتوار. قال لنفسه، عندما انتهى من الترتيبات: «أخيرًا، لم يعد هناك أحد بيني وبين دوبريك! لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئًا ضد السيدة ميرجي والطفل، وهي نفسها لم تعد معرضة لخطر إفساد المواجهة بتدخلها. يا للعجب! لقد ارتكبنا ما يكفي من الحماقات: أولًا، اضطررت إلى الكشف عن هويتي أمام دوبريك؛ ثانيًا، اضطررت إلى التخلي عن حصتي من أثاث إنغين. بالطبع، سأستعيده يومًا ما، لا شك في ذلك. ولكن، مع ذلك، نحن لا نتقدم، وفي غضون أسبوع، سيحاكم جلبير وفوشيراي أمام محكمة الجنايات».

ما كان يزعج لوبين أكثر في هذه المغامرة هو الإبلاغ عن مقر إقامته في شارع شاتوبريان من قِبل دوبريك. لقد اجتاحت الشرطة ذلك المكان. وعُرِفت هويته تحت اسم ميشيل بومون، واكتُشِفت بعض الأوراق، وكان على لوبين، رغم استمراره في متابعة هدفه ومتابعة بعض الأعمال التي بدأها بالفعل، وأيضًا تجنب ملاحقة الشرطة التي أصبحت أكثر إلحاحًا

من أي وقت مضى، وأن يُعيد تنظيم شؤونه بشكل كامل على أسس جديدة.

وبالتالي، ازداد حقده على دوبريك مع كل المتاعب التي تسبب له النائب فيها. لم يعد لديه سوى رغبة واحدة، وهي اختطافه، كما كان يقول، والاحتفاظ به تحت تصرفه، وانتزاع سره منه بالقوة أو بالرضا. كان يحلم بوسائل تعذيب تجعل أعتى الرجال ينهارون. الأحذية الحديدية، الطاولة، الكماشة الساخنة بالنار، الألواح المغروسة بالأشواك... بدا له أن العدو يستحق كل أنواع العذاب، وأن الهدف الذي يجب تحقيقه يبرر كل الوسائل.

قال لنفسه: «آه! غرفة تعذيب جيدة، مع بعض الجلادين الذين لا يهابون شيئًا... سنقوم بعمل رائع!». بعد كل ظهر يوم، كان جرونيار ولوبالو يدرسان الطريق الذي يسلكه دوبريك بين ميدان لامارتين، وغرفة النواب، والنادي الذي ينتمي إليه. كان يجب اختيار الشارع الأكثر هدوءًا، والوقت الأنسب، وفي إحدى الليالي، يدفعونه إلى داخل سيارة.

من جانبه، كان لوبين يجهز في مكان ليس بعيدًا عن باريس، وسط حديقة كبيرة، مبنى قديم يوفر جميع شروط الأمان والعزلة الضرورية، وكان يسميه قفص القرد. للأسف، كان دوبريك حذرًا، لأنه في كل مرة، تقريبًا، كان يغير مساره، أو يأخذ المترو، أو يستقل الترام، ويظل القفص فارغًا.

لوبين وضع خطة أخرى. استدعى من مرسيليا أحد معاونيه، الأب بريندبوا، بقال محترم متقاعد، يسكن في الدائرة الانتخابية لدوبريك ويهتم بالسياسة. من مرسيليا، أعلن الأب بريندبوا عن زيارته لدوبريك الذي استقبله بحفاوة كبيرة هذا الناخب المهم. نُظِّم عشاءٌ في الأسبوع

التالي. اقترح الناخب مطعمًا صغيرًا على الضفة اليسرى، حيث قال إن الطعام فيه رائع. وافق دوبريك.

هذا ما كان يريده لوبين. كان صاحب المطعم من أصدقائه. من تلك اللحظة، كان الهجوم، المقرر أن يحدث يوم الخميس التالي، لا بد أن ينجح. في هذه الأثناء، يوم الاثنين من الأسبوع نفسه، بدأت محاكمة جلبير وفوشيراي.

لا يزال الناس يذكرون الحادثة، فالأحداث حديثة جدًّا بحيث لا تحتاج إلى تذكير بالطريقة الغريبة والمتحيزة التي أدار بها رئيس المحكمة استجواباته ضد جلبير. لُوحِظ ذلك وحُكِم عليه بقسوة. عرف لوبين أن هناك تأثيرًا سيئًا من دوبريك.

كان موقف المتهمَيْن الاثنين مختلفًا تمامًا. فوشيراي، بوجه قاتم، وصمت مميت، وتعبير قاسٍ، اعترف بشكل ساخر، بعبارات قصيرة، ساخرة، تكاد تكون استفزازية، بالجرائم التي ارتكبها في الماضي. ولكن، بتناقض غير مفهوم للجميع، باستثناء لوبين، دافع عن نفسه بشدة من أي تورط في قتل الخادم ليونار وهاجم جلبير بعنف. أراد بذلك، ربط مصيره بمصير جلبير، إجبار لوبين على اتخاذ الإجراءات نفسها لإنقاذ كليهما.

أمَّا جلبير، الذي أثار، وجهه الصريح وعيناه الحالمة والحزينة، كل التعاطف، لم يكن قادرًا على تجنب الفخاخ التي نصبها له الرئيس، ولم يستطع الرد على أكاذيب فوشيراي. كان يبكي، يتحدث كثيرًا، أو لا يتحدث عندما كان يجب عليه ذلك. علاوة على ذلك، كان محاميه، أحد أعمدة القانون، مريضًا في اللحظة الأخيرة (وهنا أيضًا رأى لوبين يد دوبريك) واستُبِدل بأحد معاونيه، الذي دافع بشكل سيئ، وتناول

القضية من زاوية خاطئة، واستفز هيئة المحلفين، ولم يتمكن من محو الانطباع الذي تركته مرافعة المدعي العام ومرافعة محامي فوشيراي.

لوبين، الذي كان جريئًا بما يكفي لحضور اليوم الأخير من المحاكمة، يوم الخميس، لم يشك في النتيجة. كانت الإدانة المزدوجة مؤكدة.

كانت مؤكدة، لأن كل جهود العدالة، التي دعمت بذلك خطة فوشيراي، كانت تهدف إلى ربط المتهمين بشكل وثيق. كانت مؤكدة، خاصةً لأنهما كانا شريكي لوبين. منذ بدء التحقيق حتى صدور الحكم، وعلى رغم من أن العدالة، لعدم وجود أدلة كافية، وأيضًا لعدم تشتيت جهودها، لم ترغب في تضمين لوبين في القضية، فإن كل المحاكمة كانت موجهة ضد لوبين. كان هو الخصم الذي أرادوا الوصول إليه؛ هو القائد الذي أرادوا معاقبته بواسطة شريكيه؛ هو المجرم الشهير المحبوب، الذي كان يجب تحطيم سمعته أمام الجماهير. بإعدام جلبير وفوشيراي، كانت هالة لوبين ستتلاشى. كانت الأسطورة على وشك الانتهاء.

لوبين... لوبين... أرسين لوبين... لم يُسمع إلا هذا الاسم خلال الأيام الأربعة. المدعي العام، رئيس المحكمة، المحلفون، المحامون، الشهود، لم يكن لديهم سوى هذا الاسم على شفاههم. في كل لحظة، كانوا يستدعون اسم لوبين للعن، للسخرية، للإهانة، لتحميله المسؤولية عن كل الأخطاء المرتكبة. كان يبدو أن جلبير وفوشيراي مجرد شخصيتين ثانويتين، وأن المحاكمة كانت في الواقع ضد السيد لوبين، لوبين السارق، رئيس العصابة، المزوِّر، المُحرِّق، متعدد الهوية، المدان سابقًا ودائمًا! لوبين القاتل، لوبين الملطخ بدماء ضحيته، لوبين الذي بقي جبانًا في الظل بعد أن دفع بأصدقائه إلى حافة المقصلة!

همس لنفسه: «آه! إنهم يعرفون جيدًا ما يفعلون! إنه دَيْني الذي سيدفعه هذا المسكين جلبير، أنا المذنب الحقيقي». وهكذا، استمر

المشهد المروع. عند الساعة السابعة مساءً، وبعد مداولات طويلة، عاد المحلفون إلى الجلسة، وأعلن رئيس هيئة المحلفين عن الإجابات على الأسئلة التي طرحتها المحكمة. كانت جميع الإجابات نعم. كان ذلك يعني الإدانة ورفض الظروف المخففة. ثم أُدخِل المتهمان الاثنان.

واقفَيْن، مترنحَيْن وشاحبَيْن، استمعا إلى حكم الإعدام. وفي الصمت الجليل الذي خيَّم على المكان، حيث امتزج قلق الجمهور بالشفقة، سأل رئيس المحكمة: «هل لديك شيء لتضيفه يا فوشيراي؟».

- لا شيء، يا سيدي الرئيس؛ ما دام أن رفيقي قد أدين مثلي، فأنا مرتاح... نحن على قدم المساواة... لذلك يجب أن يجد الرئيس طريقة لإنقاذنا نحن الاثنين.

- الرئيس؟

- نعم، أرسين لوبين.

تعالى ضحك من بين الحشود. استأنف الرئيس: «وأنت، جلبير؟». كانت الدموع تنهمر على وجنتي المسكين؛ تمتم ببعض العبارات غير المفهومة. لكن عندما كرر الرئيس سؤاله، تمكَّن جلبير من السيطرة على نفسه وأجاب بصوت مرتعش: «لديَّ ما أقوله، سيدي الرئيس، أنا مذنب بالكثير من الأشياء، هذا صحيح، لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء وأنا أندم عليها من أعماق قلبي... لكن، مع ذلك، ليس هذا... لا، لم أقتل، لم أقتل قط، ولا أريد أن أموت، سيكون ذلك فظيعًا للغاية...».

ترنح، جلبير، فسَنَده الحراس، وسُمِع وهو يهمس، مثل طفل يستنجد: «سيدي... أنقذني! أنقذني! لا أريد أن أموت». عندها، وسط الجمهور المتأثر، ارتفع صوتٌ فوق الضجيج: «لا تخف يا صغيري، الرئيس هنا». عمت الفوضى. حدثت تدافعات. اقتحم الحراس البلديون

والشرطة القاعة، وأمسكوا برجل ضخم الوجه أحمر اللون، أشارت إليه الحشود بأنه هو من نطق بهذه العبارة، وكان يقاومهم بلكمات وركلات.

عندما استجوبوه، قال إن اسمه فيليب بانيل، موظف في شركة دفن الموتى، وصرَّح بأن أحد جيرانه عرض عليه مئة فرنك إذا وافق على إلقاء عبارة معينة في اللحظة المناسبة، وهي عبارة كتبها الجار على صفحة من دفتر ملاحظات. هل كان يستطيع الرفض؟

كإثبات، أظهر بانيل ورقة المئة فرنك وصفحة الدفتر. ثم أُطلق سراح فيليب بانيل. خلال هذا الوقت، كان لوبين، الذي بالطبع ساهم بقوة في اعتقال الشخص وسلمه إلى أيدي الحراس، يخرج من القصر، وقلبه ممتلئ بالقلق. على الرصيف، وجد سيارته. رمى نفسه داخلها، محطمًا، متأثرًا بحزن شديد لدرجة أنه كان عليه بذل جهد لمنع دموعه. استمر صوت جلبير المستغيث، وصورته المرتبكة، وملامحه المترنحة، كلها كانت تطارد عقله، وبدا له أنه لن يستطيع نسيانها أبدًا، ولو للحظة.

عاد إلى منزله، إلى المقر الجديد الذي اختاره من بين منازله المختلفة، والذي كان يقع في إحدى زوايا ساحة كليشي. هناك، انتظر جرونيار ولوبالو، اللذين كان من المقرر أن يشاركا في اختطاف دوبريك تلك الليلة.

لكنه لم يكن قد فتح باب شقته بعد عندما أطلق صرخة: كانت كلاريس أمامه. كلاريس، عائدة من بريتاني في الساعة نفسها التي نُطِق فيها بالحكم. فورًا، من موقفها، ومن شحوبها، فهم أنها تعرف. وعلى الفور، وهو واقف أمامها، مستعيدًا شجاعته، دون أن يترك لها فرصة للحديث، صاح: «حسنًا، نعم، نعم... لكن هذا لا يهم. كان ذلك متوقعًا. لم يكن بوسعنا منعه. ما يجب علينا فعله هو تفادي الأسوأ. وهذه الليلة،

هل تسمعين، هذه الليلة، سيكون الأمر قد انتهى». بلا حراك، غلبها الألم، تمتمت: «هذه الليلة؟».

- نعم. لقد جهَّزت كل شيء. في غضون ساعتين، سيكون دوبريك تحت سيطرتي. هذه الليلة، بغض النظر عن الوسائل التي سأستخدمها، سيتحدث.

قالت بصوت ضعيف، وكأن بصيص أمل بدأ يظهر على وجهها: «هل تعتقد ذلك؟».

- سيتحدث. سأحصل على سره. سأنتزع منه قائمة السبعة والعشرين. وهذه القائمة ستكون هي مفتاح إنقاذ ابنك.

همست كلاريس: «فات الأوان!».

- فات الأوان! لماذا؟ هل تعتقدين أنه مقابل مثل هذا الوثيقة، لن أحصل على هروب جلبير بطريقة ما؟ في غضون ثلاثة أيام، سيكون جلبير حرًّا! في غضون ثلاثة أيام...

قاطعه صوت جرس الباب.

- ها هم أصدقاؤنا. ثقي بي. تذكري أنني أوفي بوعودي. لقد أعدت إليك جاك الصغير. سأعيد إليك جلبير.

تقدَّم للقاء جرونيار ولوبالو وقال لهما: «هل كل شيء جاهز؟ هل الأب بريندبوا في المطعم؟ هيا، دعونا نسرع». رد لوبالو: «لا داعي، يا سيدي».

- ماذا! ماذا تقصد؟

- هناك أمر جديد.

- أمر جديد؟ تحدث...

- دوبريك اختفى.

- ماذا! ماذا تقول؟ دوبريك اختفى؟

- نعم، اختُطِف من فندقه، في وضح النهار!

- يا إلهي! ومن فعل ذلك؟

- لا أحد يعرف، أربعة أفراد، كان هناك إطلاق نار. الشرطة في المكان. براسفيل يقود التحقيقات.

لم يتحرك لوبين. نظر إلى كلاريس ميرجي، التي انهارت على كرسي. حتى هو اضطر إلى الاتكاء، دوبريك اختطف، وكانت هذه آخر فرصة تتلاشى...

الفصل السابع

صفحة من تاريخ نابليون

بمجرد أن غادر مدير الشرطة ومدير الأمن والقضاة المحققون فندق دوبريك بعد إجراء تحقيق أولي كانت نتائجه سلبية تمامًا، عاد براسفيل لمواصلة تحقيقاته الشخصية. كان يفحص مكتب العمل وآثار الصراع الذي حدث هناك، عندما أحضرت له البوابة بطاقة زيارة، كانت مكتوبة عليها بعض الكلمات بالقلم الرصاص، قال: «أدخلي هذه السيدة». قالت البوابة: «هذه السيدة ليست وحدها».

- آه؟ حسنًا، أدخلي الشخص الآخر أيضًا.

ثم دخلت ·كلاريس ميرجي، وعلى الفور قدَّمت الرجل الذي كان يرافقها، وهو رجل يرتدي معطفًا أسود ضيقًا ومتسخًا بعض الشيء، بدا عليه الخجل الشديد، وكان مرتبكًا بقبعته القديمة، ومظلته القطنية، وقفازه الوحيد، وبكامل هيئته! قالت: «السيد نيكول، مدرس حر ومعلم خاص لابني جاك الصغير، السيد نيكول ساعدني كثيرًا بنصائحه على

مدار العام الماضي. هو الذي أعاد بناء القصة بأكملها حول السدادة الكريستال. أرغب في أن يعرف، إذا لم تمانع، تفاصيل هذا الاختطاف... الذي يزعجني، ويعطل خططي، وربما يزعج خططك أيضًا، أليس كذلك؟».

كان براسفيل يثق تمامًا بكلاريس ميرجي، التي كان يعرف كراهيتها الشديدة لدوبريك، ويقدِّر تعاونها في هذه القضية. لذلك لم يجد صعوبة في إخبارها بما يعرفه، بفضل بعض الأدلة وخاصة شهادة البوابة. في الواقع، كانت القضية بسيطة للغاية. دوبريك، الذي حضر بصفته شاهدًا في محاكمة جلبير وفوشيراي، والذي لُوحِظ وجوده في قصر العدل في أثناء المرافعات، عاد إلى منزله قرابة الساعة السادسة مساءً. أكدت البوابة أنه عاد بمفرده ولم يكن هناك أحد في الفندق في ذلك الوقت. ومع ذلك، بعد بضع دقائق، سمعت صرخات، ثم صوت شجار، وطلقتين ناريتين، ومن نافذتها، رأت أربعة رجال مقنعين يهرعون إلى البوابة وهم يحملون النائب دوبريك، ويتجهون نحو السيارة. فتحوا البوابة، وفي اللحظة نفسها، وصلت سيارة أمام الفندق. استقل الرجال الأربعة السيارة، التي انطلقت بسرعة. سألت كلاريس: «ألم يكن هناك دائمًا اثنان من رجال الأمن في الموقع؟».

- كانا هناك، لكنهما كانا على بعد 150 مترًا، وكان الاختطاف سريعًا لدرجة أنهما لم يتمكنا من التدخل، رغم كل جهدهما.

- ألم يكتشفا أي شيء؟ لم يجدا أي أثر؟

- لا شيء، أو بالكاد... فقط هذا.

- ما هذا؟

- قطعة صغيرة من العاج وجدها رجال الأمن على الأرض. كان هناك شخص خامس في السيارة، رأت البوابة من نافذتها أنه

نزل منها بينما كانوا يرفعون دوبريك. وعندما حاول الصعود مرة أخرى، سقط شيء ما على الرصيف، ثم التقطه على الفور. لكن يبدو أن هذا الشيء انكسر على رصيف الشارع، لأن هذه القطعة من العاج هي ما عُثِر عليها.

قالت كلاريس: «لكن، كيف تمكن هؤلاء الأربعة من الدخول؟».

- بالتأكيد باستخدام مفاتيح مزورة، بينما كانت البوابة تقوم بتسوقها في خلال فترة ما بعد الظهر، وكان من السهل عليهم الاختباء، نظرًا لأن دوبريك لم يكن لديه أي خدم آخرين. كل شيء يشير إلى أنهم اختبؤوا في هذه الغرفة المجاورة، وهي غرفة الطعام، ثم هاجموا دوبريك في مكتبه. فوضى الأثاث والأشياء تثبت شدة الصراع. وجدنا على السجادة مسدسًا ذا طلقات كبيرة يعود إلى دوبريك. إحدى الرصاصات كسرت مرآة المدفأة.

توجهت كلاريس نحو رفيقها لتطلب رأيه. لكن السيد نيكول، الذي ظل مغمض العينين، لم يتحرك من مكانه على الكرسي، وكان يمسك بحواف قبعته كما لو لم يجد بعد مكانًا مناسبًا لوضعها. ابتسم براسفيل. من الواضح أن مستشار كلاريس لم يكن يبدو له قويًا في الرأي: «القضية غامضة إلى حد ما، أليس كذلك، يا سيد نيكول؟». اعترف السيد نيكول: «نعم، نعم... غامضة جدًا».

- ألا تملك إذًا فكرة شخصية حول الأمر؟

- يا سيدي الأمين العام، أعتقد أن دوبريك لديه الكثير من الأعداء.

- آه! آه! ممتاز.

- وأعتقد أن العديد من هؤلاء الأعداء، الذين لديهم مصلحة في اختفائه، قد تحالفوا ضده.

أيد براسفيل بسخرية: «ممتاز، ممتاز، ممتاز، كل شيء أصبح واضحًا. لم يبقَ لك سوى إعطائنا مؤشر صغير يسمح لنا بتوجيه تحقيقاتنا».

- ألا تعتقد، يا سيدي الأمين العام، أن هذه القطعة من العاج التي وجدوها على الأرض...

- لا، يا سيد نيكول، لا. هذه القطعة تأتي من شيء ما لا نعرفه، وسيحرص مالكها على إخفائها. للعودة إلى مالكها، علينا على الأقل أن نعرف طبيعة هذا الشيء.

فكر السيد نيكول، ثم بدأ: «يا سيدي الأمين العام، عندما سقط نابليون الأول عن الحكم...».

- أوه! أوه! السيد نيكول، درس تاريخ فرنسا!

- جملة واحدة، سيدي الأمين العام، جملة بسيطة أطلب منك الإذن بإكمالها. عندما سقط نابليون الأول عن الحكم، أعادت حكومة الترميم عددًا من الضباط إلى الخدمة الجزئية، وكانوا مراقَبين من قِبل الشرطة، مشبوهين لدى السلطات، لكنهم ظلوا مخلصين لذكرى الإمبراطور، وابتكروا طرقًا لتخليد صورته في جميع الأشياء المستخدمة يوميًا؛ مثل علب التبغ، والخواتم، ودبابيس ربطة العنق، والسكاكين، وما إلى ذلك.

- حسنًا، وماذا بعد؟

- حسنًا، هذا الجزء من العاج مأخوذ من عصا، أو بالأحرى من نوع من الهراوات المصنوعة من القصب، وكان مقبضها مصنوعًا من كتلة من العاج المنحوت. وعند النظر إلى هذه الكتلة من زاوية معينة، يمكن في النهاية اكتشاف أن الخط الخارجي يمثل ملامح وجه نابليون. أنت الآن تحمل في يدك، سيدي الأمين العام، جزءًا من مقبض العاج الذي كان يعلو عصا أحد هؤلاء الضباط.

قال براسفيل وهو يفحص القطعة تحت الضوء: «في الواقع... في الواقع، يمكن تمييز ملامح الوجه... لكنني لا أُميِّز النتيجة النهائية...».

- الخلاصة بسيطة. من بين ضحايا دوبريك، من بين أولئك الذين أُدرجت أسماؤهم في القائمة الشهيرة، هناك من ينتمي إلى عائلة من عائلات النبلاء التي خدمت تحت راية نابليون، وأثراها ومنحها ألقابًا، ثم انهارت فيما بعد في عهد حكومة الترميم. هناك تسعة احتمالات من عشرة أن يكون هذا الوريث، الذي كان قبل بضع سنوات رئيس حزب بونابرت، هو الشخص الخامس الذي كان مختبئًا في السيارة. هل أحتاج إلى ذكر اسمه؟

همس براسفيل: «الماركيز دألبوفكس؟». أكد السيد نيكول: «الماركيز دألبوفكس». وعلى الفور، السيد نيكول، الذي لم يعد يبدو عليه الارتباك ولم يعد يبدو متضايقًا من قبعته أو قفازه أو مظلته، وقف وقال لبراسفيل: «سيدي الأمين العام، كان بإمكاني أن أحتفظ باكتشافي لنفسي وأن أشاركك به فقط بعد تحقيق النصر النهائي، أي بعد أن أكون قد جلبت لك قائمة السبعة والعشرين. لكن الأحداث تسير بسرعة. اختفاء دوبريك قد يُعجل بالأزمة التي تريد تجنبها، خلافًا لما كان يتوقعه خاطفوه. لذلك، يجب أن نتحرك بسرعة. سيدي الأمين العام، أطلب مساعدتك الفورية والفعالة». قال براسفيل، متأثرًا بهذا الشخص الغريب: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

- بإعطائي غدًا، معلومات عن الماركيز دألبوفكس، معلومات قد تستغرق مني عدة أيام لجمعها.

بدا براسفيل مترددًا وأدار رأسه نحو السيدة ميرجي. فقالت كلاريس له: «أرجوك، اقبل خدمات السيد نيكول. إنه مساعد ثمين ومخلص.

أضمنه لك كما أضمن نفسي». سأل براسفيل: «عن ماذا تريد معلومات، يا سيدي؟».

- عن كل ما يتعلق بالماركيز دألبوفكس، عن حالته العائلية، عن أنشطته، عن علاقاته العائلية، وعن الممتلكات التي يمتلكها في باريس وفي الأقاليم.

اعترض براسفيل: «في النهاية، سواء كان الماركيز أو غيره، فإن خاطف دوبريك يعمل لصالحنا، لأنه بإعادة القائمة ينزع سلاح دوبريك».

- ومن قال لك، سيدي الأمين العام، أنه لا يعمل لصالح نفسه؟

- مستحيل، لأن اسمه على القائمة.

- وإذا مسحه؟ وإذا وجدت نفسك في مواجهة مبتزٍّ ثانٍ، أكثر شراسة، وأكثر قوة من الأول، وكخصم سياسي، أفضل موقعًا من دوبريك لخوض المعركة؟

أثرت هذا الحجة في الأمين العام. وبعد لحظة من التفكير، قال: «تعالَ لرؤيتي غدًا في الساعة الرابعة بعد الظهر، في مكتبي في مديرية الشرطة. سأعطيك كل المعلومات الضرورية. ما عنوانك، في حال الحاجة؟».

- السيد نيكول، 25، ساحة كليشي. أقيم في منزل أحد أصدقائي، الذي أعارني شقته في أثناء غيابه.

انتهى اللقاء. شكر السيد نيكول، وانحنى انحناءة تحية عميقة للأمين العام، وخرج برفقة السيدة ميرجي. قال بمجرد خروجه، وهو يفرك يديه: «إنها صفقة رائعة. لقد حصلت على دخول مجاني إلى مديرية الشرطة، وكل هؤلاء الناس سيبدؤون في التحرك». أعربت السيدة ميرجي، التي كانت أقل اندفاعًا نحو التفاؤل، عن قلقها قائلة: «للأسف!

هل سنصل في الوقت المناسب؟ ما يؤرقني هو فكرة أن هذه القائمة قد تُدَمَّر».

- من الذي سيفعل ذلك، يا رباه! دوبريك؟
- لا، بل الماركيز بعد أن يستعيدها.
- لكنه لم يستعدها بعد! سيقاوم دوبريك، على الأقل لفترة كافية لنصل إليه! فكر في الأمر! براسفيل تحت إمرتي.
- ماذا لو كشف هويتك؟ أقل تحقيق سيثبت أن السيد نيكول لا وجود له.
- لكن التحقيق لن يثبت أن السيد نيكول ليس إلا أرسين لوبين. ثم، لا تقلقي، براسفيل، الذي بالمناسبة هو أسوأ من أي شيء كشرطي، لا يهتم إلا بشيء واحد، وهو تدمير عدوه القديم دوبريك. ولهذا السبب، سيستخدم أي وسيلة متاحة له، ولن يضيع وقته في التحقق من هوية شخص يدعى السيد نيكول يقدم له رأس دوبريك على طبق. ناهيك بأنك أنتِ من أحضرتني إليه، وبصراحة، لم تمر مواهبي الصغيرة دون تأثير عليه. لذلك، دعينا نمضي قدمًا وبجرأة.

لا إراديًّا، بدأت كلاريس تستعيد ثقتها بالقرب من لوبين. بدا لها المستقبل أقل رعبًا، وبدأت تقبل، بل وتحاول قبول أن فرص إنقاذ جلبير لم تتضاءل بسبب هذا الحكم المروع بالإعدام. لكنها رفضت العودة إلى بريتاني. كانت تريد أن تكون هنا وتشارك في كل الأمل وكل القلق.

في اليوم التالي، أكدت المعلومات الواردة من مديرية الشرطة ما كان يعرفه لوبين وبراسفيل. كان الماركيز دألبوفكس متورطًا بشدة في قضية القناة، إلى درجة أن الأمير نابليون اضطر إلى سحب إدارة مكتبه السياسي في فرنسا منه. وكان الماركيز دألبوفكس يدير منزله الكبير

بفضل الحيل والقروض فقط. من ناحية أخرى، فيما يتعلق باختطاف دوبريك، ثَبُت أنه، على عكس عادته اليومية، لم يظهر الماركيز في النادي بين الساعة السادسة والسابعة ولم يتناول العشاء في منزله. لم يعد إلى منزله في تلك الليلة إلا قرابة منتصف الليل، وكان يسير على الأقدام.

اتهام السيد نيكول حصل على أول دليل. لكن للأسف، لم يتمكن لوبين من جمع أي معلومات إضافية حول السيارة أو السائق أو الأشخاص الأربعة الذين دخلوا فندق دوبريك. هل كانوا شركاء للماركيز متورطين مثله في القضية؟ أم أنهم رجال يعملون لحسابه؟ لم يتمكن أحد من معرفة ذلك. لذا، كان يجب تركيز كل الجهود على الماركيز وعلى القصور والمنازل التي يمتلكها على مسافة معينة من باريس، والتي يمكن الوصول إليها بالسيارة خلال فترة قصيرة نسبيًّا، تقدر بقرابة 150 كيلومترًا.

ولكن تبين أن الماركيز دألبوفكس، بعدما باع كل شيء، لم يعد يملك أي قصر أو منزل في الأقاليم. ثم بحث بين أقارب وأصدقاء الماركيز المقربين. هل يمكن أن يكون لديه مكان آمن لاحتجاز دوبريك؟ كانت النتيجة سلبية أيضًا. ومرت الأيام. ويا لها من أيام صعبة على كلاريس ميرجي! كل يوم يمر كان يُقَرِّب جلبير من الموعد الرهيب. كل يوم يمر كان يقربها من التاريخ الذي حفرته في ذهنها بشكل لا إرادي. وكانت تقول للوبين، الذي كان يشاركها القلق نفسه: «بقي خمسة وخمسون يومًا... بقي خمسون... ماذا يمكننا أن نفعل في هذه الأيام القليلة؟ أرجوك... أرجوك...».

ماذا يمكن أن نفعل بالفعل؟ لوبين، الذي لم يثق بأحد في مراقبة الماركيز، بالكاد كان ينام. لكن الماركيز عاد إلى حياته المنتظمة، وربما

بسبب شكوكه، لم يخاطر بأي غياب. مرة واحدة فقط، ذهب في خلال النهار إلى دوق منطقة مونتمور، الذي كان يصطاد الخنازير البرية في غابة دورلين، والذي لم تربطه به سوى علاقات رياضية.

قال براسفيل: «لا يوجد سبب للاعتقاد، أن الدوق الثري مونتمور، الذي يهتم فقط بأراضيه وصيده، ولا يهتم بالسياسة، سيقبل احتجاز دوبريك في قصره». وافق لوبين على هذا الرأي، ولكن، لأنه لا يريد أن يترك شيئًا للمصادفة، في الأسبوع التالي، في صباح أحد الأيام، عندما رأى الماركيز يخرج بزي الفروسية، تبعه إلى محطة الشمال وأخذ القطار نفسه.

نزل في محطة أومال، حيث وجد الماركيز عربة نقلته إلى قصر مونتمور. تناول لوبين غداءً بهدوء، واستأجر دراجة، ووصل إلى مشارف القصر في الوقت الذي كان فيه الضيوف يخرجون من الحديقة بالسيارات أو على ظهور الخيل. وكان الماركيز دألبوفكس من بين الفرسان.

رأى لوبين الماركيز يركب جواده ثلاث مرات خلال اليوم. وفي المساء، وجده في المحطة حيث وصل الماركيز على ظهر حصانه، متبوعًا بصبي. كانت التجربة حاسمة، ولم يكن هناك شيء مشبوه من هذا الجانب. ولكن لماذا قرر لوبين ألا يثق بالمظاهر؟ ولماذا، في اليوم التالي، أرسل لوبالو لإجراء تحقيق في محيط مونتمور؟ كان ذلك بسبب حرصه الزائد، رغم أنه لم يكن يستند إلى أي منطق، لكنه كان يتماشى مع أسلوبه المنهجي والدقيق. بعد يومين، تلقَّى لوبين من لوبالو، إلى جانب معلومات غير مهمة، قائمة بجميع الضيوف، والخدم، والحراس في مونتمور. لَفَتَ أحد الأسماء انتباهه بين أسماء الحراس. أرسل على الفور التليغراف التالي:

«ابحث عن معلومات عن الحارس سيباستياني».

لم تتأخر إجابة لوبالو:

«سيباستياني (كورسيكي) أوصي به لدوقية مونتمور من قِبَل الماركيز دألبوفكس. يسكن على بعد فرسخ من القصر، في كوخ صيد يقع بين أنقاض القلعة الإقطاعية التي كانت مهد عائلة مونتمور. قال لوبين لكلاريس ميرجي، وهو يظهر لها رسالة لوبالو: «هذا هو الحل، اسم سيباستياني ذكرني على الفور بأن الماركيز دألبوفكس من أصل كورسيكي. كان هناك ارتباط واضح...».

- إذًا، ما هي نيتك؟

- نيتي هي، إذا كان دوبريك محتجزًا في هذه الأنقاض، أن أتواصل معه.

- لكنه لن يثق بك.

- لا. في الأيام الأخيرة، بناءً على توجيهات الشرطة، تمكَّنت من اكتشاف السيدتين العجوزتين اللتين اختطفتا ابنك الصغير جاك في سان جيرمان، واللتين أعادتاه في المساء ذاته إلى نويي. إنهما عانستان، ابنتا عم دوبريك، تحصلان منه على معاش شهري صغير. لقد زرت الآنستان روسلو (تذكري اسميهما وعنوانهما، 134 مكرر، شارع باك)، واكتسبت ثقتهما، ووعدتهما بالعثور على ابن عمهما وولي نعمتهما، وقد أعطتني الأكبر سنًّا، إفراسيا اروسلو، رسالة تطلب فيها من دوبريك أن يثق تمامًا بالسيد نيكول. كما ترين، أخذت كل الاحتياطات. سأغادر الليلة.

قالت كلاريس: «سنغادر».

- أنتِ!

- هل يمكنني أن أعيش هكذا في الخمول، في القلق!

ثم همست: «لم أعد أحصي فقط الأيام الثلاثة والثلاثين أو الأربعين يومًا المتبقية، بل الساعات أيضًا...».

شعر لوبين أن لديها إصرارًا كبيرًا جدًّا. في الخامسة صباحًا، انطلقا كلاهما في السيارة وكان جرونيار يرافقهما. لتجنب إثارة الشكوك، اختار لوبين مدينة كبيرة كمقر رئيسي. من مدينة أميان، حيث أقامت كلاريس، كان يفصله عن مونتمور قرابة ثلاثين كيلومترًا فقط.

في قرابة الثامنة صباحًا، التقى لوبين لوبالو بالقرب من القلعة القديمة، المعروفة في المنطقة باسم مورتبيير، وتحت توجيه منه، فحص المكان. عند حافة الغابة، يشكل نهر «ليجيه» الصغير، الذي شقَّ لنفسه واديًا عميقًا جدًّا في هذا المكان، حلقة تهيمن عليها جرف ضخم يعرف باسم مورتبيير. قال لوبين: «لا يمكن فعل شيء من هذا الجانب. الجرف شديد الانحدار، بارتفاع ستين أو سبعين مترًا، والنهر يحيط به من كل الجوانب».

وجدوا فيما بعد جسرًا يؤدي إلى أسفل طريق يتعرج بين أشجار الصنوبر والبلوط، وصولًا إلى ساحة صغيرة، حيث توجد بوابة ضخمة، مغطاة بالحديد، ومثبتة بالمسامير ومحاطة ببرجين كبيرين. قال لوبين: «هنا يسكن الحارس سيباستياني، أليس كذلك؟». أجاب لوبالو: «نعم، مع زوجته، في كوخ يقع وسط الأنقاض. وقد علمت، بالإضافة إلى ذلك، أن لديه ثلاثة أبناء كبار، وأنهم جميعًا غادروا في رحلة، وذلك تحديدًا في اليوم الذي اختطف فيه دوبريك».

- آه! آه! هذه المصادفة تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار. من المحتمل جدًّا أن العملية نُفِّذت من قبل هؤلاء الشباب ووالدهم.

في نهاية فترة ما بعد الظهر، استغل لوبين وجود فجوة في الجدار ليتسلق السور، على يمين الأبراج. من هناك، تمكن من رؤية كوخ الحارس وبعض بقايا القلعة القديمة -هنا، جزء من جدار يُظهر بقايا مدفأة؛ في مكان آخر، بئر؛ من هذا الجانب، قوس من كنيسة صغيرة؛ ومن الجانب الآخر، كومة من الحجارة المتهدمة.

أمام الكوخ، كان هناك طريق يحيط بالجرف، وفي أحد نهايات هذا الطريق، كانت توجد بقايا برج ضخم شبه مدمر يصل مستواه إلى الأرض. في المساء، عاد لوبين إلى كلاريس ميرجي. ومنذ ذلك الحين، كان يتنقل بين أميان مورتبيير، تاركًا جرونيار ولوبالو في مراقبة دائمة. مرَّت ستة أيام. كانت عادات سيباستياني تبدو فقط خاضعة لمتطلبات وظيفته. كان يذهب إلى قصر مونتمور، يتجول في الغابة، يتحقق من مرور الحيوانات، ويؤدي دوريات حراسة ليلية.

ولكن في اليوم السابع، بعد أن علم أن هناك رحلة صيد وأن سيارة غادرت في الصباح إلى محطة أومال، استقر لوبين في مجموعة من الغار والشجيرات التي تحيط بالساحة الصغيرة أمام البوابة. في الساعة الثانية، سمع نباح كلاب الصيد. اقتربت الأصوات، مصحوبة بصيحات، ثم ابتعدت. سمعها مرة أخرى في منتصف فترة ما بعد الظهر، لكنها كانت أقل وضوحًا، وكان هذا كل شيء. ولكن فجأة، في هدوء السكون، سمع صوت حوافر حصان يقترب، وبعد بضع دقائق، رأى فارسَيْن يتسلقان الطريق المؤدي إلى النهر.

تعرف على الماركيز دألبوفكس وسيباستياني. عندما وصلا إلى الساحة، نزلا عن الحصانيين، بينما فتحت امرأة، ربما تكون زوجة الحارس، الباب. ربط سيباستياني حبال الخيول عند حلقات مثبتة في عمود على بعد ثلاث خطوات من لوبين، ثم ركض للانضمام إلى

الماركيز. أُغلقت البوابة خلفهما. لم يتردد لوبين، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال في وضح النهار، فإنه اعتمد على عزلة المكان، فتسلق الفجوة في الجدار. بواسطة رأسه المتدلي، تمكّن من رؤية الرجلين وزوجة سيباستياني يسرعون نحو أنقاض البرج.

رفع الحارس ستارة من اللبلاب وكشف عن مدخل دخلا فيه، تاركين زوجته للحراسة على الشرفة. وبما أنه لم يكن من الممكن الدخول خلفهم، عاد لوبين إلى مخبئه. لم ينتظر طويلًا قبل أن تُفتح البوابة مجددًا. بدا الماركيز دألبوفكس غاضبًا جدًّا. كان يضرب ساقي حذائه بالسوط ويتمتم بكلمات غاضبة سمعها لوبين عندما اقترب منه: «آه! هذا الوغد! سأجبره على الكلام، الليلة، هل تسمعني، سيباستياني، الليلة، في العاشرة، سأعود، وسنتصرف... آه! هذا الحيوان!».

كان سيباستياني يفك حبال الخيول. التفت الماركيز إلى المرأة: «تأكدي أن أبناءك يراقبونه جيدًا، إذا حاول أحد تحريره، فسيكون ذلك نهايته، يلقوه في الفخ، هل يمكنني الاعتماد عليهم؟». أكدت المرأة: «مثل الاعتماد على والدهم، سيدي الماركيز. إنهم يعرفون ما فعله الماركيز من أجلنا، وما ينوي فعله من أجلهم. لن يتراجعوا عن شيء». قال دألبوفكس: «إلى الحصان، ودعنا نعود إلى الصيد».

إذًا، كانت الأمور تحدث كما توقّع لوبين. خلال رحلات الصيد هذه، كان الماركيز، الذي كان يركب حصانه بمفرده، ويزور سريعًا مورتبيير دون أن يشك أحد في حركاته. سيباستياني، الذي كان مخلصًا له تمامًا لسبب ما، كان يرافقه، وكانا يذهبان معًا لرؤية الأسير الذي كان أبناء الحارس الثلاثة وزوجته يراقبونه بصرامة.

قال لوبين لكلاريس ميرجي عندما وجدها في نُزُلٍ قريب: «هذا هو الوضع الآن. الليلة، في العاشرة، سيخضع دوبريك للاستجواب، استجواب

قاسٍ، ولكنه ضروري، والذي كنت أنوي القيام به بنفسي». قالت كلاريس وقد بدأت تشعر بالاضطراب: «وسيكشف دوبريك سره...».

- أخاف ألا يفعل.

- إذًا؟

قال لوبين، الذي بدا هادئًا جدًا: « أنا متردد بين خطتين: إما منع هذا اللقاء وإما...».

- ولكن كيف؟

- بالوصول قبل دألبوفكس. في التاسعة، سيتسلق جرونيار، لوبالو، وأنا الأسوار. سنقتحم القلعة، نهاجم البرج، ننزع سلاح الحراس، وسينتهي الأمر، سيكون دوبريك في قبضتنا.

- ما لم يكن أبناء سيباستياني قد ألقوا به في الفخ الذي أشار إليه الماركيز...

- لهذا السبب، أنوي تنفيذ هذا الهجوم كملاذ أخير، في حال لم يكن بإمكاني تنفيذ خطتي الأخرى.

- وما هي خطتك الأخرى؟

- هي حضور اللقاء. إذا لم يتحدث دوبريك، فسيوفر لنا ذلك الوقت اللازم لتحضير اختطافه في ظروف أفضل. وإذا تحدث، إذا أجبروه على الكشف عن مكان القائمة، سأعرف الحقيقة في الوقت نفسه مع دألبوفكس، وأقسم بالله إنني سأستغلها قبله.

- نعم... نعم... ولكن كيف تنوي حضور اللقاء؟

- لا أعرف بعد. هذا يعتمد على بعض المعلومات التي سيحضرها لي لوبالو، وعلى تلك التي سأجمعها بنفسي.

خرج من النزل ولم يعد إلا بعد ساعة، عند غروب الشمس. التقاه لوبالو هناك. سأل رفيقه: «هل أحضرت الكتاب؟».

- نعم، سيدي. كان ذلك هو الذي رأيته عند بائع الجرائد في أومال. حصلت عليه بعشرة سنتيمات.

- أعطني إياه.

قدم له لوبالو كتيبًا قديمًا مستهلكًا، مغطى بالأتربة، وكان عنوانه:

زيارة إلى مورتبيير، 1824، مع رسومات وخرائط.

بحث لوبين فورًا عن خطة البرج. قال: «هذا هو، كان هناك ثلاثة طوابق فوق الأرض دُمِّرت، وتحتها طابقان محفوران في الصخر، أحدهما قد امتلأ بالحطام، والآخر... ها هنا حيث يرقد صديقنا دوبريك. الاسم يدل، غرفة التعذيب، صديقي مسكين... بين السلم والغرفة، هناك بابان. بين البابين، غرفة صغيرة حيث يقف بوضوح الإخوة الثلاثة، حاملين بنادقهم».

- إذًا، من المستحيل الدخول إلى هناك دون أن يرونك.

- مستحيل... إلا إذا دخلنا من الأعلى، عبر الطابق المنهار، وحاولنا إيجاد طريق عبر السقف... لكنها مخاطرة كبيرة...

استمر في تقليب صفحات الكتاب. سألت كلاريس: «ألا توجد نافذة في تلك الغرفة؟». قال: «نعم. من الأسفل، من النهر -لقد جئت من هناك- يمكنك رؤية فتحة صغيرة، وهي مميزة على هذه الخريطة».

- ولكن، هناك خمسون مترًا من الارتفاع، بشكل عمودي... وحتى إن الصخرة تتدلى فوق الماء. إذًا، هذا مستحيل أيضًا.

كان يقرأ بعض المقاطع في الكتاب، لفت انتباهه فصل بعنوان برج العاشقَيْن. قرأ السطور الأولى: «قديمًا، كان البرج يُعرف بين سكان

المنطقة باسم برج العاشقَيْن، وذلك تخليدًا لمأساة حدثت فيه في العصور الوسطى. عندما تأكد الكونت دي مورتبيير من خيانة زوجته، حبسها في غرفة التعذيب. ويقال إنها بقيت هناك لمدة عشرين عامًا. في إحدى الليالي، تجرأ عشيقها، السيد تانكارفيل، على نصب سلم في النهر وتسلق الجرف حتى وصل إلى فتحة غرفتها. وبعد أن نشر قضبان النافذة، تمكن من تحرير حبيبته، ونزل معها باستخدام حبل. ووصلا معًا إلى قمة السلم حيث كان ينتظرهما أصدقاء له، لكن رصاصة أطلقت من الطريق المحيط بالبرج أصابت الرجل في كتفه. وسقط العاشقان في الفراغ...».

ساد الصمت بعد هذه القراءة، صمت طويل حيث كان كل واحد يعيد بناء مشهد الهروب المأساوي في ذهنه. وهكذا، قبل ثلاثة أو أربعة قرون، رجل خاطر بحياته لإنقاذ امرأة، وحاول تحقيق هذا الإنجاز المستحيل، وكان سيحقق ذلك لولا يقظة أحد الحراس الذين جذبهم الصوت. رجل تجرأ على ذلك! رجل فعل ذلك!

رفع لوبين عينيه نحو كلاريس. كانت تنظر إليه، ولكن بأي نظرة! نظرة يأس وتوسل! نظرة أم تطلب المستحيل، وكانت على استعداد للتضحية بكل شيء من أجل إنقاذ ابنها. قال: «لوبالو، ابحث عن حبل قوي، رفيع جدًّا، حتى أتمكَّن من لفه حول خصري، ويجب أن يكون طويلًا جدًّا، خمسين أو ستين مترًا. وأنت، جرونيار، ابحث عن ثلاثة أو أربعة سلالم يمكن ربطها معًا».

صرخ رفيقاه: «ماذا! ماذا تقول، يا سيدي؟ ماذا! تريد... ولكن هذا جنون».

- جنون؟ لماذا؟ ما فعله شخص آخر، يمكنني فعله أيضًا.

- لكن هناك مئة فرصة ضدك لتكسر عنقك.

- هناك فرصة واحدة ألا أكسر عنقي يا لوبالو.

- دعك من هذا، سيدي...

- كفى كلامًا، يا أصدقاء. موعدنا بعد ساعة على ضفاف النهر.

كانت التحضيرات طويلة. وجدوا صعوبة في العثور على ما يكفي من السلالم لتشكيل سلم طوله خمسة عشر مترًا يمكنه الوصول إلى أول منحدر من الجرف، وكان من الصعب جدًّا ربط الأجزاء المختلفة معًا. أخيرًا، بعد التاسعة بقليل، نُصِب السلم في وسط النهر، وتثبيته بواسطة قارب كانت مقدمته متشابكة بين درجات السلم ومؤخرته مغروزة في الضفة. نظرًا لأن الطريق الذي يتبع الوادي كان قليل الاستخدام، لم تزعج الأعمال أحدًا. كانت الليلة مظلمة، والسماء ملبدة بالغيوم الثقيلة. أعطى لوبين تعليماته الأخيرة للوبالو وجرونيار، وقال ضاحكًا: «لا يمكنكم تخيُّل كم يسرني أن أرى وجه دوبريك وهو يتعرض للتعذيب وتقطيع جلده إلى شرائح. حقًّا! يستحق الأمر العناء».

جلست كلاريس في القارب أيضًا. قال لها: «إلى اللقاء. وقبل كل شيء، لا تتحركي. مهما حدث، لا تقومي بأي حركة، لا تصرخي». قالت: «إذًا، قد يحدث شيء؟».

- بالطبع! تذكري السيد تانكارفيل. في اللحظة التي وصل فيها إلى هدفه، حبيبته بين ذراعيه، خانته المصادفة. لكن لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

لم ترد. أمسكت بيده وضغطت عليها بقوة بين يديها. وضع قدمه على السلم وتأكد من أنه ثابت. ثم بدأ في الصعود. سرعان ما وصل إلى آخر درجة. هناك فقط بدأت الصعود الخطير، صعود شاق في البداية بسبب الانحدار الشديد، والذي تحول إلى تسلق جدار حقيقي في منتصف الطريق. لحسن الحظ، كانت هناك في بعض الأمكنة حُفر

صغيرة تُمَكِّن لقدميه أن تستند عليها، وأحجار بارزة يمكن ليديه أن تتشبث بها. ولكن مرتين، انهارت تلك الأحجار، فانزلق، وفي المرتين اعتقد أن كل شيء قد انتهى. عندما وجد حفرة عميقة، استراح فيها. كان منهكًا، وعلى وشك التخلي عن المحاولة، تساءل عما إذا كان يستحق المخاطرة بحياته من أجل هذا الأمر.

فكر: «يا للهول! أظن أنك تتراجع، يا لوبين العجوز. هل تتخلى عن المحاولة؟ إذن، سيكشف دوبريك سره. سيصبح الماركيز سيدًا على القائمة. سيعود لوبين صفر اليدين، وجلبير...».

كان الحبل الطويل الذي لفَّه حول خصره يسبب له إزعاجًا وإرهاقًا غير ضروريين، فثبت ببساطة أحد طرفي الحبل في حزام سرواله. كان الحبل سيتدلى في أثناء الصعود، وكان سيستخدمه عند العودة كحاجز. ثم تشبث مجددًا بنتوءات الجرف وواصل التسلق، وأصابعه تنزف، وأظفاره ممزقة. كان يتوقع السقوط في أي لحظة. وما كان يثبط عزيمته هو سماع همسات الأصوات القادمة من القارب، همسات واضحة جدًا لدرجة أنها لم تبدُ بعيدة عنه. وتذكر السيد تانكارفيل، وحيدًا أيضًا في الظلام، ويرتجف من صوت الحجارة المتساقطة والمتدحرجة. كيف أن أصغر صوت كان يتردد في الصمت العميق! لو كان أحد حراس دوبريك يراقب الظلال من أعلى برج العاشقين، لكان هذا يعني الطلقة النارية، الموت...

كان يتسلق منذ فترة طويلة لدرجة أنه بدأ يتخيل أنه تجاوز الهدف. بلا شك، كان قد انحرف دون أن يدرك نحو اليمين أو اليسار، وكان سينتهي به الأمر إلى الطريق المحيط. نهاية غبية! لكن، هل يمكن أن يكون هناك نتيجة أخرى لمحاولة لم يسمح له تسارع الأحداث بدراستها وتحضيرها؟

غاضبًا، ضاعف من جهوده، ارتفع لعدة أمتار، انزلق، استعاد الأرض المفقودة، أمسك بجذور نبات بقيت في يده، انزلق مجددًا، وبعد أن استسلم تقريبًا، وفجأة، جمع كل قواه، ووقف بكل عضلاته وإرادته، وتوقف؛ بدا له أن صوتًا ينبعث من الصخرة التي كان يتشبث بها.

استمع. كان الصوت يأتي من الجهة اليمنى. وعندما رفع رأسه، اعتقد أنه رأى شعاعًا من الضوء يخترق الظلام. بفضل دفعة من الطاقة، وحركات غير محسوسة، تمكَّن من الانتقال إلى هناك دون أن يدرك تمامًا كيف فعل ذلك. لكنه وجد نفسه فجأة على حافة فتحة واسعة، بعمق لا يقل عن ثلاثة أمتار، تخترق الجرف مثل ممر، وتغلق نهايتها الأخرى، الأكثر ضيقًا، بثلاثة قضبان حديدية.

زحف لوبين. وَصَلَ رأسُه إلى القضبان. ورأى...

الفصل الثامن

برج العاشقين

غرفة التعذيب كانت تمتد تحته بشكل واسع وغير منتظم، مُقسمة إلى أجزاء غير متساوية بواسطة أربعة أعمدة ضخمة تدعم قبابها. رائحة العفن والرطوبة كانت تتصاعد من جدرانها وأرضيتها المبللة بالتسربات. كان منظرها كئيبًا في أي وقت، لكن في هذه اللحظة، مع ظهور سيباستياني وأبنائه بظلالهم الطويلة، ومع الأضواء المائلة التي تلعب على الأعمدة، ومع رؤية الأسير المقيد على سرير متواضع، كانت تأخذ مظهرًا غامضًا وبربريًا.

كان دوبريك في المقدمة، على بعد خمسة أو ستة أمتار أسفل النافذة الصغيرة التي كان لوبين مختبئًا فيها. إلى جانب السلاسل القديمة التي استخدمت لتقييده بجانب سريره ولتثبيت السرير في خطاف حديدي مثبت في الجدار، كانت هناك شرائط جلدية تلتف حول كاحليه

ومعصميه، وكان هناك جهاز مبتكر يجعل أي حركة منه تُحدث رنين جرس معلق على العمود المجاور.

كان هناك مصباح موضوع على مقعد كان يضيء وجهه بالكامل. واقفًا بجانبه، كان الماركيز دألبوفكس، والذي كان لوبين يرى وجهه الشاحب، وشاربه الرمادي، وقامته الطويلة والنحيلة، ينظر إلى أسيره بتعبير من الرضا والكراهية المشبعة. مرَّت بضع دقائق في صمت عميق. ثم أمر الماركيز: «سيباستياني، أشعل هذه الشموع الثلاث حتى أتمكَّن من رؤيته بشكل أفضل».

وعندما أشعل الشموع الثلاث ونظر جيدًا إلى دوبريك، انحنى وقال له بصوت هادئ تقريبًا: «لا أعلم ماذا سيحدث لنا نحن الاثنين. ولكن، مع ذلك، لقد استمتعت هنا، في هذه الغرفة، ببعض اللحظات الرائعة من السعادة. لقد سببت لي الكثير من الألم، يا دوبريك! لقد بكيت بسببك! نعم... دموع حقيقية، نوبات بكاء يائسة، لقد سرقت مني الكثير من المال! ثروة! والخوف الذي كان ينتابني من فضحك لي! ذكر اسمي كان يعني دمارًا كاملًا، عارًا لا يُمحى. آه، أيها الوغد!».

لم يتحرك دوبريك. ورغم أنه كان مجردًا من النظارة أحادية العدسة، إلا أنه كان يرتدي نظاراته العادية التي كانت تعكس أضواء الشموع. كان قد فقد الكثير من الوزن، وبروز عظام وجنتيه كان يظهر فوق خديه الغائرين. قال دألبوفكس: «حسنًا، حان الوقت الآن للانتهاء من هذا. يبدو أن هناك بعض الأصدقاء يتجولون في المنطقة. عسى ألا يكونوا قادمين لإنقاذك، لأن ذلك سيكون هلاكك الفوري، كما تعلم... سيباستياني، هل الفخ لا يزال يعمل جيدًا؟».

اقترب سيباستياني، وركع على ركبته، ورفع وحرك حلقة لم يلاحظها لوبين، وكانت موجودة عند قدم السرير. إحدى البلاطات تمايلت، كاشفة

عن حفرة سوداء. تابع الماركيز: «ترى، كل شيء مُعد، ولديَّ كل ما أحتاج إليه تحت يديَّ، حتى الزنازين... وزنازين لا قاع لها، حسبما تقول أسطورة القلعة. لذا، لا أمل، لا مساعدة. هل تريد التحدث؟».

عندما لم يرد دوبريك، تابع الماركيز: «هذه هي المرة الرابعة التي أستجوبك فيها، دوبريك. هذه هي المرة الرابعة التي أزعج نفسي لأطلب منك الوثيقة التي بحوزتك ولأتحرر من ابتزازك. هذه هي المرة الرابعة والأخيرة. هل تريد التحدث؟». لم يحصد سوى الصمت نفسه. أشار دألبوفكس إلى سيباستياني. تقَدَّم الحارس، يتبعه اثنان من أبنائه. كان أحدهما يحمل عصا في يده. قال الماركيز بعد بضع ثوانٍ من الانتظار: «هيا».

فكَّ سيباستياني الأشرطة التي كانت تربط معصمي دوبريك، وأدخل وثبت العصا بين الأشرطة. سأل: «هل أبدأ في الدوران، سيدي الماركيز؟». صمت للمرة الثانية. كان الماركيز ينتظر. وعندما لم يتحرك دوبريك، تمتم: «تحدث! لماذا تعرض نفسك للمعاناة؟». لم يأتِ أي رد. قال الماركيز: «ابدأ بالدوران، سيباستياني».

أدار سيباستياني العصا دورة كاملة. اشتدت الأشرطة. أطلق دوبريك أنينًا. كرر الماركيز: «ألا تريد التحدث؟ أنت تعلم جيدًا أنني لن أستسلم، وأنه من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أستسلم، لأنني أملكك، وإذا لزم الأمر، سأحطمك حتى الموت. ألا تريد التحدث؟ لا؟... سيباستياني، دورة أخرى».

أطاع الحارس. ارتجف دوبريك من الألم وسقط على سريره وهو يئن. صرخ الماركيز بحدة: «أيها الأحمق! تحدث! ماذا؟ ألا تزال متمسكًا بهذه القائمة؟ إنها لم تعد تهمك، بعد كل شيء. هيا، تحدث، أين هي؟ كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط، وسأتركك بسلام أيها الوغد، عندما أحصل

على القائمة، ستكون حرًّا. حرًّا، هل تفهم؟ لكن، تحدث!... آه، يا لك من وحش! سيباستياني، دورة أخرى».

لفَّ سيباستياني العصا مجددًا. تكسرت العظام. تمتم دوبريك بصوت أجش، محاولًا بلا جدوى الإفلات: «النجدة! النجدة!». ثم همس بصوت منخفض: «ارحموني... ارحموني...». كان المشهد مرعبًا. وجوه أبناء سيباستياني كانت مشوهة بتعبيرات عنيفة. لوبين، الذي كان يرتعش من الرعب والقرف، والذي أدرك أنه لم يكن ليتمكن قط من تنفيذ هذا الفعل البشع بنفسه، كان يراقب الكلمات الحتمية. كان على وشك أن يعرف. السر الذي يحمله دوبريك كان على وشك أن يُفصح عنه بصوت حزين، بكلمات انتُزعت بالقوة من الألم. وكان لوبين يفكر بالفعل في الهروب، في السيارة التي تنتظره، في السباق المحموم نحو باريس، في النصر القريب جدًّا!

كان الماركيز يهمس: «تحدث... وتكون النهاية». أجاب دوبريك بصوت مرتعش: «نعم، سأتحدث، نعم...».

- حسنًا...

- لاحقًا، غدًا...

- آه! هل جننت؟ غدًا! ماذا تقول؟ سيباستياني، دورة أخرى.

صرخ دوبريك: «لا، لا، لا، توقف».

- تكلم!

- حسنًا، حسنًا... لقد أخفيت الورقة...

لكن الألم كان كبيرًا للغاية. رفع دوبريك رأسه في محاولة يائسة، وأصدر أصواتًا غير مفهومة، ونجح مرتين في أن يقول: ماري... ماري...

ثم انهار، منهكًا، بلا حراك. أمر دألبوفكس سيباستياني: «حرره. اللعنة! هل بالغنا في الأمر؟».

لكن الفحص السريع أثبت أن دوبريك كان فقط فاقدًا للوعي. ثم انهار الماركيز نفسه، منهكًا، وجلس على حافة السرير، وهو يمسح العرق الذي غطى جبهته، وتمتم: «يا لها من مهمة قذرة...».

قال الحارس، والذي كان وجهه الخشن يعبر عن الانفعال: «ربما يكون هذا كافيًا لليوم... يمكننا أن نكمل غدًا أو بعد غد». ظل الماركيز صامتًا. قدَّم له أحد الأبناء قنينة من الكونياك. ملأ نصف كأس وشربه دفعة واحدة. قال: «غدًا، لا. حالًا. مجرد جهد صغير آخر. في الوضع الذي هو فيه، لن يكون الأمر صعبًا». وأخذ الحارس جانبًا: «هل سمعت؟ ماذا كان يقصد بكلمة ماري؟ قالها مرتين». قال الحارس: «نعم، مرتين. ربما يكون قد أعطى الوثيقة التي تطلبها لشخص يدعى ماري. اعترض دألبوفكس: «مستحيل! إنه لا يثق بأحد، هذا يعني شيئًا آخر».

- لكن ماذا، سيدي الماركيز؟

- ماذا؟ سنكتشف قريبًا، أؤكد لك.

في تلك اللحظة، تنفس دوبريك بعمق وتحرك على فراشه. دألبوفكس، الذي استعاد الآن كامل هدوئه، والذي لم يرفع عينيه عن عدوه، اقترب منه وقال: «ترى، دوبريك، من الجنون المقاومة، عندما تكون مهزومًا، عليك الخضوع لقوانين المنتصر، بدلًا من تعذيب نفسك بلا جدوى... هيا، كن عاقلًا». وتوجه إلى سيباستياني: «شد الحبل، ليشعر به قليلًا، سيستيقظ، إنه يتظاهر بالموت...».

أمسك سيباستياني بالعصا وأدارها حتى عاد الحبل ليلامس الجلد المتورم. ارتجف دوبريك. أمر الماركيز: «توقف يا سيباستياني. يبدو أن صديقنا لديه أفضل النيات في العالم ويدرك ضرورة التوصل إلى

اتفاق. أليس كذلك، دوبريك؟ تفضل إنهاء الأمر؟ كم أنت على حق!». كان الرجلان منحنيين فوق الأسير، سيباستياني يمسك بالعصا، ودألبوفكس يمسك بالمصباح ليضيء وجهه بالكامل. قال الماركيز: «شفتاه تتحركان، سيبدأ في الكلام... خفف قليلًا، سيباستياني، لا أريد أن يعاني صديقنا، ثم، لا، شد أكثر، أعتقد أن صديقنا يتردد، دورة أخرى... توقف!... نحن هنا... آه! يا دوبريك العزيز، إذا لم تتكلم بوضوح أكثر، سيكون ذلك مضيعة للوقت. ماذا؟ ماذا تقول؟».

تمتم أرسين لوبين بشتائم. كان دوبريك يتحدث، ولوبين لم يتمكن من سماعه! رغم أنه كان يرهف السمع، ويحاول كتم نبضات قلبه وضجيج صدغيه، لم يصله أي صوت. فكر لوبين: «اللعنة! لم أكن أتوقع ذلك. ماذا أفعل؟». كان على وشك أن يصوب مسدسه ويطلق رصاصة على دوبريك لتقطع عليه أي فرصة للكشف عن السر. لكنه أدرك أنه هو نفسه لن يعرف المزيد، وأنه من الأفضل أن يترك الأمور تتطور ليستفيد منها بأفضل طريقة ممكنة.

في الأسفل، استمر الاعتراف، غير واضح، متقطع بالصمت وممزوج بالأنين. لم يتخلَّ دألبوفكس عن فريسته. قال: «تابع... أكمل...». وكان يقطع العبارات بتعليقات تأييد: «جيد!... ممتاز! لا يصدق؟ كرر ذلك، دوبريك... آه! هذا غريب... ولم يخطر ببال أحد؟ حتى براسفيل؟... يا له من أحمق!... خفف قليلًا، سيباستياني... ترى أن صديقنا يلهث... هدوء، دوبريك... لا تجهد نفسك... إذًا، يا صديقي العزيز، كنت تقول...».

كانت هذه النهاية. كان هناك همس طويل استمع له دألبوفكس دون مقاطعة، ولم يستطع أرسين لوبين التقاط أي كلمة منه. ثم وقف الماركيز وصرخ بفرح: «حصلنا على ما نريد! شكرًا، دوبريك. وصدقني أنني لن أنسى أبدًا ما فعلته الآن. عندما تكون في حاجة، ما عليك سوى

أن تطرق بابي، وستجد دائمًا قطعة من الخبز لك في المطبخ، وكأس ماء مصفى. سيباستياني، اعتنِ بالسيد النائب وكأنه أحد أبنائك. وقبل كل شيء، أطلق سراحه من قيوده. لا بد أنك بلا قلب لربط أحد البشر مثل دجاجة على سيخ». اقترح الحارس: «ربما نعطيه شيئًا للشرب؟».

- هذا صحيح! أعطه شيئًا للشرب.

فكَّ سيباستياني وأبناؤه الأشرطة الجلدية، ودلكوا معصميه المتألمين ولفوهما بضمادات قماشية مغطاة بمراهم. ثم شرب دوبريك بضع جرعات من الماء. قال الماركيز: «هذا أفضل. حسنًا! لن يكون هناك شيء خطير. بعد بضع ساعات، لن يبقى أثر لهذا، ويمكنك أن تفتخر بأنك تحملت التعذيب، مثل الأيام الخوالي لمحاكم التفتيش. يا لك من محظوظ!». تحقق من ساعته وقال: «كفى حديثًا يا سيباستياني. ليتناوب أبناؤك على حراسته. أما أنت، فخذني إلى المحطة، لأخذ آخر قطار». قال الحارس: «إذن، يا سيدي الماركيز، سنتركه هكذا، حر الحركة؟».

- ولِم لا؟ هل تتخيل أننا سنحتجزه هنا حتى يموت؟ لا، دوبريك، لا تقلق. غدًا بعد الظهر، سأذهب إلى منزلك، وإذا وجدت الوثيقة في المكان الذي أبلغتني عنه، سأرسل إليك تليغرافًا فورًا، وستكون حرًّا. لم تكذب، أليس كذلك؟

عاد إلى دوبريك، ومنحنيًا فوقه مجددًا: «لا تخدعني، أليس كذلك؟ سيكون هذا غباء منك. سأخسر يومًا واحدًا فقط، هذا كل شيء. أما أنت، فستخسر ما تبقى من أيام حياتك. لكن لا، لا، المكان جيد جدًّا. لا يمكن اختراعه للعبث. سيباستياني، غدًا ستحصل على تلغراف مني».

- وإذا لم يسمحوا لك بدخول المنزل، يا سيدي الماركيز؟

- لماذا إذًا؟

- لأن المنزل في ساحة لامارتين تحت مراقبة رجال براسفيل.

- لا تقلق، سيباستياني، سأدخل، وإذا لم يفتحوا لي الباب، هناك النافذة. وإذا لم تفتح النافذة، سأعرف كيف أتعامل مع أحد رجال براسفيل. إنها مسألة مال، ولن ينفد المال بعد الآن. ليلة سعيدة، دوبريك.

خرج برفقة سيباستياني، وأُغلِق الباب الثقيل وراءهما. على الفور، وبناءً على خطة كانت تتشكل خلال هذا المشهد، قرر لوبين التراجع. كانت الخطة بسيطة: النزول باستخدام الحبل إلى أسفل الجرف، أخذ أصدقاءه معه، القفز في السيارة، وعلى الطريق المهجور الذي يؤدي إلى محطة أومال، مهاجمة دألبوفكس وسيباستياني. لم يكن هناك شك في نتيجة المعركة. بمجرد أن يصبح دألبوفكس وسيباستياني أسرى، سيكون من الممكن إقناع أحدهما بالحديث. كان دألبوفكس قد أوضح بالفعل ماذا ينبغي أن نفعل. ومن أجل إنقاذ ابنها، كانت كلاريس ميرجي ستعرف كيف تكون حازمة.

أخرج الحبل الذي أحضره معه، وبدأ يتحسس الصخور للعثور على شق يمرر فيه الحبل بحيث يتدلى منه جزآن متساويان يمكنه الإمساك بهما بكلتا يديه. ولكن عندما وجد ما كان يبحث عنه، بدلًا من التصرف بسرعة لأن المهمة كانت مُلحة، وقف متجمدًا، يفكر. في اللحظة الأخيرة، لم تعد خطته تُرضيه. قال لنفسه: «هذا سخيف، ما سأفعله سخيف وغير منطقي. ما الذي يضمن لي أن دألبوفكس وسيباستياني لن يفلتا مني؟ ما الذي يضمن لي حتى إنهما سيتحدثان بعد أن يقعا في قبضتي؟ لا، سأبقى. هناك شيء أفضل يمكنني القيام به... أفضل بكثير. ليس هذان الاثنان من يجب أن أهاجمهم، بل دوبريك. إنه منهك، وعلى وشك الانهيار. إذا كان قد أفشى سره للماركيز، فلا يوجد سبب يمنعه من الإفصاح عنه لي، عندما أستخدم الأساليب نفسها مع كلاريس. حسنًا!

لنختطف دوبريك!». وأضاف في نفسه: «بالمناسبة، ما الذي أخسره؟ إذا فشلت، سنهرب أنا وكلاريس ميرجي إلى باريس، وسنرتب مع براسفيل رقابة دقيقة على المنزل في ساحة لامارتين حتى لا يتمكن دألبوفكس من الاستفادة مما كشفه دوبريك له. الأهم هو أن نحذر براسفيل من الخطر. وسيحدث ذلك».

كانت الساعة تدق منتصف الليل في قرية قريبة. كان ذلك يمنح لوبين ست أو سبع ساعات لتنفيذ خطته الجديدة. بدأ على الفور. في أثناء تحركه بعيدًا عن الفتحة التي تُفتح منها النافذة، اصطدم بإحدى فجوات الجرف بمجموعة من الشجيرات الصغيرة. باستخدام سكينه، قطع قرابة اثنتي عشرة شجرة وقطعها قطعًا متساوية الطول. ثم استخدم الحبل لقص جزأين متساويين، ليكونا العمودين الجانبيين للسلم. بين هذين العمودين، ثبت اثني عشر قضيبًا صغيرًا، وبذلك صنع سلمًا حبليًّا يبلغ طوله قرابة ستة أمتار.

عندما عاد إلى موقعه، لم يكن هناك في غرفة التعذيب، بجانب سرير دوبريك، سوى أحد الأبناء الثلاثة. كان يدخن غليونه بالقرب من المصباح. كان دوبريك نائمًا. فكر لوبين: «اللعنة! هل سيظل هذا الشاب مستيقظًا طوال الليل؟ في هذه الحالة، لا خيار لي سوى الهروب...».

كان يشعر بالقلق من أن دألبوفكس أصبح الآن على علم بالسر. من اللقاء الذي شهد عليه، كان لديه انطباع واضح بأن الماركيز يعمل لحسابه الخاص، وأنه لم يكن يسعى فقط، بسرقته للقائمة، إلى تحرير نفسه من تأثير دوبريك، بل كان أيضًا يهدف إلى الاستيلاء على قوة دوبريك، وإعادة بناء ثروته بالوسائل نفسها التي استخدمها دوبريك. بالتالي، كانت تلك ستكون معركة جديدة على لوبين أن يخوضها ضد عدو جديد. لم يكن تسارع الأحداث يسمح بالتفكير في مثل هذه

الفرضية. كان لا بد بأي ثمن من منع دألبوفكس من المضي قدمًا عن طريق إبلاغ براسفيل.

ومع ذلك، بقي لوبين، مدفوعًا بالأمل العنيد في حدوث شيء يمنحه فرصة للتحرك. دقت الساعة تنبئ عن منتصف الليل. ثم دقت الواحدة. أصبح الانتظار مرهقًا، خاصة مع الصقيع الذي بدأ يرتفع من الوادي، ولوبين يشعر بالبرد يتسلل إلى جسده. سمع صوت حوافر حصان من بعيد. فكر: «هذا سيباستياني يعود من المحطة». لكن الابن الذي كان يراقب في غرفة التعذيب، بعد أن أفرغ كيس التبغ، فتح الباب وسأل إخوته إذا كان لديهم ما يكفي لتعبئة غليونه مرة أخيرة. بناءً على ردهم، خرج للذهاب إلى الكوخ.

ولدهشة لوبين، لم يُغلق الباب بالكاد عندما جلس دوبريك، الذي كان نائمًا بعمق، على سريره، استمع، وضع قدمًا على الأرض، ثم الأخرى، ثم وقف، متمايلًا قليلًا لكنه بدا أقوى مما كان متوقعًا. حاول استعادة قوته. فكر لوبين: «حسنًا، هذا الرجل لديه عزيمة. يمكنه أن يساعد في عملية هروبه. شيء واحد يقلقني... هل سيتعاون؟ هل سيوافق على مرافقتي؟ هل سيعتقد أن هذه النجدة المعجزة التي تأتيه من السماء هي فخ من الماركيز؟». لكن فجأة تذكر لوبين تلك الرسالة التي جعلته يكتبها لابنتي عم دوبريك، تلك الرسالة التوصية التي وقعت عليها الأخت الكبرى باسمها إفراسيا.

كانت الرسالة في جيبه. أخرجها واستمع. لم يكن هناك أي صوت، إلا خطوات دوبريك الخفيفة على البلاط. رأى لوبين أن اللحظة مناسبة. بسرعة، مدَّ ذراعه بين القضبان وألقى بالرسالة. بدا دوبريك مذهولًا. كانت الرسالة قد سقطت في الغرفة واستقرت على الأرض على بعد ثلاث خطوات منه. من أين جاءت؟ رفع رأسه نحو النافذة وحاول

اختراق الظلام الذي كان يخفي الجزء العلوي من الغرفة. ثم نظر إلى الرسالة، دون أن يجرؤ على لمسها بعد، كما لو كان يخشى فخًا. ثم فجأة، بعد إلقاء نظرة على الباب، انحنى بسرعة، أمسك الرسالة وفتحها. آه! تنهد بفرح عند رؤية التوقيع. قرأ الرسالة بصوت منخفض: «يجب أن تثق تمامًا بحامل هذه الرسالة. هو الذي، بفضل المال الذي سلمناه له، اكتشف سر الماركيز ووضع خطة الهروب. كل شيء جاهز للفرار. إفراسيا روسلو».

قرأ دوبريك الرسالة مرة أخرى، وكرر: «إفراسيا... إفراسيا... ثم رفع رأسه مجددًا». همس لوبين: «سأحتاج إلى ساعتين أو ثلاث لقص أحد القضبان. هل سيعود سيباستياني وأبناؤه؟». أجاب دوبريك بهدوء: «نعم، من المحتمل، لكنني أعتقد أنهم سيتركونني».

- هل ينامون في الجوار؟
- نعم.
- هل سيسمعون؟
- لا، الباب سميك جدًا.
- جيد. في هذه الحالة، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. لديَّ سلم من الحبال. هل يمكنك الصعود وحدك؟ دون مساعدتي؟
- أعتقد، سأحاول، لقد كسروا معصميَّ... آه! يا للوحوش! بالكاد أستطيع تحريك يدي، وليس لدي الكثير من القوة! لكن رغم ذلك، سأحاول، لا بد أن أفعل...

قاطعه واستمع، ثم وضع إصبعه على فمه وهمس: «ششش!». عندما دخل سيباستياني وأبناؤه، كان دوبريك، الذي أخفى الرسالة واستلقى على سريره، يتظاهر بالاستيقاظ فجأة. كان الحارس يحمل زجاجة

من النبيذ وكأسًا وبعض المؤن. قال سيباستياني بصوتٍ عالٍ: «كيف حالك، سيدي النائب؟ لا بأس، ربما شددنا قليلًا... هذا المِدْوَار الخشبي قاسٍ جدًّا. لقد استخدموا شيئًا مشابهًا في زمن الثورة الفرنسية الكبرى ونابليون، كما قيل لي... في زمن «قُطاع الطرق». اختراع رائع! ولا يسبب الدماء... آه! لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا! بعد عشرين دقيقة فقط، نطقت بالكلمة السحرية».

ضحك سيباستياني بصوتٍ عالٍ. ثم أضاف: «بالمناسبة، سيدي النائب، تهانينا! المكان الذي أخفيت فيه المستند كان مذهلًا. من كان يظن أبدًا؟ انظر، ما خدعنا أنا والسيد الماركيز هو هذا الاسم ماري الذي ذكرته أولًا. لم تكذب، لكن الكلمة توقفت في منتصف الطريق. كان يجب أن تكملها. لكن مع ذلك، يا لها من نكتة! على طاولة مكتبك بالضبط! حقًّا، شيء يبعث على الضحك».

وقف الحارس وبدأ يسير في الغرفة وهو يفرك يديه بسرور. وقال: «السيد الماركيز مسرور للغاية، حتى إنه سيعود بنفسه غدًا مساءً ليمنحك حرية الحركة. نعم، لقد فكر في الأمر، ستكون هناك بعض الإجراءات الشكلية... قد تضطر إلى توقيع بعض الشيكات، وتسوية الحساب، وتدفع للسيد الماركيز ماله. لكن ماذا يعنيه ذلك بالنسبة إليك؟ لا شيء! علاوة على ذلك، لن تكون هناك سلاسل أو أحزمة جلدية حول معصميك بعد الآن، بل معاملة ملكية! انظر، لقد أمرني بمنحك زجاجة جيدة من النبيذ القديم وزجاجة من الكونياك».

ألقى سيباستياني بعض المزاح الآخر، ثم أخذ المصباح وأجرى تفتيشًا أخيرًا للغرفة وقال لأبنائه: «دعوه ينام. وأنتم أيضًا، ارتاحوا جميعًا. لكن لا تناموا إلا بنصف عين... لا يمكننا أن نعرف أبدًا...». ثم انسحبوا.

انتظر لوبين ثم قال بصوت منخفض: «هل يمكنني أن أبدأ؟».

- نعم، لكن احترس!... قد ويؤدون دورية حراسة بعد ساعة أو ساعتين.

بدأ لوبين العمل. كان لديه مبرد قوي جدًّا، وكانت قضبان الحديد صدئة ومتآكلة بفعل الزمن، وفي بعض الأمكنة كانت هشة للغاية. توقف لوبين مرتين، مصغيًا للأصوات. لكنه كان صوت فأر يركض بين الأنقاض في الطابق العلوي، أو طائر ليلي يحلق، فاستمر في عمله، مشجعًا من دوبريك الذي كان يستمع بالقرب من الباب، والذي كان سيحذره عند أدنى علامة على وجود خطر. قال لنفسه وهو يعطي آخر ضربة بالمبرد: «أوف! من الجيد أنني انتهيت، لأن هذا النفق الملعون ضيق جدًّا... ناهيك بالبرد...».

ضغط بكل قوته على القضيب الذي نشره من الأسفل، ونجح في إبعاده بما يكفي لتمرير رجل بين القضبان المتبقية. كان عليه بعد ذلك أن يتراجع إلى نهاية النفق، إلى الجزء الأوسع حيث كان قد ترك سلم الحبل. بعد أن ثبته على القضبان، نادى بهمس: «لقد انتهيت... هل أنت جاهز؟».

- نعم... ها أنا، لحظة فقط لأستمع، حسنًا، إنهم نائمون... أعطني السلم.

فأنزل لوبين السلم وقال: «هل يجب أن أنزل؟».

- لا، أنا ضعيف قليلًا، لكني سأتمكن من القيام بذلك.

وبالفعل، تمكن بسرعة من الوصول إلى فوهة النفق ودخل بعد منقذه. ومع ذلك، بدا أن الهواء النقي قد أربكه. بالإضافة إلى ذلك، لتعزيز قوته، شرب نصف زجاجة النبيذ، مما جعله يشعر بدوار، وجعله يستلقي على حجر النفق لمدة نصف ساعة. بدأ لوبين، الذي فقد صبره،

بربطه بأحد أطراف الحبل بينما الطرف الآخر كان مربوطًا بالقضبان، وكان يستعد لسحبه مثل طرد، عندما استعاد دوبريك وعيه، وكان في حالة أفضل. همس دوبريك: «لقد انتهى الأمر، أشعر أنني أفضل الآن. هل سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا؟».

- سيكون طويلًا نسبيًّا، نحن على ارتفاع خمسين مترًا.

- كيف لم يتوقع دألبوفكس أن الهروب ممكن من هنا؟

- الجرف شديد الانحدار.

- وكيف تمكنت أنت؟».

- حسنًا، أصرَّت بنات عمك... ثم، علينا أن نتمسك بالحياة، أليس كذلك؟ وقد كنَّا كرماء.

قال دوبريك: «إنهما رائعتان! أين هما؟».

- في الأسفل، في قارب.

- هل هناك نهر؟

- نعم، ولكن لننتقل إلى العمل، أليس كذلك؟ الوضع خطير.

- كلمة أخرى. هل كنت هنا لفترة طويلة عندما ألقيت الرسالة؟

- لا، لا، ربع ساعة على الأكثر. سأشرح لك لاحقًا، الآن علينا أن نتعجل.

مرَّ لوبين أولًا، وأوصى دوبريك بالتشبث جيدًا بالحبل والنزول ببطء. وكان على استعداد لدعمه في الأمكنة الأكثر صعوبة. استغرق الأمر منهم أكثر من أربعين دقيقة للوصول إلى الساحة التي شكَّلها الجرف، وكان على لوبين أن يساعد رفيقه عدة مرات، حيث إن معصمي دوبريك، اللذين تعرضا للتعذيب، كانا قد فقدا كل طاقتهما ومرونتهما.

مرات عديدة، تأوه دوبريك قائلًا: «آه، أيها الأوغاد، لقد دمروني... الأوغاد!... آه! دألبوفكس، ستدفع ثمن ذلك غاليًا». قال لوبين: «اصمت».

- ماذا؟

- هناك... صوت...

وقفوا بلا حراك على الجرف، يستمعون. فكر لوبين في السير تانكارفيل والحارس الذي قتله برصاصة من البندقية. ارتعد، وهو يتأثر بقلق الصمت والظلام. قال: «لا... لقد أخطأت... على أي حال، هذا سخيف... لا يمكن لأحد الوصول إلينا من هنا».

- من سيصل إلينا؟

- لا شيء، لا شيء، مجرد فكرة غبية...

عن طريق التحسس، بحث لوبين حتى وجد قضبان السلم، وقال: «ها هو السلم الذي ثبتناه في قاع النهر. أحد أصدقائي يحرسه، وكذلك بنات عمك». صفَّر لوبين. قال بصوت منخفض: «ها أنا هنا. أمسكوا السلم جيدًا». ثم قال لدوبريك: «سأمر أولًا». اعترض دوبريك: «ربما يكون من الأفضل أن أمر قبلك».

- لماذا؟

- أنا مرهق جدًّا. ستربط الحبل بحزامي وستمسكني... وإلا، سأخاطر بالسقوط...

- نعم، أنت محق. اقترب.

اقترب دوبريك وركع على الصخر. ربطه لوبين، ثم انحنى وأمسك أحد قضبان السلم بكلتا يديه حتى لا يتأرجح السلم. قال له: «انطلق». في تلك اللحظة، شعر بألم حاد في كتفه. قال لوبين وهو يسقط: «اللعنة!».

كان دوبريك قد ضربه بطعنة سكين تحت عنقه، قليلًا إلى اليمين.

- آه! أيها الوغد... الوغد...

في الظلام، لمح لوبين دوبريك وهو يتخلص من الحبل، وسمعه يهمس: «أنت أيضًا غبي جدًّا! لقد جلبت لي رسالة من بنات عمي روسلو، التي تعرفت فورًا على خط اليد الكبير لأديلايد، ولكن تلك المرأة العجوز الماكرة أديلايد، بدافع الشك ولتحذيري عند الحاجة، حرصت على توقيع الرسالة باسم أختها الصغرى إفراسيا اروسلو. هل رأيت كيف ترددت؟ إذًا، مع قليل من التفكير... أنت بالتأكيد السيد أرسين لوبين، حامي كلاريس، ومنقذ جلبير... يا لوبين المسكين، أعتقد أن أمرك سيئ... أنا لا أضرب غالبًا، ولكن عندما أضرب، فأنا أضرب بقوة».

انحنى نحو المصاب وبدأ يفتش في جيوبه: «أعطني مسدسك. أصدقاؤك سيكتشفون على الفور أنني لست قائدهم، وسيحاولون الإمساك بي. وبما أنني لم أعد أملك الكثير من القوة، رصاصة أو اثنتان... وداعًا، لوبين! سنلتقي في العالم الآخر، أليس كذلك؟ احجز لي شقة فيها جميع وسائل الراحة الحديثة... وداعًا، لوبين. وكل الشكر لك، لأنني حقًّا، دونك، لا أعرف ما الذي كنت سأفعله. اللعنة! دألبوفكس لم يكن يتردد في استخدام العنف. الأحمق... سأستمتع برؤيته مجددًا!!».

أكمل دوبريك تحضيراته. صفَّر مرة أخرى. وجاء الرد من القارب. قال: «ها أنا هنا».

في جهد أخير، حاول لوبين مدَّ ذراعيه لإيقافه. لكن لم يلتقط سوى الهواء. حاول الصراخ لتحذير رفاقه: ولكن صوته خنق في حلقه. شعر بجمود رهيب في جسده كله. كان صدغاه يضجان. وفجأة، سمع هتافات من الأسفل. ثم سمع صوت إطلاق رصاصة، ثم أخرى، تبعها ضحكة نصر. وسمع أنينًا لامرأة، وصيحات متألمة. وبعد قليل، سمع رصاصتين أخيرتين...

فكر لوبين في كلاريس، مصابة، وربما ميتة، وفي دوبريك الذي هرب منتصرًا، وفي دألبوفكس، وفي السدادة الكريستال التي سيستعيدها أحد هذين الخصمين دون أن يتمكن أحد من معارضتهما. ثم جاءت له رؤية مفاجئة للسير تانكارفيل وهو يسقط مع حبيبته. ثم همس مرات عدة: «كلاريس... كلاريس... جلبير...».

ثم حلَّ صمت كبير داخله، وسكنت فيه راحة لا نهائية، وشعر وكأن جسده المنهك، الذي لم يعد ممسوكًا بأي شيء، كان يتدحرج نحو حافة الجرف، نحو الهاوية...

الفصل التاسع

في الهاوية

غرفة فندق في أميان... لأول مرة، بدأ أرسين لوبين يستعيد وعيه قليلًا. كلاريس بجانبه، وكذلك لوبالو. كان الاثنان يتحدثان، ولوبين، دون أن يفتح عينيه، كان يستمع. فهم أنه كان هناك خوف على حياته، ولكن الخطر قد زال. بعد ذلك، في أثناء المحادثة، التقط بعض الكلمات التي كشفت له عما حدث في الليلة المأساوية في مورتبيير، نزول دوبريك، ذعر المتواطئين الذين لم يتعرفوا على القائد، ثم صراع قصير، حيث ألقت كلاريس بنفسها على دوبريك وأصيبت بطلقة في كتفها، ثم قفز دوبريك إلى الضفة، وأطلق جرونيار رصاصتين من مسدسه وتبعه، بينما تسلق لوبالو السلم ووجد القائد مغمًى عليه. قال لوبالو متعجبًا: «أتساءل كيف لم يسقط. كان هناك حفرة في ذلك المكان، ولكنها كانت منحدرة، وكان عليه أن يتمسك بأصابعه العشر حتى وهو نصف ميت. بحق السماء، لقد كان الوقت خطيرًا!».

كان لوبين يستمع، يستمع بيأس. كان يجمع قوته لفهم الكلمات. لكن فجأة سمع جملة مرعبة: كلاريس، وهي تبكي، تتحدث عن الثمانية عشر يومًا التي مرت، ثمانية عشر يومًا جديدة ضاعت في سبيل إنقاذ جلبير. ثمانية عشر يومًا! هذا الرقم أرعب لوبين. فكر أن كل شيء قد انتهى، وأنه لن يتمكن من التعافي ومواصلة المعركة، وأن جلبير وفوشيراي سيموتان... عقله يهرب منه. كانت الحمى، والهذيان مرة أخرى. وجاءت أيام أخرى. ربما هي الفترة التي يتحدث عنها لوبين بخوفٍ كبير. كان يملك قدرًا كافيًا من الوعي، وكانت هناك لحظات من الوضوح تسمح له بفهم الوضع بدقة. لكنه لم يكن قادرًا على تنسيق أفكاره، أو متابعة أي منطق، أو توجيه أصدقائه، أو منعهم من اتخاذ قرارات معينة. عندما كان يخرج من غيبوبته، كان يجد يده غالبًا في يد كلاريس، وفي تلك الحالة من نصف النوم التي تبقيه فيها الحمى، كان يهمس لها بكلمات غريبة، كلمات مليئة بالعاطفة والشغف، يترجاها ويشكرها على ما تجلبه له من ضوء وفرح وسط الظلام. ثم، وهو أكثر هدوءًا، دون أن يفهم تمامًا ما قاله، كان يحاول المزاح: «لقد كنت أهذي، أليس كذلك؟ لا بد أنني قلت الكثير من الهراء!». لكن بصمت كلاريس، كان لوبين يشعر أنه يمكنه كل الهراء الذي توحيه له الحمى... لم تكن تسمعه. العناية التي كانت تقدمها للمريض، تفانيها، يقظتها، قلقها عند أي انتكاسة، كل ذلك لم يكن موجهًا إليه شخصيًا، بل إلى المنقذ المحتمل لجلبير. كانت تراقب بقلق تقدم الشفاء. متى سيكون قادرًا على العودة إلى العمل؟ أليس من الجنون أن تبقى بجانبه بينما يختفي الأمل قليلًا كل يوم؟ لوبين لم يتوقف عن تكرار جملة واحدة، مع الإيمان الداخلي بأنه يمكنه بذلك التأثير على مرضه: «أريد أن أشفى... أريد أن أشفى...».

ولم يكن يتحرك طوال أيام كاملة حتى لا يؤثر على جروحه، أو يزيد، ولو قليلًا، من تحفيز أعصابه. كان يحاول أيضًا ألا يفكر في دوبريك. لكن صورة خصمه الرهيب كانت تطارده. في صباح أحد الأيام، استيقظ أرسين لوبين وهو يشعر بتحسن. الجرح قد التأم، ودرجة حرارته تقريبًا عادت إلى طبيعتها. وعده طبيب من أصدقائه، كان يأتي يوميًا من باريس، بأنه سيكون قادرًا على النهوض بعد غد. ومنذ ذلك اليوم، في غياب شركائه ومدام ميرجي، الذين ذهبوا جميعًا قبل يومين للبحث عن معلومات. طلب لوبين أن يُقرَّب من النافذة المفتوحة. كان يشعر بالحياة تعود إليه مع ضوء الشمس، ومع الهواء الدافئ الذي يعلن اقتراب الربيع. كانت أفكاره تتسلسل من جديد، والأحداث كانت تنتظم في عقله حسب ترتيبها المنطقي وعلاقاتها السرية.

في المساء، تلقى من كلاريس تليغرافًا تخبره بأن الأمور تسير بشكل سيئ وأنها ستبقى في باريس مع جرونيار ولوبالو. انتابه القلق جدًا من هذا التليغراف، قضى ليلة أقل هدوءًا. ما هي الأخبار التي دفعت كلاريس إلى إرسال هذا التليغراف؟

لكن في اليوم التالي، وصلت إلى غرفته، شاحبة، وعينيها متورمتين من البكاء، وسقطت منهارة القوى. تلعثمت: «لقد رُفِض الطعن بالنقض». سيطر على نفسه، وقال بصوت متفاجئ: «هل كنتِ تعتمدين على ذلك؟». أجابت: «لا، لا، ولكن رغم ذلك، المرء يأمل... رغم كل شيء...».

– هل رُفِض بالأمس؟

– قبل ثمانية أيام. أخفاه عني لوبالو، وأنا لم أجرؤ على قراءة الصحف.

أشار لوبين: «تبقى العفو...».

- العفو؟ هل تعتقد أن شركاء أرسين لوبين سيحصلون على العفو؟

أطلقت هذه الكلمات بحدة ومرارة لم يبد أنه لاحظها، وقال: «فوشري، ربما لا، لكنهم سيرحمون جلبير، لشبابه...».

- لن يرحموه. كيف تعرف ذلك؟

- لقد رأيت محاميه.

- رأيت محاميه، وماذا قلتِ له؟

قلت له إنني أم جلبير، وسألته إذا كان إعلان هوية ابني قد يؤثر على النتيجة، أو على الأقل يؤخرها.

همس لوبين: «هل ستعترفين، هل ستفعلين ذلك؟».

- حياة جلبير قبل كل شيء. ماذا يهمني، اسمي! ماذا يهمني، اسم زوجي!

اعترض لوبين: «وماذا عن اسم ابنك الصغير جاك؟ هل لديكِ الحق في التضحية بجاك وجعله شقيقًا لمجرم محكوم عليه بالإعدام؟». خفضت رأسها واستمر قائلًا: «ماذا قال لكِ المحامي؟».

- قال لي إن مثل هذا الفعل لن يفيد جلبير بشيء. ورغم كل احتجاجاته، رأيت أنه لا يملك أي توقعات وأن لجنة العفو ستوصي بالإعدام.

- اللجنة، نعم. ولكن هناك رئيس الجمهورية؟

- الرئيس يتبع دائمًا توصيات اللجنة.

- لن يتبعها هذه المرة.

- ولماذا؟

- لأنهم سيتدخلون لديه.

- كيف؟

- بتسليم مشروط لوثيقة السبعة والعشرين.

- إذًا، هل لديك الوثيقة؟

- لا.

- إذًا؟

- سأحصل عليها.

كان يقين لوبين لم يتزعزع. كان يؤكد بثقة وهدوء إيمانه في قوة إرادته اللا محدودة. رفعت كتفيها قليلًا، غير واثقة به تمامًا وقالت: «إذا لم يكن دألبوفكس قد سرق القائمة، فإن رجلًا واحدًا فقط يمكنه التدخل، رجل واحد: دوبريك».

قالت هذه الكلمات بصوت منخفض ومشتت جعله يرتعش. هل كانت لا تزال تفكر في دوبريك كما كان يعتقد في كثير من الأحيان، وفي إمكانية مقابلته ودفع ثمن نجاة جلبير؟ قال لها: «لقد قطعتِ لي وعدًا. أذكركِ به. لقد اتفقنا على أن تكون المعركة ضد دوبريك بقيادتي، دون أن يكون هناك أي اتفاق بينك وبينه». ردت: «أنا لا أعرف حتى أين هو. لو كنت أعرف، ألم تكن ستعرف أنت أيضًا؟». كانت الإجابة غامضة. لكنه لم يُصر، متعهدًا بمراقبتها في الوقت المناسب، وطلب منها -حيث لم يعرف بعد العديد من التفاصيل: «إذًا، لا أحد يعرف ما حدث لدوبريك؟».

- لا أحد يعرف. من الواضح أن إحدى رصاصات جرونيار أصابته، لأننا وجدنا في اليوم التالي لهروبه في إحدى الشجيرات منديلًا مغطى بالدم. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن أحدهم شاهده في محطة أومال، وكان يبدو متعبًا جدًّا وكان يمشي بصعوبة. اشترى تذكرة إلى باريس، وصعد إلى أول قطار مرَّ به... هذا كل ما نعرفه.

- لا بد أنه مصابٌ بجروح خطيرة، ويتعالج في ملاذ آمن. ربما يعتقد أيضًا أنه من الحكمة أن يختفي لبضعة أسابيع لتجنب الفخاخ المحتملة من الشرطة، أو من دألبوفكس، أو منكِ، أو مني، أو من جميع أعدائه. فكر قليلًا واستمر: «في مورتبيير، ماذا حدث منذ الهروب؟ هل تحدثوا عن أي شيء في البلدة؟».

- لا. منذ الفجر، سُحِب الحبل، مما يدل على أن سيباستياني وأبناءه قد اكتشفوا هروب دوبريك في تلك الليلة بالذات. غاب سيباستياني طوال ذلك اليوم.

- نعم، من المحتمل أنه ذهب لإخبار الماركيز. وأين هو الماركيز الآن؟

- في منزله. ووفقًا للتحقيق الذي أجراه جرونيار، لا يوجد شيء مشبوه هناك أيضًا.

- هل أنتم متأكدون أنه لم يدخل الفندق في ساحة لامارتين؟

- متأكدون بشكل كبير.

- ولا دوبريك؟

- ولا دوبريك.

- هل قابلتِ براسفيل؟

- براسفيل في إجازة. إنه مسافر. لكن المفتش الرئيسي بلانشون، الذي كلفه براسفيل بهذه القضية، والضباط الذين يحرسون الفندق يؤكدون أنه، وفقًا لأوامر براسفيل، لم تتراخ مراقبتهم للحظة، حتى في الليل، وأن أحدهم يبقى دائمًا في المكتب، وبالتالي لم يتمكن أحد من التسلل.

- إذًا، من حيث المبدأ، يجب أن تكون السدادة الكريستال لا تزال في مكتب دوبريك؟

- إذا كانت هناك قبل اختفاء دوبريك، فيجب أن تكون لا تزال في ذلك المكتب.

- وعلى المنضدة...

- على المنضدة؟ لماذا تقول ذلك؟

- لأنني أعلم ذلك، لأنني لم أنسَ عبارة سيباستياني.

- لكن هل تعرف المكان الذي تختفي السدادة بالضبط؟

- لا. لكن المنضدة هي مساحة محدودة. يمكن استكشافها في عشرين دقيقة. وإذا لزم الأمر، يمكن تدميرها في عشر دقائق.

بدأ أرسين لوبين يتعب قليلًا من الكلام. ولأنه لم يكن يريد ارتكاب أي حماقة، قال لكلاريس: «استمعي لي، أطلبُ منكِ مهلة يومين أو ثلاثة أيام أخرى. نحن اليوم الاثنين 4 مارس. بحلول الأربعاء أو الخميس على أبعد تقدير، سأكون مستعدًّا. وكوني على ثقة أننا سننجح».

- وماذا حتى ذلك الحين؟...

- حتى ذلك الحين، عودي إلى باريس. انزلي مع جرونيار ولوبالو في فندق فرانكلين بالقرب من تروكاديرو، وراقبي منزل دوبريك. لديكِ حرية الدخول إلى هناك. حفزي حماس الضباط.

- ماذا لو عاد دوبريك؟

- إذا عاد، فهذا أفضل، سنتمكن من القبض عليه.

- وإذا مرَّ فقط؟

- في هذه الحالة، يجب أن يتبعه جرونيار ولوبالو.

- وماذا لو فقدا أثره؟

لم يرد لوبين. لم يكن أحد يشعر أكثر منه بما في ذلك من خطر أن يبقى غير نشط في غرفة فندق، ومدى أهمية حضوره في ساحة المعركة! ربما حتى هذه الفكرة الغامضة قد أطالت مرضه أكثر مما ينبغي. همس: «رجاءً، غادري». كان هناك توتر متزايد بينهما مع اقتراب اليوم الرهيب. غير منصفة، متناسية، أو راغبة في نسيان، أنها كانت السبب في تورط ابنها في مغامرة إنغين، لم تنسَ مدام ميرجي أن العدالة كانت تلاحق جلبير بهذه الصرامة، ليس فقط لأنه مجرم، بل لأنه شريك لأرسين لوبين. وأيضًا، رغم كل جهودها، رغم معجزات قوتها، ما هي النتيجة التي حققها لوبين في النهاية؟ كيف استفاد جلبير من تدخله؟ بعد صمت، نهضت وغادرت الغرفة، تاركة إياه وحيدًا.

في اليوم التالي، كان ضعيفًا للغاية. لكن اليوم الذي تلاه، أي يوم الأربعاء، عندما أصر طبيبه على بقائه حتى نهاية الأسبوع، أجاب: «ما الذي أخشاه؟».

- أن تعود الحمى.

- لا شيء أكثر؟

- لا. الجرح قد التأم بما فيه الكفاية.

- إذن، ليكن ما يكون. سأصعد معك إلى سيارتك. بحلول الظهر، سنكون في باريس.

ما دفع لوبين إلى الرحيل على الفور كان، أولًا، رسالة من كلاريس نصت على: **لقد عثرت على آثار دوبريك...**

وأيضًا، قراءة تليغراف نشرته صحف أميان، تليغراف يعلن اعتقالَ الماركيز دألبوفكس المتورط في قضية القناة.

دوبريك ينتقم.

ولكن إذا كان دوبريك قادرًا على الانتقام، فهذا يعني أن الماركيز لم يتمكن من منع هذا الانتقام بأخذ الوثيقة التي كانت على طاولة المكتب. وهذا يعني أن الوكلاء والمفتش الرئيسي بلانشون، الذين عينهم براسفيل في الفندق في ساحة لامارتين، كانوا يراقبون المكان بعناية. باختصار، هذا يعني أن السدادة الكريستال كانت لا تزال هناك. كانت لا تزال هناك، وهذا يعني إما أن دوبريك لم يجرؤ على العودة إلى منزله، وإما أن حالته الصحية منعته من ذلك، أو أنه كان واثقًا بما فيه الكفاية من مخبئه لدرجة أنه لم يشعر بالحاجة إلى القلق. على أي حال، لم يكن هناك شك في الخطوة التالية: كان يجب التحرك، والتحرك بسرعة. كان يجب أن يسبقوا دوبريك وأن يستولوا على السدادة الكريستال.

بمجرد أن تجاوزوا غابة بولوني، ووصلت السيارة إلى محيط ساحة لامارتين، ودَّع لوبين الطبيب وطلب أن يتوقف. انضم إليه جرونيار ولوبالو، اللذان كان قد رتب لقاءً معهما. سألهما: «وماذا عن مدام ميرجي؟».

- لم تعد منذ الأمس. نحن علمنا عبر رسالة أنها رأت دوبريك يخرج من منزل بنات عمه ويصعد إلى سيارة. لديها رقم السيارة ويجب أن تبقينا على اطلاع على تحركاته.

- وماذا بعد ذلك؟

- لا شيء.

- لا أخبار أخرى؟

- بلى، الليلة الماضية، في زنزانته في سجن سانتيه، فتح دألبوفكس عروقه بقطعة زجاج. ويبدو أنه ترك رسالة طويلة، رسالة اعتراف واتهام في الوقت نفسه، يعترف فيها بخطئه، ولكنه يتهم دوبريك بموته ويشرح دور دوبريك في قضية القناة.

- هل هذا كل شيء؟

- لا. الصحيفة نفسها أعلنت أن لجنة العفو، بعد مراجعة الملف، رفضت على الأرجح العفو عن فوشري وجلبير، وأنه من المحتمل أن يستقبل رئيس الجمهورية محامييهما يوم الجمعة. شعر لوبين بقشعريرة.

- الأمور لا تسير ببطء. يبدو أن دوبريك قد أعطى دفعة قوية للآلة القضائية القديمة منذ اليوم الأول. أسبوع آخر، ويقترب من المقصلة. آه! يا جلبير المسكين، إذا لم يحتوِ الملف الذي سيقدمه محاميك إلى رئيس الجمهورية بعد غد على العرض غير المشروط لقائمة السبعة والعشرين، فأنت في مشكلة كبيرة.

- لنرى، لنرى، يا سيدي، هل أنت الذي يفقد الشجاعة؟

- أنا! يا له من هراء! في غضون ساعة، سأحصل على السدادة الكريستال. في غضون ساعتين، سألتقي محامي جلبير. وسينتهي الكابوس.

- عظيم يا سيدي! لقد عدت كما نعرفك. هل ننتظرك هنا؟

- لا. عودا إلى الفندق، وسألتقيكما هناك.

افترقوا. سار لوبين مباشرة نحو بوابة الفندق وقرع الجرس. فتح له أحد الوكلاء، الذي تعرف عليه: «السيد نيكول، أليس كذلك؟».

- نعم، إنه أنا، هل المفتش الرئيسي بلانشون هنا؟

- نعم، هو هنا.

- هل يمكنني التحدث معه؟

أخذوه إلى المكتب حيث استقبله المفتش الرئيسي بلانشون بحفاوة واضحة.

- السيد نيكول، لديَّ أوامر بأن أكون تحت تصرفك الكامل. وأنا سعيد جدًّا برؤيتك اليوم.

- ولماذا يا سيدي المفتش؟

- لأن هناك جديدًا.

- شيء خطير!

- تحدث بسرعة.

- دوبريك عاد.

صرخ لوبين بارتعاش: «ماذا! ماذا! دوبريك عاد؟ هل هو هنا؟».

- لا، لقد غادر.

- وهل دخل إلى هنا، إلى هذا المكتب؟

- نعم.

- متى؟

- هذا الصباح.

- ولم تمنعوه؟

- بأي حق؟

- وهل تركتموه وحده؟

- بأمره الصريح، نعم، تركناه وحده.

شعر لوبين بالشحوب يتسلل إلى وجهه. عاد دوبريك لاسترجاع السدادة الكريستال! ظل صامتًا هنيهة، وكرر في نفسه: «لقد عاد ليأخذها، لقد خشي أن نعثر عليها، وأخذها، بالطبع! كان ذلك أمرًا لا مفر منه... اعتُقل واتُّهِم دألبوفكس الذي بدوره اتهم دوبريك بموته، كان على دوبريك أن يدافع عن نفسه. الأمر صعب عليه. بعد شهور وشهور

من الغموض، بدأ الجمهور أخيرًا يدرك أن الشخص الشيطاني الذي خطط لكل دراما السبعة والعشرين والذي يشوه ويقتل، هو دوبريك. ماذا سيحدث له إذا، بمعجزة ما، لم يعد لديه تعويذه لحمايته؟ لقد استعادها».

قال بصوت حاول أن يجعله ثابتًا: «هل بقي طويلًا؟».

- ربما عشرون ثانية.

- ماذا! عشرون ثانية فقط! ليس أكثر؟

- ليس أكثر.

- في أي وقت كان ذلك؟

- العاشرة.

- هل كان يعرف حينها عن انتحار الماركيز دألبوفكس؟

- نعم. رأيت في جيبه النسخة الخاصة التي نشرها صحيفة باريس-ميدي حول هذا الموضوع.

- هذا صحيح... هذا صحيح...

ثم سأل مجددًا: «هل قدم براسفيل أي تعليمات خاصة بخصوص عودة دوبريك المحتملة؟».

- لا. لذلك، في غياب السيد براسفيل، اتصلت بالشرطة وأنتظر. إن أحدث اختفاء النائب دوبريك ضجة كبيرة، ووجودنا هنا مقبول في نظر الجمهور ما دام أن هذا الاختفاء مستمر. ولكن بما أن دوبريك قد عاد، وبما أن لدينا الدليل على أنه لم يُحتجز أو لم يمت، هل يمكننا البقاء في هذا المنزل؟

قال لوبين بتشتت: «لا يهم، لا يهم إذا كان المنزل تحت الحراسة أم لا! دوبريك جاء، إذًا السدادة الكريستال لم تعد هنا». لم يكمل هذه الجملة

حتى طرح سؤالًا منطقيًا في ذهنه. إذا لم تعد السدادة الكريستال هنا، ألا يمكن ملاحظة ذلك بوجود علامة مادية معينة؟ هل ترك إزالة هذا الشيء، الذي كان موجودًا بلا شك داخل شيء آخر، أثرًا أو فراغًا؟ كانت الملاحظة سهلة. كان الأمر ببساطة يتعلق بفحص المنضدة، لأن لوبين كان يعلم، من مزاح سيباستياني، أن هذا هو مكان المخبأ. وهذا المخبأ لا يمكن أن يكون معقدًا؛ حيث إن دوبريك لم يبقَ في مكتبه أكثر من عشرين ثانية، وهو الوقت الكافي للدخول والخروج.

نظر لوبين. وكان الأمر فوريًا. ذاكرته قد حفظت صورة الطاولة بدقة بحيث أن غياب أحد الأشياء عليها سيلفت انتباهه على الفور، كما لو أن هذا الشيء، وهذا الشيء فقط، كان العلامة المميزة التي تميز هذه الطاولة عن جميع الطاولات الأخرى. فكر، مرتعشًا من الفرح: «أوه! كل شيء كما هو... كل شيء... حتى بداية الكلمة التي كان دوبريك يهمس بها تحت التعذيب في برج مورتيبيير. لقد حُلَّ اللغز. هذه المرة، لم يعد هناك أي تردد، ولا مزيد من التجارب. نحن على وشك الوصول إلى الهدف». دون أن يجيب عن تساؤلات المفتش، كان لوبين يفكر في بساطة المخبأ، وتذكر القصة الرائعة لإدجار آلان بو حيث كانت الرسالة المسروقة، التي بُحِث عنها بشغف كبيرة، معروضة أمام أعين الجميع. لا يشك المرء في الأشياء الواضحة.

قال لوبين وهو يغادر وقد تملَّكه الانفعال بسبب ما اكتشفه: «حسنًا، حسنًا، يبدو أنه في هذه المغامرة الملعونة، سأواجه أسوأ الخيبات حتى النهاية. كل ما أبنيه ينهار على الفور. كل انتصار ينتهي بكارثة». ومع ذلك، لم يستسلم لوبين. من ناحية، كان يعرف الطريقة التي يخفي بها النائب دوبريك السدادة الكريستال. ومن ناحية أخرى، كان عليه معرفة

مكان اختباء دوبريك من كلاريس ميرجي. وبعد ذلك، لن يكون باقي الأمر سوى لعبة أطفال بالنسبة إليه.

كان جرونيار ولوبالو ينتظرانه في صالة فندق فرانكلين، وهو فندق عائلي صغير يقع بالقرب من تروكاديرو. لم تكن مدام ميرجي قد كتبت لهما بعد. قال لوبين: «لننتظر! أنا واثق بها! لن تترك دوبريك قبل أن تتأكد تمامًا».

ومع ذلك، في نهاية فترة ما بعد الظهر، بدأ يفقد صبره ويقلق. كان يخوض معركة -ربما الأخيرة، كما كان يأمل- حيث كان أي تأخير بسيط قد يفسد كل شيء. إذا تمكن دوبريك من الهروب من مراقبة مدام ميرجي، كيف سيستطيعون الإمساك به؟ لم يكن لديهم أسابيع أو أيام لإصلاح الأخطاء التي ارتكبت، بل فقط بضع ساعات، عدد قليل من الساعات المروعة للغاية. عندما رأى مدير الفندق، ناداه: «هل أنت متأكد من عدم وجود رسالة باسم أحد أصدقائي؟».

- متأكد تمامًا، سيدي.

- وباسمي، باسم السيد نيكول؟

- لا شيء أيضًا.

قال لوبين: «غريب، كنا نتوقع أخبارًا من مدام أودران (كان هذا الاسم الذي نزلت به كلاريس في الفندق). قال المدير: « لكن هذه السيدة قد جاءت...».

- ماذا تقول؟

- لقد جاءت قبل قليل، وحيث إن السيدين لم يكونا هنا، تركت رسالة في غرفتها. ألم يخبرك الخادم بذلك؟

بسرعة، صعد لوبين وأصدقاؤه إلى الغرفة. كان هناك بالفعل رسالة على الطاولة. قال لوبين: «انظر، لقد فُتِحت. كيف حدث هذا؟ ولماذا هذه العلامات بالمقص؟». كانت الرسالة تحتوي على السطور التالية:

قضى دوبريك الأسبوع في فندق سنترال. هذا الصباح أرسل حقائبه إلى محطة ------------، واتصل ليحجز مكانًا في سيارة نوم متجهة إلى ------------. لا أعرف وقت القطار. لكنني سأكون في المحطة طوال فترة ما بعد الظهر. تعالوا جميعًا في أقرب وقت ممكن. سنجهز عملية الاختطاف.

قال لوبالو: «حسنًا، ماذا الآن! إلى أي محطة؟ وإلى أي مكان يتجه قطار النوم؟ لقد قطعت المكانين بالمقص!». قال جرونيار: «نعم، صحيح، قُطِع المكانان بالمقص بدقة، الكلمات الوحيدة المهمة اختفت. يبدو أن مدام ميرجي فقدت عقلها!».

لم يتحرك لوبين. كان تدفق الدم ينبض بقوة في صدغيه لدرجة أنه ضغط قبضتيه عليهما، وضغط عليهما بكل قوته. كانت الحمى تعود إليه، مؤلمة ومزعجة، وكانت إرادته، التي زادها الإحباط إلى حد الألم، تتقلص بسبب هذه العدو الغادر الذي كان عليه القضاء عليها فورًا، وإلا سيتعرض لهزيمة لا رجعة فيها. همس بهدوء شديد: «دوبريك كان هنا».

- دوبريك!

- هل يمكننا أن نفترض أن مدام ميرجي قررت بنفسها إزالة هاتين الكلمتين؟ دوبريك كان هنا. كانت تعتقد أنها تراقبه، لكنه كان يراقبها.

- كيف؟

- ربما عن طريق الخادم الذي لم يخبرنا بمرور مدام ميرجي في الفندق، لكنه أخبر دوبريك. لقد جاء. قرأ الرسالة. ومن باب السخرية، اكتفى بقص الكلمات الأساسية.

- يمكننا معرفة ذلك... نسأل...

- ولماذا؟ ما الفائدة من معرفة كيف جاء إذا كنا نعلم أنه قد جاء؟

فحص لوبين الرسالة لفترة طويلة، قلَّبها من جميع الجهات، ثم نهض وقال: «لنغادر».

- لكن إلى أين؟

- إلى محطة ليون.

- هل أنت متأكد؟

- مع دوبريك، أنا لست متأكدًا من أي شيء. ولكن بما أن لدينا خيارًا، وفقًا لمحتوى الرسالة، بين محطة الشرق ومحطة ليون، أفترض أن أعماله، وملذاته، وصحته تقوده نحو مارسيليا وكوت دازور أكثر من شرق فرنسا. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً عندما غادر لوبين ورفاقه فندق فرانكلين. انطلقت سيارة بسرعة كبيرة عبر باريس. ولكنهم تمكنوا في غضون دقائق من التأكد من أن كلاريس ميرجي لم تكن خارج المحطة، ولا في صالات الانتظار، ولا على الأرصفة.

تمتم لوبين، الذي زاد اضطرابه مع العوائق: «مع ذلك، مع ذلك، إذا كان دوبريك قد حجز مكانًا في عربة النوم، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا في قطار ليلي. والساعة ليست سوى السابعة والنصف!». كان قطار على وشك المغادرة، القطار السريع الليلي. كان لديهم الوقت للركض عبر الممرات. لكنهم لم يجدوا أحدًا... لا مدام ميرجي، ولا

دوبريك. لكن عندما كانوا يغادرون جميعًا، اقترب منهم أحد الحمَّالين أمام صالة الطعام وقال: «هل هناك من يُدعى السيد لوبالو؟». قال لوبين بسرعة: «نعم، نعم، أنا... ماذا تريد؟».

- آه! أنت، سيدي! قالت لي السيدة إنه معها ثلاثة أشخاص... ربما اثنين... ولم أكن متأكدًا...

- ولكن بحق السماء، تكلم! أي سيدة؟

- سيدة قضت اليوم كله على الرصيف، بجانب الحقائب، تنتظر...

- ثم ماذا؟... تكلم! هل ركبت القطار؟

- نعم، القطار الفاخر، في الساعة السادسة والنصف، في اللحظة الأخيرة، قررت، وقالت لي أن أخبركم... وقالت لي أن أخبركم أيضًا أن السيد كان في هذا القطار، وأنهم متوجهون إلى مونت كارلو.

تمتم لوبين: «آه، بحق الله! كان علينا أن نأخذ القطار السريع منذ لحظات! الآن لم يتبقَّ إلا القطارات الليلية. وهذه بطيئة! سنفقد أكثر من ثلاث ساعات».

الوقت بدا لهم لا ينتهي. حجزوا مقاعدهم. اتصلوا بمدير فندق فرانكلين ليعيد إرسال بريدهم إلى مونت كارلو. تناولوا العشاء. قرؤوا الصحف. وأخيرًا، عند الساعة التاسعة والنصف انطلق القطار. وهكذا، وبسبب مجموعة من الظروف المأساوية حقًا، في اللحظة الأكثر خطورة في المعركة، كان لوبين يدير ظهره لساحة المعركة، ويتجه نحو مغامرة مجهولة، بحثًا عن عدو لم يكن يعرف أين يجده، ولم يكن يعرف كيف يهزمه، العدو الأكثر رعبًا والأكثر صعوبة في الإمساك به من بين كل الأعداء الذين واجههم.

وكل ذلك يحدث قبل أربعة أيام، أو خمسة على الأكثر، من الإعدام الحتمي لجلبير وفوشيراي. تلك الليلة كانت صعبة ومؤلمة بالنسبة إلى لوبين. فكلما فكر في الوضع، كلما ظهر له أكثر رعبًا. كان عدم اليقين، الظلام، الارتباك، والعجز يحيطون به من كل جانب.

كان يعرف سر السدادة الكريستال جيدًا. لكن كيف يعرف ما إذا كان دوبريك لن يغير أو لم يغير بالفعل خطته؟ كيف يعرف ما إذا كانت قائمة السبعة والعشرين لا تزال موجودة داخل السدادة الكريستال، وما إذا كانت السدادة الكريستال لا تزال موجودة داخل الشيء الذي أخفاها دوبريك فيه أولًا؟ وكان هناك مصدر آخر للقلق، وهو أن كلاريس ميرجي كانت تعتقد أنها تتبع وتراقب دوبريك، في حين كان دوبريك هو الذي يراقبها ويجعلها تتبعه، ويدفعها، بمهارة شيطانية، إلى الأمكنة التي اختارها بنفسه، بعيدًا عن أي مساعدة، وأي أمل في المساعدة.

آه! كانت خطة دوبريك واضحة! ألم يكن لوبين يعرف ترددات تلك المرأة البائسة؟ ألم يكن يعرف -وقد أكد له جرونيار ولوبالو ذلك بأوضح الطرق- أن كلاريس كانت تعتبر الصفقة البغيضة التي اقترحها دوبريك ممكنة ومقبولة؟ في هذه الحالة، كيف يمكن أن ينجح هو؟ كانت منطق الأحداث، التي أحدثها دوبريك بهذه الطريقة القوية، تؤدي إلى النهاية الحتمية: يجب على الأم أن تضحي، ومن أجل إنقاذ ابنها، يجب عليها أن تضحي بمبادئها، ورفضها، وحتى شرفها. صرخ لوبين بغضب شديد: «آه! يا لك من وغد! إذا أمسكت بك، سوف ألقنك درسًا لن تنساه! حقًّا، لا أود أن أكون في مكانك في ذلك اليوم».

وصلوا عند الساعة الثالثة بعد الظهر. على الفور شعر لوبين بخيبة أمل عندما لم يجد كلاريس على رصيف المحطة في مونت كارلو. انتظر، لكن لم يقترب منه أي رسول. استجوب عمال المحطة والمراقبين؛ لم

يلاحظوا أي مسافرين يتطابق وصفهم مع دوبريك وكلاريس. لذلك كان عليهم البدء في البحث، والتفتيش في الفنادق والمنازل الفندقية في الإمارة. يا له من وقت ضائع! في مساء اليوم التالي، كان لوبين يعلم بلا شك أن دوبريك وكلاريس لم يكونا في مونت كارلو، ولا في موناكو، ولا في كاب داي، ولا في لا توربي، ولا في كاب مارتن. قال بغضب: «إذًا؟ وماذا الآن؟».

أخيرًا، يوم السبت، في مكتب البريد، استلموا تليغرافًا أرسلته من مدير فندق فرانكلين، وكانت تبلغهم فيه:

لقد نزل في مدينة كان، وغادر إلى سان ريمو، فندق-بالاس السفراء. كلاريس.

كان التليغراف يحمل تاريخ اليوم السابق. صاح لوبين: «يا إلهي! لقد مروا عبر مونت كارلو. كان يجب أن يبقى أحدنا في المحطة! لقد فكرت في ذلك. لكن وسط كل هذا الفوضى...». قفز لوبين وأصدقاؤه إلى أول قطار متجه إلى إيطاليا. عند الظهر، عبروا الحدود. في الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة، وصلوا إلى محطة سان ريمو. على الفور، لاحظوا بوابًا يحمل قبعة مكتوبًا عليها: **فندق السفراء**، ويبدو أنه يبحث عن شخص ما بين الوافدين. اقترب منه لوبين: «هل تبحث عن السيد لوبالو، أليس كذلك؟».

- نعم... السيد لوبالو واثنين من السادة...

- من طرف سيدة، أليس كذلك؟

- نعم، مدام ميرجي.

- هل هي في فندقكم؟

- لا. لم تنزل من القطار. لكنها أشارت لي أن آتي، وأعطتني وصف هؤلاء الثلاثة السادة، وقالت لي: ‹أخبرهم أن الوجهة التالية هي جنوة... فندق كونتيننتال›».

- هل كانت وحدها؟

- نعم.

ترك لوبين الرجل بعد أن كافأه، ثم التفت إلى أصدقائه قائلًا: «اليوم هو السبت. إذا نُفِّذ الإعدام يوم الاثنين، فلا يمكننا فعل شيء. لكن من غير المحتمل أن يكون يوم الاثنين، لذا يجب أن أمسك بدوبريك هذه الليلة، وأن أكون في باريس يوم الاثنين مع الوثيقة. إنها فرصتنا الأخيرة. لنجربها». توجَّه جرونيار إلى الشباك واشترى ثلاث تذاكر إلى جنوة. كان القطار يطلق صافراته.

تردد لوبين للحظة أخيرة: «لا، حقًّا، هذا سخيف جدًّا! ماذا! ماذا نفعل! يجب أن نكون في باريس! لنفكر... لنفكر...». كان على وشك فتح باب القطار والقفز على القضبان... لكن رفاقه أمسكوا به. انطلق القطار. جلس مرة أخرى.

واستمروا في مطاردتهم المجنونة، يتجهون بلا هدف، نحو المجهول...

وكان ذلك يحدث قبل يومين فقط من الإعدام الحتمي لجلبير وفوشيراي.

الفصل العاشر

جافٌّ جدًّا

على إحدى التلال التي تحيط بمدينة نيس، في أروع موقع يمكن تصوره، بين وادي مانتيجا ووادي سان سيلفستر، يرتفع فندق ضخم يطل على المدينة والخليج الرائع للبحر. هناك، يزدحم عالم من الناس، جاؤوا من كل حدب وصوب، ويشكلون مزيجًا من جميع الطبقات وجميع الأمم. في مساء السبت نفسه، بينما كان لوبين، وجرونيار، ولوبالو يتوغلون في إيطاليا، دخلت كلاريس ميرجي هذا الفندق، طلبت غرفة تطل على الجنوب، واختارت رقم 130 في الطابق الثاني، التي كانت شاغرة منذ الصباح.

كانت هذه الغرفة مفصولة عن الغرفة رقم 129 بباب مزدوج. بمجرد أن أصبحت وحدها، أبعدت كلاريس الستارة التي كانت تخفي النصف الأول من الباب، وأغلقت المزلاج بصمت، ثم وضعت أذنها على النصف

الثاني من الباب. فكرت وقالت: «**إنه** هنا... **إنه** يرتدي ملابسه للذهاب إلى النادي، كما فعل بالأمس».

عندما خرج جارها، انتقلت إلى الممر، واستغلت لحظة كان فيها الممر خاليًا، واقتربت من باب الغرفة رقم 129. كان الباب مغلقًا بالمفتاح. انتظرت طوال المساء عودة الجار، ولم تذهب للنوم إلا في الساعة الثانية صباحًا. وفي صباح الأحد، بدأت مجددًا في الاستماع. في الساعة الحادية عشرة، غادر الجار. هذه المرة، ترك المفتاح في الباب من جهة الممر. بسرعة، أدارت كلاريس المفتاح، ودخلت الغرفة بحزم، واتجهت نحو باب التواصل، ثم رفعت الستارة وفتحت المزلاج، ووجدت نفسها في غرفتها. بعد بضع دقائق، سمعت صوت خادمتين تقومان بتنظيف غرفة الجار. انتظرت حتى غادرتا. وعندما تأكدت من أنها لن تتعرض لأي إزعاج، تسللت مجددًا إلى الغرفة الأخرى.

أجبرها الانفعال على الاتكاء على كرسي. بعد أيامٍ وليالٍ من المطاردة الشرسة، بعد مزيج من الأمل والقلق، تمكنت أخيرًا من دخول غرفة يقيم فيها دوبريك. كانت الآن قادرة على البحث بتأنٍّ، وإذا لم تجد السدادة الكريستال، فبإمكانها على الأقل، وهي مختبئة بين البابين المتواصلين وخلف الستارة، أن تراقب دوبريك، تتبع حركاته، وتكشف سره. بدأت في البحث. لفت انتباهها حقيبة سفر نجحت في فتحها، لكنها لم تجد شيئًا ذي قيمة. قلَّبت الأدراج في خزانة الملابس والجيوب في حقيبة السفر. فتشت الخزانة، المكتب، الحمام، خزانة الملابس، كل الطاولات وجميع الأثاث. لا شيء. ارتعشت عندما رأت على الشرفة قطعة ورق مرمية هناك بشكل عشوائي. فكرت كلاريس: «هل يمكن أن يكون هذا الورق، بحيلة من دوبريك، يحتوي على...؟».

قال صوت من خلفها، في اللحظة التي كانت تضع يدها على مزلاج النافذة: «لا». عندما استدارت، رأت دوبريك. لم تشعر بالدهشة أو الخوف أو حتى الحرج من مواجهته. لقد كانت تعاني كثيرًا خلال الأشهر الماضية بحيث لم تعد تهتم بما قد يظنه دوبريك عنها أو ما قد يقوله عندما يراها متلبسة بالتجسس. جلست وهي تشعر بالإنهاك. ضحك ساخرًا وقال: «لا، لقد أخطأتِ، يا صديقتي العزيزة. آه! الأمر بسيط جدًّا! هل يجب أن أساعدك؟ إلى جانبكِ، يا صديقتي العزيزة، على هذه الطاولة الصغيرة، حقًّا، ليس هناك الكثير على هذه الطاولة، شيء للقراءة، شيء للكتابة، شيء للتدخين، شيء للأكل، وهذا كل شيء. هل تريدين بعض الفاكهة المحفوظة؟ ربما تحفظين شهيتكِ للوجبة الشهية التي طلبتها؟».

لم تُجب كلاريس. بدا أنها لا تستمع حتى لما كان يقوله، كما لو كانت تنتظر الكلمات الأخرى، الأكثر جدية، التي لا بد أن يقولها. أزال دوبريك كل الأشياء من على الطاولة ووضعها على المدفأة. ثم قرع الجرس. جاء خادم. قال له دوبريك: «هل وجبة الغداء التي طلبتها جاهزة؟».

- نعم، سيدي.

- هناك وجبتان، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي.

- وهل هناك شمبانيا؟

- نعم، سيدي.

- من النوع الجاف جدًّا[1]؟

(1) يُستخدم مصطلح «Extra-dry» لوصف النبيذ، ويشير إلى أن النبيذ الذي يحتوي على نسبة منخفضة جدًّا من السكر، مما يجعله أقل حلاوة وأقرب إلى الطعم الجاف. (المترجم).

- نعم، سيدي.

جاء خادم آخر يحمل صينية ووضعها على الطاولة، وكانت تحتوي على غطاءين ووجبة غداء باردة وفواكه وزجاجة شمبانيا في دلو من الثلج. ثم غادر الخادمان. قال دوبريك: «على المائدة، سيدتي العزيزة. كما ترين، لقد فكرت فيكِ، وكانت وجبتك جاهزة». ثم جلس وبدأ في تناول الطعام، مستمرًا في الحديث دون أن يلاحظ أن كلاريس لم تبد أي رغبة في الاستجابة لدعوته.

قال: «في الحقيقة نعم، كنت آمل أن توافقي في النهاية على هذا اللقاء الخاص بيننا. منذ ما يقرب من ثمانية أيام وأنتِ تحيطينني بمراقبتكِ الدقيقة، وكنت أفكر: «لنرى... ماذا تفضلين؟ الشمبانيا الحلوة؟ الشمبانيا الجافة؟ أم الجافة جدًّا؟» حقًّا، كنت في حيرة. خاصة منذ مغادرتنا باريس. لقد فقدتُ أثركِ، أي أنني كنت أخشى أن تكوني قد فقدتِ أثري وتخليتِ عن هذه المطاردة التي كانت ممتعة لي. لقد افتقدت في نزهاتي عينيكِ الجميلتين، المتوهجتين بالكراهية تحت شعركِ الرمادي قليلًا. لكن، هذا الصباح، فهمت: الغرفة المجاورة لغرفتي أصبحت أخيرًا شاغرة، وتمكّنتِ يا صديقتي كلاريس من الاستقرار، كيف أقولها؟... بجواري. منذ ذلك الحين شعرت بالاطمئنان. عندما عدت إلى هنا، بدلًا من تناول الغداء في المطعم كالمعتاد، كنت أتوقع أن أجدكِ هنا، ترتبين أموري الصغيرة على طريقتكِ الخاصة، وبحسب ذوقكِ الفريد. ومن هنا جاء طلبي لوجبتين... واحدة لخادمك، والأخرى لصديقته الجميلة».

كانت كلاريس تستمع إليه الآن، وبأي رعب! إذًا، كان دوبريك يعلم أنه تحت المراقبة! إذن، كان يلعب بها وبكل خططها منذ ثمانية أيام! بصوت منخفض ونظرة قلقة، قالت له: «لقد فعلت ذلك عمدًا، أليس كذلك؟ أنت لم تغادر إلا لتجرني خلفك؟».

- نعم.

- ولكن لماذا، لماذا؟

قال دوبريك بضحكة صغيرة مليئة بالفرح: «تسألين لماذا، يا صديقتي العزيزة؟». نهضت كلاريس نصف نهوض من كرسيها، مائلة نحوه، وهي تفكر، كما كانت تفكر في كل مرة، في الجريمة التي يمكنها أن ترتكبها، التي ستقوم بارتكابها. طلقة واحدة من المسدس، وستنتهي هذه الوحشية. بدأت يدها تنزلق ببطء نحو السلاح المخفي في ملابسها. قال دوبريك: «لحظة واحدة، يا صديقتي العزيزة... ستطلقين النار لاحقًا، لكن من فضلك، أريدكِ أن تقرئي هذه التليغراف التي وصل إليَّ للتو».

ترددت، غير متأكدة من الفخ الذي قد ينصبه لها، لكنه أخرج ورقة زرقاء من جيبه.

- هذا يتعلق بابنك.

قالت وهي في حالة صدمة: «جلبير؟».

- نعم، جلبير... تفضلي، اقرئي.

أطلقت صرخة رعب عندما قرأت: « **تنفيذ الحكم يوم الثلاثاء**». وفي الحال، صرخت، وهي تندفع نحو دوبريك: «هذا ليس صحيحًا! إنها كذبة... لتخويفي... آه! أنا أعرفك، أنت قادر على أي شيء! لكن اعترف... ليس يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟ بعد يومين فقط! لا، لا... أقول لك إن لدينا أربعة أيام أخرى، خمسة حتى، لإنقاذه... لكن اعترف بذلك؟». لم تعد لديها أي قوة، كانت منهارة من هذه النوبة من الغضب، ولم يعد صوتها يخرج سوى بكلمات غير مفهومة.

تأملها دوبريك للحظة، ثم سكب لنفسه كأسًا من الشمبانيا وابتلعها في جرعة واحدة. بعد أن سار بضع خطوات ذهابًا وإيابًا، عاد إليها وقال: «اسمعيني، كلاريس...». أهانها هذا التحدث إليها وكأنه يتحدث إلى شخص مقرب جدًّا، فاهتزت بقوة مفاجئة. انتصبت واقفة، غاضبة، لاهثة: «أمنعك... أمنعك من التحدث إليَّ بهذه الطريقة. هذه إهانة لا أقبلها... آه! يا لك من حقير!».

رفع كتفيه واستأنف: «أرى أنكِ لم تقتنعي بعد بما يحدث. ربما لأنكِ لا تزالين تأملين في الحصول على مساعدة. براسفيل، ربما؟ هذا البراسفيل العظيم الذي تعتبريه حليفك، يا صديقتي العزيزة، الوضع سيئ بالنسبة إليكِ. تخيلي أن براسفيل متورط في قضية القناة! ليس بشكل مباشر، أي أن اسمه ليس مدرجًا في قائمة السبعة والعشرين، لكنه يظهر تحت اسم أحد أصدقائه، النائب السابق فورنغلاد، ستانيسلاس فورنغلاد، الرجل الذي كان يعمل لصالحه، والذي يبدو أنه كان مجرد واجهة له، رجل بائس لم أكن أزعجه، ولسبب وجيه. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا، ثم فجأة تلقيت رسالة هذا الصباح تخبرني بوجود حزمة من الوثائق التي تثبت تورط براسفيل! ومن أخبرني بذلك؟ فورنغلاد نفسه! فورنغلاد، الذي تعب من حياته البائسة، يريد ابتزاز براسفيل، حتى لو كان ذلك يعني أنه سيُعتقل أيضًا، وهو لا يطلب سوى التعاون معي. وبراسفيل سيسقط! آه! إنها ضربة رائعة، وأقسم لكِ إنه سيسقط، هذا الوغد! بحق السماء! لقد أزعجني لفترة طويلة! آه! براسفيل، أيها العجوز، لن تُفلِت منها».

كان يفرك يديه، سعيدًا بهذه الانتقام الجديد الذي يلوح في الأفق. ثم استأنف قائلًا: «كما ترين، يا كلاريس العزيزة، من هذا الجانب، لا شيء يمكن فعله. إذًا، ماذا بعد؟ ما القشة التي ستتعلقين بها؟ لكنني

نسيت! السيد أرسين لوبين! السيد جرونيار! السيد لوبالو!... أوه! لا يمكنكِ إنكار أن هؤلاء السادة لم يبدعوا، وأن كل مهاراتهم لم تمنعني من متابعة طريقي. ماذا تريدين؟ هؤلاء الناس يعتقدون أنهم لا مثيل لهم. عندما يواجهون خصمًا لا يبالغ في تقديرهم، مثلي، يصابون بالارتباك، ويرتكبون الأخطاء تلو الأخطاء، بينما يعتقدون أنهم يخدعونني بطريقة رائعة. إنهم مثل طلاب المدارس الثانوية! ومع ذلك، بما أنكِ لا تزالين تحملين بعض الأوهام حول هذا اللوبين المزعوم، وبما أنكِ تعتمدين على هذا الشخص المسكين لسحقي وإحداث معجزة لإنقاذ جلبير البريء، فلنحطم هذه الأوهام. آه! لوبين! يا إلهي! إنها تؤمن بلوبين! إنها تضع آخر آمالها في لوبين! لوبين! انتظر لحظة حتى أكشف لكِ الحقيقة، الوهم العظيم!».

أمسك بسماعة الهاتف التي كانت موصولة بمكتب الاستقبال الرئيسي للفندق، وقال: «من غرفة 129، من فضلكِ. أود أن ترسلي الشخص الذي يجلس مقابل مكتبكِ... مرحبًا؟... نعم، سيدتي، رجل يرتدي قبعة رمادية، إنه يعرف، شكرًا لكِ، سيدتي». وبعد أن وضع السماعة، استدار نحو كلاريس وقال: «لا تقلقي. هذا الرجل شخص موثوق للغاية. كما أن الشعار الذي يعتمده هو: «السرعة والسرية». كان وكيلًا سابقًا في جهاز الأمن، وقد قدَّم لي بالفعل العديد من الخدمات، من بينها مراقبتك في أثناء مراقبتك لي. ومنذ وصولنا إلى الجنوب، كان مشغولًا بأمور أخرى، لذا لم يتابعكِ كما كان يفعل من قبل. ادخل، يا جاكوب».

فتح الباب بنفسه، ودخل رجل نحيل، قصير، ذو شارب أحمر قال له: «يا جاكوب، كن لطيفًا وأخبر السيدة، باختصار، بما فعلته منذ مساء الأربعاء، اليوم الذي تركت فيه السيدة تصعد في محطة ليون إلى القطار الفاخر الذي كان ينقلني إلى الجنوب، بينما بقيت أنت على رصيف

المحطة نفسه. بالطبع، لا أطلب منك إلا تفاصيل تخص السيدة والمهمة التي كلفتك بها».

أدخل السيد جاكوب يديه في جيب سترته الداخلية وأخرج مفكرة صغيرة، وبدأ في تصفحها، ثم قرأ، بنبرة تقرير رسمي، الصفحات التالية: «**مساء الأربعاء. الساعة السابعة والربع. محطة جار دو ليون. أنتظر السادة جرونيار ولو بالو. يصلون مع شخصية ثالثة لا أعرفها بعد، لكنها لا بد أن تكون السيد نيكول. مقابل عشرة فرنكات، استعرت سترة وقبعة عامل من فريق العمل. قابلت هؤلاء السادة وقلت لهم إنني من طرف سيدة و«إننا ذاهبون إلى مونت كارلو». ثم اتصلت بخادم فندق فرانكلين. جميع البرقيات المرسلة إلى رئيسه والمعادة من قبله سيقرأها الخادم المذكور، وإذا لزم الأمر، سيعترضها.**

الخميس. مونت كارلو. هؤلاء السادة الثلاثة يفتشون الفنادق. الجمعة. رحلات سريعة إلى لا توربي، كاب دآيل، وكاب مارتن. السيد دوبريك يتصل بي. يرى أنه من دواعي الحذر إرسال هؤلاء السادة إلى إيطاليا. لذا، أرسلت إليهم تليغرافًا من خادم فندق فرانكلين، حددت لهم موعدًا في سانريمو.

السبت، في سانريمو، رصيف المحطة. مقابل عشرة فرنكات، استعرت قبعة بواب فندق أمباسادور-بالاس. وصول هؤلاء السادة الثلاثة. تقابلنا. أخبرتهم من طرف سيدة مسافرة، السيدة ميرجي، بأننا ذاهبون إلى جنوة، فندق كونتيننتال. تردد هؤلاء السادة، السيد نيكول يريد النزول. أقنعه بالبقاء. ينطلق القطار. حظًا موفقًا، أيها السادة. بعد ساعة، أخذت قطارًا للعودة إلى فرنسا وتوقفت في نيس، حيث أنتظر تعليمات جديدة».

أغلق السيد جاكوب مفكرته وقال: «هذا كل شيء. اليوم سأُدون شيئًا واحدًا فقط مساءً».

- يمكنك تدوينها الآن، يا سيد جاكوب. عند **الظهيرة**، أرسلني السيد دوبريك إلى شركة السكك الحديدية الفاخرة. حجزت لنا مقعدين في قطار النوم المتجه إلى باريس الساعة الثانية وثماني وأربعين دقيقة، وأرسلت التذاكر إلى السيد دوبريك بواسطة رسول خاص. ثم استقللت قطار الساعة الثانية عشرة وثماني وخمسين دقيقة إلى فينتيميليا، محطة الحدود حيث قضيت اليوم في مراقبة جميع المسافرين الداخلين إلى فرنسا. إذا خطرت للسادة نيكول، جرونيار، ولوبالو فكرة مغادرة إيطاليا، والعودة عبر نيس إلى باريس، فقد تلقيت أوامر بإرسال تليغراف إلى مقر الشرطة لإبلاغهم بأن السيد أرسين لوبين واثنين من مساعديه في القطار رقم X.

بينما كان دوبريك يتحدث، قاد السيد جاكوب إلى الباب. أغلقه خلفه، وأدار المفتاح، وأغلق المزلاج، ثم اقترب من كلاريس وقال: «الآن، **اسمعيني** يا كلاريس...». لم تعترض هذه المرة على مخاطبته هكذا. ماذا يمكنها أن تفعل ضد عدو كهذا، عدو قوي وذكي، قادر على توقع أدق التفاصيل، ويلعب بأعدائه بمثل هذه السهولة؟ إذا كانت قد استطاعت أن تأمل في تدخل لوبين، فهل يمكنها أن تأمل الآن وهو يتجول في إيطاليا وراء أشباح؟ أخيرًا فهمت لماذا لم تتلقَّ أي إجابة على البرقيات الثلاث التي أرسلتها إلى فندق فرانكلين. كان دوبريك هناك، في الظل، يراقب، ويعزلها عن رفاقها في النضال، ويقودها ببطء، أسيرة ومهزومة، بين جدران هذه الغرفة الأربعة. شعرت بضعفها. كانت تحت رحمة الوحش. كان عليها أن تصمت وتستسلم. كرر دوبريك بابتسامة

خبيثة: «اسمعيني، كلاريس. اسمعي الكلمات الحاسمة التي سأقولها الآن. اسمعيها جيدًا. الساعة الآن الثانية عشرة. وسينطلق **آخر قطار** في الساعة الثانية وثماني وأربعين دقيقة، هل تسمعين؟ آخر قطار يمكنني أن آخذه إلى باريس غدًا الاثنين، في الوقت المناسب لإنقاذ ابنك. القطارات الفاخرة ملآنة. لذا يجب أن أرحل في الساعة الثانية وثماني وأربعين دقيقة... هل يجب أن أرحل؟».

- نعم.

- حجزت مقاعدنا في قطار النوم. هل سترافقينني؟

- نعم.

- أنتِ تعرفين شروط تدخلي؟

- نعم!

- هل تقبلين بها؟

- نعم.

- ستكونين زوجتي؟

- نعم.

آه! هذه الإجابات المرعبة! أجابتها في حالة من الخمول الرهيب، رافضة حتى أن تفهم ما كانت تلتزم به. كان كل ما يهمها هو أن يغادر، أن يبعد الآلة القاتلة عن جلبير والتي كانت تلاحقها في كل لحظة... ثم، بعد ذلك، ليحدث ما يحدث...

ضحك بصوتٍ عالٍ: «آه! يا لكِ من خبيثة، تقولينها بسهولة... أنتِ مستعدة للوعد بأي شيء، أليس كذلك؟ الأهم هو إنقاذ جلبير، أليس كذلك؟ وبعد ذلك، عندما يقدم دوبريك الخاتم للخطبة، ستضحكين عليه. كفى، كفى من الكلام الفارغ. لا أحد يفي بالعهود... أريد الحقائق،

الحقائق الفورية». وبوضوح، جالسًا بالقرب منها، نطق: «أما أنا، فإليك ما أقترحه، ما يجب أن يكون... ما سيكون... سأطلب، أو بالأحرى، سأطالب، ليس بعد بالعفو عن جلبير، بل بتأجيل، تأجيل التنفيذ، تأجيل لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع. سنختلق أي عذر، هذا لا يعنيني. وعندما تصبح مدام ميرجي مدام دوبريك، حينها فقط سأطالب بالعفو، أي تبديل الحكم. وكوني واثقة، سيمنحونني ذلك». تلعثمت: «أوافق... أوافق...».

ضحك مرة أخرى: «نعم، توافقين، لأن ذلك سيحدث بعد شهر، ومن الآن وحتى ذلك الوقت، تعتقدين أنكِ ستجدين حيلة ما، أو مساعدة من أي نوع... السيد أرسين لوبين...».

- أقسم لك بحياة ابني...

- حياة ابنك!... ولكن، يا صغيرتي المسكينة، ستفعلين أي شيء لكيلا يسقط...

همست مرتجفة: «آه! نعم، سأبيع روحي وأنا راضية!». اقترب منها، وقال بصوت منخفض: «كلاريس، أنا لا أطلب روحك... منذ أكثر من عشرين عامًا، كانت حياتي كلها تدور حول هذا الحب. أنتِ المرأة الوحيدة التي أحببتها... اكرهيني... احتقريني... لا يهمني... ولكن لا ترفضيني... الانتظار؟ الانتظار شهرًا آخر؟ لا، كلاريس، لقد انتظرت لسنوات طويلة جدًّا...». تجرأ على لمس يدها. فأبدت كلاريس حركة اشمئزاز جعلته يستشيط غضبًا ويصرخ: «آه! أقسم بالله، أيتها الجميلة، إن الجلاد لن يكون لطيفًا عندما يمسك بابنك... وأنتِ تماطلين! ولكن فكري، هذا سيحدث في خلال أربعين ساعة! أربعين ساعة، لا أكثر. وأنتِ تترددين... ولديكِ شكوك، عندما يتعلق الأمر بابنك! كفى من هذا الهراء، لا مزيد من العواطف الغبية... انظري إلى الأمور كما هي. بناءً

على قسمك، أنتِ زوجتي، أنتِ خطيبتي، من الآن... كلاريس، كلاريس، أعطِني شفتيك...».

كانت بالكاد تدفعه بعيدًا، بذراع ممدودة، لكنها كانت منهارة. وبتعبير عن طبيعته البغيضة، واصل دوبريك، مختلطًا بين الكلمات القاسية وكلمات الشغف: «أنقذي ابنك... فكري في الصباح الأخير، في الزي الجنائزي، في القميص الذي يُشق، في الشعر الذي يُقص... كلاريس، كلاريس، سأُنقذه... كوني واثقة... حياتي كلها ستكون لكِ... كلاريس».

لم تعد تقاوم. لقد انتهى الأمر. كانت شفاه الرجل البغيض تقترب من شفتيها، وكان لا بد أن يحدث ذلك، ولا شيء يمكن أن يمنعه. كان عليها أن تطيع أوامره. كانت تعرف ذلك منذ فترة طويلة. لقد فهمت، وفي داخلها، وهي تغمض عينيها لتجنب رؤية الوجه البشع الذي كان يرتفع نحوها، كانت تكرر: «ابني... ابني المسكين...».

مرت بضع ثوانٍ، عشر، ربما عشرين. لم يعد دوبريك يتحرك. لم يعد دوبريك يتكلم. وبدأت تتساءل عن هذا الصمت الكبير وهذا الهدوء المفاجئ. هل شعر الوحش بالندم في اللحظة الأخيرة؟ رفعت كلاريس جفنيها. كان المشهد الذي ظهر أمامها صادمًا للغاية. بدلًا من الوجه المشوه الذي كانت تتوقع أن تراه، وجدت وجهًا جامدًا، غير معروف، مشوهًا بتعبير عن رعب شديد، وعينين، لم تكن مرئية تحت الحاجز المزدوج للنظارات، تبدوان وكأنهما تنظران إلى شيء أعلى منها، أعلى من الكرسي الذي كانت جالسة عليه.

استدارت كلاريس. كان هناك مسدسان موجهان نحو دوبريك، يظهران من الجانب الأيمن قليلًا فوق الكرسي. لم تَرَ سوى هذا، هذين المسدسين الضخمين والمخيفين، اللذين كانا ممسوكين بقبضتين

مشدودتين. لم تَرَ سوى هذا، ووجه دوبريك الذي أصبح شاحبًا شيئًا فشيئًا، حتى أصبح لونه شاحبًا تمامًا. وفي الوقت نفسه تقريبًا، ظهر شخصٌ من خلفه، الذي اندفع فجأة، وألقى بذراعه حول عنقه، وأسقطه بعنف لا يصدق، ووضع قناعًا من القطن والقماش على وجهه. انبعثت رائحة مفاجئة من الكلوروفورم.

تعرفت كلاريس على السيد نيكول. صرخ: «إليَّ، يا جرونيار! إليَّ، يا لوبالو! ألقيا مسدساتكما! أمسكته! لم يعد سوى قطعة بالية... قيداه!». في الواقع، كان دوبريك يتهاوى ويسقط على ركبتيه مثل دمية متحطمة. تحت تأثير الكلوروفورم، انهار الوحش القوي، المؤذي والسخيف. لفَّه جرونيار ولوبالو دوبريك في أحد أغطية السرير وربطاه بإحكام. صرخ لوبين وهو يقفز واقفًا: «لقد نجحنا! لقد نجحنا!».

وبموجة مفاجئة من الفرح، بدأ يرقص رقصة جيج «gigue[1]» بشكل فوضوي في وسط الغرفة، رقصة جيج تحتوي على رقص الكانكان والتواءات رقصة الماتشيتش، ودورانات درويش دوار، وألعاب بهلوانية لمهرج، وزجزاجات سكير. وبصوتٍ عالٍ، كما لو كان يقدِّم فقرات موسيقية في قاعة عروض، قال: «رقصة السجين... فوضى الأسير... خيال على جثة ممثل الشعب!... بولكا الكلوروفورم!... بوسطن مضاعف للنظارات المهزومة!... أوليه! أوليه! فاندانغو المبتز!... ثم رقصة الدب!... ثم التيرولين!... لايتو، لايتو، لا، لا!... هيا، يا أبناء الوطن!... زيم، بوم بوم، زيم بوم بوم...».

(1) الجيج (Gigue) هو نوع من أنواع الرقص التقليدي الأوروبي، يعود أصله إلى بريطانيا العظمى وأيرلندا، وانتشر في بقية أوروبا في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. يتميز هذا الرقص بإيقاع سريع وحيوي. (المترجم)

كل طبيعته المرحة، كل غرائزه الاحتفالية، التي قُمِعت لفترة طويلة بسبب القلق والهزائم المتتالية، كل ذلك انفجر فجأة في نوبات من الضحك، وفي اندفاعات من الحيوية، وفي حاجة مفرطة إلى الابتهاج والفوضى الطفولية. قفز آخر قفزة في الهواء، ودار حول الغرفة وهو يؤدي الحركة الأخيرة، وأخيرًا وقف مستقيمًا، قبضتيه على وركيه، وقدمه على جسد دوبريك الجامد. أعلن: «مشهد رمزي! ملاك الفضيلة يسحق وحش الرذيلة!». وكان المشهد أكثر كوميدية لأن لوبين ظهر بشخصية السيد نيكول، مع قناعه وملابسه الضيقة والمزعجة.

ظهرت على وجه مدام ميرجي ابتسامة حزينة، هي أول ابتسامة لها منذ شهور عديدة. ولكن سرعان ما استعادت وعيها بالواقع، وطلبت منه: «أرجوك... فلنفكر في جلبير». اندفع نحوها، وأمسكها بذراعيه، وبحركة عفوية وبريئة جعلتها تضحك، طبع على خديها قبلة قوية. قال: «هاكِ يا سيدتي، هذه قبلة من رجل شريف. بدلًا من دوبريك، أنا الذي أُقبلك... كلمة أخرى وسأفعلها مجددًا، وسأبدأ في مناداتك بـ«أنتِ»... اغضبي إن شئتِ... آه! كم أنا سعيد!».

ثم ركع على ركبتيه أمامها، وقال باحترام: «أعتذر، سيدتي. الأزمة انتهت». ثم نهض مجددًا، واستمر في الحديث بنبرة ساخرة، بينما كانت كلاريس تتساءل عما يريد الوصول إليه: «ماذا تطلب السيدة؟ ربما عفو عن ابنها؟ موافق! سيدتي، يشرفني أن أمنحكِ عفوًا عن ابنك، وتحويل عقوبته إلى السجن المؤبد، وكنهاية لهذه القصة، هروبه الوشيك. هذا متفق عليه، أليس كذلك يا جرونيار؟ متفق يا لوبالو؟ آه! يا دوبريك المحترم، نحن مدينون لك بخدمة عظيمة! وهذه ليست مكافأة سيئة. ولكن اعترف أنك كنت تأخذ الأمور بسهولة أكثر من اللازم. كيف تجرؤ على تشبيه السيد لوبين بتلميذٍ في مدرسة، أو شخص بائس، بينما هو

يستمع إليك عند بابك! هل ترى؟ يبدو أن هذه الدمية لم تناور بشكل سيئ، وأنت الآن في وضع لا تحسد عليه، أيها الممثل الشعبي... لا، ولكن ما هذا الوجه! ماذا؟ ماذا تطلب؟ قطعة حلوى فيشي[1]؟ لا؟ ربما آخر غليون؟ هاك، هاك!».

أخذ غليونًا من على المدفأة، انحنى نحو الأسير، أبعد قناعه، وأدخل طرف الأنبوب في فمه. قال: «استنشق، يا عزيزي، استنشق. حقًا، ما هذا الوجه الغريب الذي لديك، مع هذا القناع على أنفك وهذا الأنبوب في فمك. هيا، استنشق، بحق السماء! ولكن نسيت أن أملأ الأنبوب بالتبغ! أين تبغك؟ تبغك المفضل، الماري لاند؟... آه! ها هو...».

أخذ حزمة صفراء غير مفتوحة من المدفأة، ومزق الشريط. قال: «تبغ السيد! انتبهوا! هذه لحظة مهمة. ملء أنبوب السيد، يا لها من سعادة! شاهدوا حركاتي جيدًا! لا شيء في اليدين، لا شيء في الجيوب...»».

فتح الحزمة، وبمساعدة إبهامه وسبابته، وببطء وهدوء، مثل ساحر يعرض أمام جمهور منبهر، وبابتسامة على شفتيه، ومرفقيه منحنيين، وأكمامه مرفوعة، أكمل حيلته، وأخرج من بين أوراق التبغ شيئًا لامعًا وقدمه للمشاهدين. صرخت كلاريس: «إنها السدادة الكريستال!». اندفعت نحو لوبين وانتزعتها منه.

(1) «Une pastille de Vichy» هي نوع من الحلوى الفرنسية التقليدية، وهي عبارة عن حلوى صغيرة دائرية تحتوي على أملاح معدنية. تُصنَع في مدينة فيشي (Vichy) بفرنسا، وتشتهر بطعمها المنعش بفضل احتوائها على مياه الينابيع المعدنية في المنطقة. تتوفر هذه الحلوى بنكهات مثل النعناع، الليمون، والبرتقال، وتعتبر رمزًا تقليديًا للمدينة. كانت تُستخدم في الأصل كعلاج طبيعي لاضطرابات الجهاز الهضمي بسبب فوائدها الصحية المحتملة المرتبطة بمحتواها المعدني. (المترجم)

قالت بحماس شديد: «هذه هي! هذه هي. هذه لا تحتوي على أي خدش على الساق! ثم، انظر، هذا الخط الذي يقسمها إلى نصفين... هذا هو، إنه ينفك... آه! يا إلهي، لم أعد أملك القوة...».

كانت ترتجف بشدة لدرجة أن لوبين أخذ السدادة منها وفكَّها بنفسه. كان داخل الرأس مجوفًا، وفي هذا التجويف، كان هناك قطعة من الورق ملفوفة على شكل كرة صغيرة. قال بهدوء، وهو يشعر بالتأثر أيضًا ويداه ترتعشان: «إنه ورق حريري...».

ساد صمت كبير. شعر الأربعة جميعًا بقلوبهم تكاد تنفجر، وكانوا يخشون ما سيحدث. تمتمت كلاريس: «أرجوك... أرجوك...». فرد لوبين الورقة. كانت هناك أسماء مكتوبة، واحدًا تلو الآخر. كان هناك سبعة وعشرون اسمًا، الأسماء السبعة والعشرون في القائمة الشهيرة. لانجيرو، ديشومونت، فورنغلاد، دألبوفكس، ليباخ، فيكتوارن ميرجي، إلخ. وتحتها، توقيع رئيس مجلس إدارة قناة بنما الفرنسية، التوقيع أحمر بلون الدم...

تحقق لوبين من ساعته. قال: «إنها الساعة الواحدة إلا ربع، لدينا عشرون دقيقة... دعونا نأكل». قالت كلاريس، التي بدأت تشعر بالذعر مجددًا: «لكن، لا تنسوا...». قال بهدوء: «أنا أموت من الجوع».

جلس أمام الطاولة الصغيرة، قطع شريحة كبيرة من المعجنات وقال لأصدقائه: «جرونيار؟ لوبالو؟ تناولا الطعام؟». قالا: «لا بأس، لا بأس». قال: «إذًا، أسرعا يا أصدقاء. وبالنسبة إلى الشامبانيا، إنها على حساب المُخَدِّر. في صحتك يا دوبريك. شامبانيا حلوة؟ شامبانيا جافة؟ جافة جدًّا؟».

الفصل الحادي عشر

صليب لورين

بشكل مفاجئ تقريبًا، ودون أي انتقال، استعاد لوبين كل سيطرته وسلطته عندما انتهت الوجبة. لم يعد الوقت مناسبًا للمزاح، ولم يعد يمكنه الاستسلام لحاجته إلى إبهار الناس بعروضه المفاجئة وخدعه السحرية. بما أنه قد اكتشف السدادة الكريستال في المكان الذي توقعه تمامًا، وبما أنه يمتلك قائمة السبعة والعشرين، فقد حان الوقت الآن لإنهاء اللعبة دون تأخير.

كانت الأمور المتبقية بسيطة، ولم تكن تشكل أي صعوبة. لكن كان من الضروري أن تُنفذ هذه الخطوات النهائية بسرعة، وبدقة، وبتبصر لا يُخطئ. كان لوبين يعلم أن أي خطأ بسيط سيكون غير قابل للإصلاح، ولكن ذهنه، المتقد بشكل غريب، قد استعرض جميع الاحتمالات. وما تبقى له الآن هو تنفيذ تلك الخطوات المدروسة بعناية. قال لوبين: «جرونيار، هناك عامل توصيل ينتظر في بوليفارد غامبيتا مع العربة

والصندوق الذي اشتريناه. اذهب وأحضره هنا واترك الصندوق في غرفة كلاريس. إذا سألك أحد في الفندق، قل إنه للسيدة التي تقيم في الغرفة 130». ثم توَّجه إلى رفيقه الآخر: «لوبالو، عُد إلى الجراج وأحضِر الليموزين. اتفقنا على السعر. عشرة آلاف فرنك. اشترِ قبعة ومعطف سائق، وأحضر السيارة إلى الباب». سأله لوبالو: «والمال، يا زعيم؟». أخذ لوبين محفظة كانت قد أُخذت من سترة دوبريك ووجد بها مجموعة كبيرة من الأوراق النقدية. عدَّ منها عشرة آلاف فرنك وقال: «ها هي عشرة آلاف فرنك. يبدو أن صديقنا ربح مبلغًا كبيرًا في النادي. اذهب يا لوبالو».

غادر الرجلان عبر غرفة كلاريس. استغل لوبين لحظة لم تكن كلاريس ميرجي تنظر فيها نحوه ليضع المحفظة في جيبه، وكان ذلك بارتياح عميق. فكر في نفسه: «لن تكون الصفقة سيئة. سأغطي كل النفقات، وسأحصل على مكسب كبير، وهذه ليست النهاية». ثم قال لكلاريس: «هل لديكِ حقيبة سفر؟».

- نعم، حقيبة اشتريتها عند وصولي إلى نيس، وبعضِ الملابس وأدوات الزينة، حيث غادرت باريس على عجل.

- جهزي كل هذا. ثم انزلي إلى المكتب. قولي إنكِ تنتظرين وصول الصندوق، وإنكِ بحاجة إلى تفكيكه وإعادة ترتيبه في غرفتك. ثم أعلني عن رحيلك.

بقي لوبين وحده في الغرفة، وتفحص دوبريك بعناية، ثم بحث في جميع جيوبه، وأخذ كل ما بدا له ذا أهمية. عاد جرونيار أولًا. وُضِع الصندوق، وهو صندوق كبير مصنوع من الخيزران ومغطى بجلد المولسكين الأسود، في غرفة كلاريس. بمساعدة كلاريس وجرونيار، نقل لوبين دوبريك ووضعه في الصندوق، جالسًا بشكل جيد، مع انحناء

رأسه بحيث يمكن إغلاق الغطاء. قال لوبين: «لن أقول إن هذا مريح مثل سرير النوم في القطار، أيها النائب العزيز. لكنه أفضل من تابوت. على الأقل هناك هواء للتنفس. ثلاثة ثقوب صغيرة على كل جانب. اشكرني على هذا!». ثم فتح زجاجة صغيرة وقال: «قليل من الكلوروفورم مجددًا؟ يبدو أنك تعشقه...». أعاد تشبيع القناع بالكلوروفورم، بينما قامت كلاريس وجرونيار، بناءً على أوامره، بتثبيت دوبريك بملابس، وأغطية سفر، ووسائد كانت قد وضعت في الصندوق بعناية. قال لوبين: «ممتاز. هذا صندوق يمكنه السفر حول العالم. دعونا نغلقه ونربطه».

وصل لوبالو مرتديًا زي السائق. قال: «السيارة في الأسفل يا سيدي». قال لوبين: «جيد. أنزِلا الصندوق معًا. سيكون من الخطر تركه لعمال الفندق». سأل لوبالو: «ولكن إذا قابلنا أحدهم؟». قال لوبين: «ما الأمر يا لوبالو، ألا تعرف كيف تلعب دور السائق؟ تحمل صندوق سيدتك الموجودة هنا، السيدة التي تقيم في الغرفة 130، التي ستنزل أيضًا، وتستقل سيارتها... وستنتظرني على بعد مئتي متر. جرونيار، ساعده في التحميل. وقبل ذلك، دعنا نغلق باب التواصل».

انتقل لوبين إلى الغرفة الأخرى، أغلق النصف الآخر من الباب، وضع المزلاج، ثم خرج واستقل المصعد. في المكتب، أبلغ الموظف: «السيد دوبريك اضطر إلى الذهاب إلى مونت كارلو بشكل عاجل. أوكل إليَّ إخباركم بأنه لن يعود إلا بعد غد. يرجى الاحتفاظ بغرفته، فجميع متعلقاته هنا. وهذا هو المفتاح». غادر لوبين بهدوء وانضم إلى السيارة، حيث وجد كلاريس تشكو وتقول: «لكننا لن نصل إلى باريس غدًا صباحًا، هذا جنون، أقل عطل...». قال لوبين: «لذلك، ستستقلين القطار معي... إنه أكثر أمانًا...».

أركبها في عربة، ثم أعطى تعليماته الأخيرة للرجلين. قال: «خمسون كيلومترًا في الساعة في المتوسط، صحيح؟ ستقودون وتستريحون بالتناوب. بهذه الطريقة، يمكنكم الوصول إلى باريس مساء غدٍ الاثنين قرابة الساعة السادسة أو السابعة. لكن لا تضغطوا على السرعة. إذا احتفظت بدوبريك، فهذا ليس لأني بحاجة إليه لمخططاتي، بل كرهينة، وللاحتياط... أريد أن أبقيه قريبًا مني لبضعة أيام. لذا، اعتنوا به، هذا الرجل العزيز... بعض قطرات الكلوروفورم كل ثلاث أو أربع ساعات. إنه شغفه. انطلق يا لوبالو... وأنت يا دوبريك، لا تقلق كثيرًا هناك. السقف متين... إذا شعرت بالغثيان، لا تتردد، انطلق يا لوبالو!».

نظر إلى السيارة وهي تبتعد، ثم طلب من السائق أن يقوده إلى مكتب البريد حيث كتب تليغرافًا على هذا النحو:

السيد براسفيل، مقر الشرطة. باريس.

استعادة الشخص المطلوب. سأحضر الوثيقة غدًا صباحًا في الساعة الحادية عشرة. تواصل عاجل. كلاريس.

في الساعة الثانية والنصف، وصلت كلاريس ولوبين إلى المحطة. قالت كلاريس، وهي قلقة: «آمل أن نجد مقاعد!». أجاب لوبين: «مقاعد؟ لكن لدينا حجوزات في مقصورات النوم».

- من حجزها؟

- جاكوب... دوبريك.

- كيف؟

- في مكتب الفندق، أعطوني رسالة وصلت لتوها إلى دوبريك. كانت تحتوي على حجوزات مقصورات النوم التي أرسلها إليه جاكوب. بالإضافة إلى ذلك، لديَّ بطاقة هويته كعضو في البرلمان. لذلك

سنسافر باسم السيد والسيدة دوبريك، وسنحظى بكل الاحترام الواجب لمكانتنا. ترين يا سيدتي العزيزة، كل شيء مدروس.

بدت الرحلة، هذه المرة، قصيرة للوبين. بعد أن استفسر منها، روت له كلاريس كل ما فعلته خلال الأيام القليلة الماضية. بدوره، شرح لها لوبين المعجزة التي حدثت عندما اقتحم غرفة دوبريك في اللحظة التي كان خصمه يعتقد فيها أنه لا يزال في إيطاليا.

قال لوبين: «لم تكن معجزة، ولكن حدث لي شيء غريب عندما غادرت سان ريمو متجهًا إلى جنوة. شعرت بشيء يشبه الحدس الغامض، مما دفعني في البداية إلى محاولة القفز من القطار –لكن لوبالو منعني– ثم اندفعت نحو النافذة، وخفضت الزجاج، وبدأت أراقب الحمَّال من فندق أمباسادور-بالاس الذي نقل إليَّ رسالتك. في تلك اللحظة، كان ذلك الحمَّال يفرك يديه بنظرة مُرضية جدًّا، وفجأة، دون سبب واضح، فهمت كل شيء: لقد خُدِعت، كما كنتِ قد خدعتِ أنتِ أيضًا من دوبريك. بدأت تتداعى في ذهني الكثير من الوقائع الصغيرة. ظهر لي مخطط خصمي بالكامل. لم يكن هناك سوى دقيقة واحدة تفصلني عن الكارثة التي كانت ستكون غير قابلة للإصلاح. شعرت ببعض اللحظات من اليأس الحقيقي، لفكرة أنني لن أتمكن من تصحيح كل الأخطاء التي ارتكبتها. كان كل شيء يعتمد على جدول مواعيد القطارات، وما إذا كنت سأستطيع العثور على رسول دوبريك في محطة سان ريمو. هذه المرة، كان الحظ في صالحنا. لم ننزل في المحطة الأولى حتى مرَّ قطار آخر، متجه إلى فرنسا. عندما وصلنا إلى سان ريمو، كان الرجل هناك. لقد خمنت بشكل صحيح. لم يكن يرتدي قبعة الحمَّال ولا معطفه الطويل، بل كان يرتدي قبعة وسترة عادية. صعد إلى مقصورة من الدرجة الثانية. ومنذ تلك اللحظة، لم يكن هناك شك في النصر.

سألت كلاريس، التي كانت لا تزال تفكر في تلك اللحظة: «ولكن... كيف؟». أجاب لوبين: «كيف عدت إلى حيث كنتِ؟ بكل بساطة، لم أترك السيد جاكوب وشأنه، بينما تركته حرًّا في تصرفاته، لأنني كنت متأكدًا من أنه سيبلغ دوبريك بمهمته. وفي صباح اليوم التالي، بعد ليلة قضيتها في فندق صغير في نيس، التقى دوبريك جاكوب على كورنيش بروميناد ديزانغليه. تحدثا لفترة طويلة. تبعتهما. عاد دوبريك إلى فندقه، وأجلس جاكوب في أحد ممرات الطابق الأرضي، أمام مكتب الهاتف، ثم صعد بالمصعد. بعد عشر دقائق، كنت أعرف رقم غرفته، وكنت أعلم أن سيدة كانت تقيم في الغرفة المجاورة، الغرفة رقم 130، منذ اليوم السابق».

قلت لجرونيار ولوبالو: «لقد وصلنا. طرقت باب غرفتك بخفة. لم يكن هناك رد. وكان الباب مغلقًا بالمفتاح». سألت كلاريس: «وماذا حدث؟». أجاب لوبين: «حسنًا، فتحنا الباب. هل تعتقدين أنه لا يوجد في العالم سوى مفتاح واحد يمكنه فتح قفل؟ دخلت غرفتك. لم يكن هناك أحد. لكن باب التواصل كان مواربًا. تسللت من خلاله. ومنذ تلك اللحظة، كان يفصلني عنك وعن دوبريك... وعن حزمة التبغ التي رأيتها على الرخام في المدفأة مجرد ستارة».

- إذًا، كنت تعرف عن مكان الاختباء؟

- كانت عملية تفتيش في مكتب دوبريك في باريس قد أظهرت اختفاء تلك الحزمة من التبغ. بالإضافة إلى ذلك...

- بالإضافة إلى ذلك؟

- كنت أعرف، بفضل بعض الاعترافات التي انتُزعت من دوبريك في برج العاشقَيْن، أن كلمة «ماري» كانت تحمل مفتاح اللغز. لكن هذه لم تكن سوى بداية كلمة أخرى، كنت قد خمَّنتها تقريبًا في اللحظة التي أدركت فيها غياب حزمة التبغ.

– ما الكلمة؟

– ماريلاند... تبغ ماريلاند، النوع الوحيد الذي يدخنه دوبريك.

بدأ لوبين بالضحك: «هل ترين كم هو غبي؟ وفي الوقت نفسه، كم هو ذكاء من جانب دوبريك! نبحث في كل مكان، نفتش في كل مكان! ألم أفكك المصابيح الكهربائية للتحقق مما إذا كانت تحتوي على السدادة الكريستال! لكن من كان سيفكر في تمزيق شريط حزمة ماريلاند، **الشريط الملصق، المختوم، المؤرخ** من الدولة، تحت رقابة مصلحة الضرائب؟ فكر في ذلك! الدولة متواطئة في مثل هذا العمل المشين! مصلحة الضرائب متورطة بشكل غير مباشر في مثل هذه المناورات؟ لا! ألف مرة لا! الدولة قد تكون لديها عيوب، قد تصنع أعواد ثقاب لا تشتعل، وسجائر تحتوي على فروع شجرة عيد الميلاد. لكن أن نتخيل أنها متورطة مع دوبريك في إخفاء قائمة السبعة والعشرين عن الحكومة أو عن خطط أرسين لوبين، فهذا غير معقول! ومع ذلك، كان كل ما يتطلبه الأمر هو الضغط قليلًا على الشريط، كما فعل دوبريك، لجعله أكثر مرونة، وإزالته، وفتح الورقة الصفراء، وإبعاد التبغ، ثم إعادة كل شيء إلى مكانه».

ثم قال لوبين: «وهكذا، ترك هذا الشيطان دوبريك تلك الحزمة من التبغ ملقاة على طاولته لعدة أشهر، بين أنابيب الغليون وغيرها من حزم التبغ غير الممزقة. ولم تكن هناك أي قوة في العالم يمكن أن تثير في أي عقل فكرة البحث في هذا المكعب الصغير غير المؤذي. سأشير أيضًا إلى...». استمر لوبين في الحديث لفترة طويلة عن حزمة ماريلاند والسدادة الكريستال، حيث كان اهتمامه يزداد كلما تذكر كيفية تفوقه على خصمه. لكن كلاريس، التي كانت هذه الأمور تهمها أقل بكثير من

إنقاذ ابنها، بالكاد كانت تستمع، حيث كانت مشغولة بأفكارها. كانت تكرر مرارًا: «هل أنت متأكد؟ هل ستنجح؟». أجاب لوبين: «مؤكد تمامًا».

– لكن براسفيل ليس في باريس.

– إذا لم يكن هناك، فهو في لوهافر. قرأت ذلك في صحيفة أمس. على أي حال، رسالة التليغراف التي أرسلتها ستعيده إلى باريس فورًا.

– وهل تعتقد أن لديه النفوذ الكافي؟

– للحصول على عفو شخصي لفوشيراي وجلبير؟ لا. وإلا، لكنا قد استفدنا منه بالفعل. لكنه سيكون ذكيًا بما يكفي لفهم قيمة ما نقدمه له... وسيتحرك دون تأخير دقيقة واحدة.

– لكن، هل أنت متأكد من قيمة هذا الشيء؟

– هل كان دوبريك مخطئًا في تقدير قيمته؟ ألم يكن دوبريك هو الأفضل معرفة بقوة هذا الورق؟ ألم يكن لديه عشرات الأدلة القاطعة؟ فكر في كل ما فعله، لمجرد أنه كان معروفًا أنه يمتلك القائمة؟ الجميع كان يعرف ذلك، هذا كل شيء. لم يستخدم القائمة، لكنه كان يمتلكها. وبفضل امتلاكها، قتل زوجك. بنى ثروته على خراب وعار **السبعة والعشرين**. حتى أمس، أحد أكثرهم شجاعة، دألبوفكس، قطع حنجرته في سجنه. لا، لا تقلقي، مقابل تسليم هذه القائمة، يمكننا أن نطلب ما نشاء. ولكن، ماذا نطلب؟ لا شيء تقريبًا... أقل من لا شيء... العفو عن طفل في العشرين من عمره. بعبارة أخرى، سيظنون أننا حمقى. كيف! نحن نمتلك...

توقف عن الكلام. كانت كلاريس، منهكة من كثرة المشاعر، قد غفت أمامه. عند الساعة الثامنة صباحًا، وصلا إلى باريس. كان هناك

تليغرافان ينتظران لوبين في منزله في ساحة كليشي. كان أحدهما من لوبالو، مرسلًا من أفينيون في اليوم السابق، يخبره أن كل شيء يسير على ما يرام، وأنهم يتوقعون الوصول في الوقت المحدد في المساء. أما التليغراف الآخر فكان من براسفيل، مؤرخ من لوهافر، وموجهة إلى كلاريس:

من المستحيل العودة صباح الغد الاثنين. تعالي إلى مكتبي الساعة الخامسة. أعتمد كليًّا عليكِ.

قالت كلاريس: «الساعة الخامسة، كم هو وقت متأخر!». أجاب لوبين بثقة: «إنها ساعة ممتازة». لكن كلاريس لم تكن مقتنعة وقالت: «ولكن إذا...».

– إذا كان التنفيذ سيحدث صباح الغد؟ هذا ما تريدين قوله؟... لا تخافي من الكلمات، لأن التنفيذ لن يحدث.

– الصحف...

– لا تقرئي، وأمنعك من قراءتها. كل ما يمكنهم إعلانه لا يعني شيئًا. الشيء الوحيد المهم هو لقاؤنا مع براسفيل. بالمناسبة...

سحب لوبين زجاجة صغيرة من خزانة، ووضع يده على كتف كلاريس وقال: «تمددي على هذه الأريكة، واشربي بضع جرعات من هذه الجرعة». سألت كلاريس: «ما هذا؟». أجاب لوبين: «شيء يجعلك تنامين لبضع ساعات... وتنسين. هذا أقل ما يمكن فعله». احتجت كلاريس قائلة: «لا، لا أريد ذلك. جلبير لا ينام... إنه لا ينسى». لكن لوبين أصر بلطف: «اشربي».

استسلمت كلاريس فجأة، ربما بدافع الجبن أو بسبب الألم المفرط، واستلقت على الأريكة وأغلقت عينيها. وبعد بضع دقائق، كانت نائمة. نادى لوبين خادمه: «الصحف... بسرعة... هل اشتريتها؟». أجاب

الخادم: «ها هي، يا سيدي». فتح لوبين إحدى الصحف ورأى على الفور هذه السطور: «**رجال أرسين لوبين**

نعلم من مصدر مؤكد أن جلبير وفوشيراي، سيُعدمان صباح غدٍ الثلاثاء. السيد ديبلر زار موقع تنفيذ الأحكام. كل شيء جاهز».

رفع لوبين رأسه بتعبير من التحدي. قال: «رجال أرسين لوبين! إعدام رجال أرسين لوبين! يا له من مشهد رائع! وكم سيكون الحشد كبيرًا لمشاهدة ذلك! آسف، أيها السادة، لكن الستار لن يُرفع. أُجِّل العرض بناءً على أمر أعلى من السلطة. والسلطة هي أنا!». ثم ضرب صدره بقوة بفخر قائلًا: «السلطة هي أنا». في منتصف النهار، تلقى لوبين تليغرافًا من لوبالو من ليون، يقول:

كل شيء يسير على ما يرام. سيصل الطرد دون أضرار.

عند الساعة الثالثة، استيقظت كلاريس. كانت أول كلماتها: «هل هو للغد؟». لم يجبها لوبين، لكنها رأت في هدوئه وابتسامته ما جعلها تشعر بسلام عميق، وكأن كل شيء قد انتهى، وحُلَّت المشكلة وفقًا لإرادة رفيقها.

عند الساعة الرابعة وعشر دقائق، غادرا. أدخلهما سكرتير براسفيل إلى المكتب، حيث طُلب منهما الانتظار. كانت الساعة الخامسة إلا ربع. وعند الساعة الخامسة تمامًا، دخل براسفيل بسرعة وقال على الفور: «هل لديك القائمة؟». أجاب لوبين: «نعم». قال براسفيل وهو يمد يده: «أعطني إياها».

نهضت كلاريس، لكنها لم تتحرك. نظر براسفيل إليها للحظة، تردد، ثم جلس. كان يدرك. كانت كلاريس ميرجي، في ملاحقتها لدوبريك، لا تتحرك فقط بدافع الكراهية والرغبة في الانتقام. كان هناك دافع آخر. لن تُسلَّم الورقة إلا بشروط معينة.

قال براسفيل وهو يشير إلى الكرسي: «اجلسي، من فضلك». وبذلك أظهر أنه قبل الحوار. كان براسفيل رجلًا نحيفًا بوجه عظمي، وكانت تعابير وجهه، بسبب الوميض الدائم في عينيه والتشوه الطفيف في فمه، تعطي انطباعًا بالزيف والقلق. لم يكن محبوبًا في المكتب، حيث كان على الجميع إصلاح أخطائه باستمرار. لكنه كان من هؤلاء الأشخاص غير المحبوبين الذين يُستخدمون للمهام الخاصة ثم يُستغنى عنهم بارتياح.

استعادت كلاريس مقعدها. وعندما لم تتكلم، قال براسفيل: «تكلمي، عزيزتي، وتكلمي بصراحة. ليس لديَّ أي حرج في الاعتراف بأننا نرغب في الحصول على تلك الورقة». قالت كلاريس، التي كان لوبين قد دربها على دورها حتى في أدق التفاصيل: «إذا كان الأمر مجرد رغبة، فأخشى أننا لن نتمكن من الاتفاق». ابتسم براسفيل وقال: «بالطبع، هذه الرغبة ستقودنا إلى بعض التضحيات».

صححت كلاريس ببرود: «إلى كل التضحيات». قال براسفيل: «كل التضحيات، ما دمنا نبقى ضمن حدود الرغبات المقبولة». قالت كلاريس بنبرة حازمة: «حتى لو خرجنا عن تلك الحدود».

بدأ براسفيل يفقد صبره وقال: «حسنًا، لنرى، ما الذي نتحدث عنه؟ وضحي الأمور».

– اعذرني، عزيزي. كنت أرغب في أن أوضح الأهمية الكبيرة التي تضعونها لهذه الورقة، وفي ضوء الصفقة الفورية التي سنعقدها، أردت أن أوضح... كيف أقول ذلك؟... قيمة ما أقدمه. هذه القيمة، التي لا حدود لها، يجب أن تُقابل بقيمة غير محدودة.

قال براسفيل، وهو يكبح غضبه بصعوبة: «مفهوم، هل انتهينا؟». قالت كلاريس: «اعذرني، لكن يجب أن نكون واضحين تمامًا. هناك

نقطة أخرى يجب أن نوضحها. هل أنت في وضع يسمح لك بالتفاوض شخصيًّا؟». سأل براسفيل متعجبًا: «ماذا تقصدين؟». قالت كلاريس: «أنا لا أسألك عما إذا كنت تمتلك السلطة لحل هذه المسألة فورًا، لكنني أسألك إذا كنت تمثل أمامي آراء من يعرفون المسألة ويملكون الصلاحية لحلها». أكد براسفيل بقوة: «نعم».

قالت كلاريس: «إذًا، بعد ساعة من تقديمي لشروطي، هل يمكنني الحصول على ردك؟».

- نعم.

- وهذا الرد سيكون من الحكومة؟

- نعم.

مالت كلاريس إلى الأمام، وقالت بصوت منخفض: «وهذا الرد سيكون من قصر الإليزيه؟». بدا براسفيل مندهشًا. فكر للحظة، ثم قال: «نعم».

أخيرًا، قالت كلاريس: «كل ما أطلبه الآن هو وعد بشرفك أنك، مهما بدت لك شروطي غير مفهومة، لن تطلب مني شرح السبب. إنها كما هي. يجب أن يكون ردك إما نعم وإما لا».

قال براسفيل بوضوح: «أعطيكِ وعدًا بشرفي».

شعرت كلاريس بلحظة من التأثر جعلتها تبدو أكثر شحوبًا مما كانت عليه. لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وحدَّقت إلى عيني براسفيل وقالت: «ستأخذ قائمة السبعة والعشرين مقابل العفو عن جلبير وفوشيراي».

- ماذا؟ ماذا تقولين؟

وقف براسفيل، وقد بدا عليه الذهول التام: «العفو عن جلبير وفوشيراي! شركاء أرسين لوبين!».

- نعم.
- القتلة في فيلا ماري-تيريز... اللذان من المقرر أن يُعدما غدًا!
- نعم، هما بالضبط. أطلب، وأصر على العفو عنهما.
- لكن هذا جنون! لماذا؟ لماذا؟
- أذكرك، براسفيل، أنك قد أعطيتني كلمتك...
- نعم... نعم... بالفعل... لكن الأمر غير متوقع تمامًا.
- لماذا؟
- لماذا؟ لأسباب عديدة...
- ما هي؟
- فكر، فكر! جلبير وفوشيراي قد حُكم عليهما بالإعدام!
- سوف يرسلان إلى السجن، هذا كل شيء.
- مستحيل! القضية أثارت ضجة كبيرة. إنهما شركاء أرسين لوبين. الحكم معروف للعالم كله.
- إذًا؟
- إذًا، لا يمكننا، لا يمكننا التمرد على قرارات العدالة.
- لا نطلب منك ذلك. نحن نطلب تغيير الحكم عن طريق العفو. العفو شيء قانوني.
- لجنة العفو قد اتخذت قرارها...
- حسنًا، لكن لا يزال هناك رئيس الجمهورية.
- لقد رفض.
- يجب أن يغير رأيه.
- مستحيل!

- لماذا؟

- لا يوجد مبرر.

- ليس هناك حاجة إلى مبرر. حق العفو مطلق. يُمارس دون مراقبة، دون سبب، دون مبرر، دون تفسير. إنه امتياز ملكي. يستخدم رئيس الجمهورية هذا الحق حسب ما يمليه عليه ضميره لمصلحة الدولة.

- لكن الوقت متأخر جدًا! كل شيء جاهز. التنفيذ يجب أن يحدث خلال بضع ساعات.

- قلت إن ساعة واحدة كافية للحصول على الرد، كما قلت لنا للتو.

- لكن هذا جنون، اللعنة! متطلباتك تصطدم بعقبات لا يمكن التغلب عليها. أكرر لك، هذا مستحيل، مستحيل.

- إذًا، الجواب هو لا؟

- لا، لا، ألف مرة لا!

- في هذه الحالة، لم يعد لدينا سوى المغادرة.

أشارت كلاريس بحركة نحو الباب، وتبعها السيد نيكول. بقفزة واحدة، منعهم براسفيل من الخروج.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟

- حسنًا، عزيزي، يبدو لي أن حديثنا قد انتهى. بما أنك ترى، بما أنك متأكد من أن رئيس الجمهورية سيرى أن هذه القائمة الشهيرة للسبعة والعشرين لا تستحق...

- ابقيا هنا.

أغلق الباب بالمفتاح وبدأ يمشي ذهابًا وإيابًا، ويداه خلف ظهره، ورأسه منحنٍ. وبدأ لوبين، الذي لم ينطق بكلمة طوال المشهد بأكمله

وكان، بحذر، يلعب دورًا متراجعًا، يفكر: «يا لها من تعقيدات! يا لها من أساليب للوصول إلى النتيجة الحتمية! كيف يمكن للسيد براسفيل، الذي ليس نسرًا، ولكنه ليس غبيًّا أيضًا، أن يتخلى عن الانتقام من عدوه اللدود؟ انظر، ماذا كنت أقول! فكرة إلقاء دوبريك في الهاوية تجعله يبتسم. حسنًا، المعركة حُسِمت».

في تلك اللحظة، فتح براسفيل بابًا صغيرًا داخليًّا يؤدي إلى مكتب سكرتيره الخاص. أمر بصوتٍ عالٍ: «سيد لارتيغ، اتصل بالإليزيه وقل لهم إنني أطلب مقابلة عاجلة لأمر بالغ الأهمية».

بعد إغلاق الباب، عاد إلى كلاريس وقال: «على أي حال، تدخلي يقتصر على تقديم اقتراحك».

– اقتراحي مقبول، سيقبلون به.

ساد صمت طويل. كانت فرحة كلاريس واضحة جدًّا لدرجة أن براسفيل لاحظها، ونظر إليها بفضول مركز. ما السبب الغامض الذي يجعل كلاريس تصر على إنقاذ جلبير وفوشيراي؟ ما العلاقة الغامضة التي تربطها بهذين الرجلين؟ أي دراما قد مزجت بين حيواتهم الثلاث، وربما أيضًا، مع حياة دوبريك؟

فكر لوبين: «ابحث كما تشاء، لن تجد الإجابة. آه، لو أننا طلبنا فقط العفو لجلبير، كما أرادت كلاريس، ربما كنت ستكتشف السر. لكن فوشيراي، ذلك الوحش فوشيراي، حقًّا، لا يمكن أن يكون هناك أي علاقة بين السيدة ميرجي وبينه... آه! آه! الآن حان دوري... إنه يراقبني... المونولوج الداخلي يركض حولي... لا بد أنه يقول الآن ومن هو هذا السيد نيكول، هذا المدرس الصغير من الريف، ماذا يمكن أن يكون؟ لماذا كرَّس نفسه بالكامل لخدمة كلاريس ميرجي؟ ما هي الشخصية الحقيقية لهذا الدخيل؟ لقد كنت مخطئًا بعدم التحقيق... سأضطر إلى

اكتشاف ذلك... إلى إزالة قناع هذا الرجل... لأن، في النهاية، ليس من الطبيعي أن يبذل هذا الجهد الكبير لإنجاز عمل لا علاقة له به مباشرة. لماذا يريد هو أيضًا إنقاذ جلبير وفوشيراي؟ لماذا؟».

أدار لوبين رأسه قليلًا: «أوه لا! فكرة تمر عبر هذا الجمجمة الوظيفية... فكرة غامضة لا يُعبَّر عنها... اللعنة! لا ينبغي له أن يكتشف السيد لوبين تحت هوية السيد نيكول. يكفي من التعقيدات...».

لكن حدث تدخل. جاء سكرتير براسفيل ليعلن أن المقابلة ستتم خلال ساعة. قال براسفيل: «جيد. أشكرك، دعنا الآن».

ثم استأنف المحادثة، دون مزيد من التحفظات، كرجل يريد أن تسير الأمور بسرعة، وقال: «أعتقد أنه يمكننا التوصل إلى اتفاق. ولكن أولًا وقبل كل شيء، ولكي أتمكن من أداء المهمة التي توليت مسؤوليتها بشكل جيد، أحتاج إلى معلومات أكثر دقة، ووثائق أكثر تفصيلًا. أين كانت الورقة؟». أجابت السيدة ميرجي: «في السدادة الكريستال، كما كنا نعتقد».

- وأين كانت السدادة الكريستال؟

- كانت داخل شيء ما، جاء دوبريك ليأخذه منذ بضعة أيام من على طاولة مكتبه في منزله بساحة لامارتين، شيء استعدته أنا منه أمس، الأحد.

- وما هو هذا الشيء؟

- إنه ليس سوى علبة تبغ، تبغ ماريلاند الذي كان ملقى على تلك الطاولة.

بدا براسفيل مصعوقًا. همهم بسذاجة: «آه! لو كنت أعلم! لقد لمست هذه العلبة من تبغ ماريلاند عشر مرات. يا له من غباء!».

- لا يهم! الأهم هو أننا اكتشفنا الأمر.

أبدى براسفيل تعبيرًا يدل على أنه كان سيكون أكثر سعادة لو أنه هو من اكتشفها. ثم سأل: «إذًا، هل لديك القائمة؟».

- نعم.

- هنا؟

- نعم.

- أرني إياها.

ولما ترددت كلاريس، قال لها:

- أوه! أرجوكِ، لا تخافي. هذه القائمة ملك لكِ، وسأعيدها لكِ. لكن يجب أن تفهمي أنه لا يمكنني القيام بالخطوة المطلوبة دون تأكد.

تشاورت كلاريس مع السيد نيكول بنظرة التقطها براسفيل، ثم قالت: «ها هي».

أمسك بالورقة بيد مرتعشة، وتفحصها، وقال على الفور تقريبًا: «نعم... نعم... إنها كتابة أمين الصندوق... أتعرف عليها. وتوقيع رئيس الشركة... التوقيع الأحمر... على أي حال، لديَّ أدلة أخرى... على سبيل المثال، الجزء الممزق الذي كان يكمل الزاوية اليسرى العلوية من هذه الورقة». فتح خزانته، وأخرج قطعة صغيرة من الورق من صندوق خاص، وقربها من الزاوية اليسرى العلوية: «ها هي، الزاويتان الممزقتان تتطابقان تمامًا. الدليل لا يقبل الجدل. ليس علينا سوى التحقق من طبيعة هذه الورقة الرقيقة».

كانت كلاريس تفيض فرحًا. لم يكن أحد ليصدق أنها كانت تعاني عذابًا رهيبًا طوال الأسابيع الماضية، وأنها ما زالت تنزف وتعاني. بينما كان براسفيل يتحقق من الورقة باستخدام عدسة مكبرة، ثم يقارنها

بالقطعة الصغيرة من الورق الممزق، وبعد ذلك، أعاد وضع الورقة على النافذة. ثم أخرج من الصندوق أوراقًا أخرى من ورق الكتابة، وتفحص واحدة منها ضد الضوء. قال براسفيل: «هذا يكفي. لقد اقتنعت. أرجوكِ أن تسامحيني، عزيزتي، لقد كان عملًا دقيقًا للغاية... مررت بمراحل عدة... لأني، في النهاية، كنت حذرًا... ولم يكن ذلك دون سبب...».

همست كلاريس:

- ماذا تقصد؟

- لحظة واحدة؛ قبل كل شيء، يجب أن أعطي أمرًا.

نادى سكرتيره: «اتصل فورًا بالرئاسة، من فضلك، واعتذر لهم نيابة عني، وأخبرهم أن المقابلة أصبحت غير ضرورية لأسباب سأوضحها لاحقًا». أغلق السكرتير الباب وعاد إلى مكتبه.

كانت كلاريس ولوبين واقفَيْن، مذهولَيْن، يحدقان إليه بدهشة دون أن يفهما هذا التحول المفاجئ. هل جُنَّ؟ هل كانت هذه مناورة منه؟ أم خيانة للعهد؟ هل رفض الآن أن يفي بالتزاماته بعدما حصل على القائمة؟ ناولها لكلاريس.

- يمكنك استعادتها.

- استعادتها؟...

- وإعادتها إلى دوبريك.

- إلى دوبريك؟

- إلا إذا فضَّلتِ حرقها.

- ماذا تقول؟

- أقول إنه لو كنت مكانك، لكنتُ سأحرقها.

- لماذا تقول ذلك؟ هذا هراء.

- على العكس، إنه أمر منطقي جدًّا.

- لكن لماذا؟ لماذا؟

- لماذا؟ سأشرح لك. قائمة السبعة والعشرين، ولدينا دليل لا يقبل الجدل، كُتبت على ورقة من أوراق الرسائل التي تخص رئيس شركة القناة، وهنا في هذه العلبة توجد بعض العينات منها. وكل هذه العينات تحمل علامة المصنع، وهي صليب لورين صغير يكاد لا يُرى، لكن يمكنك رؤيته إذا نظرت في الورقة ضد الضوء. الورقة التي أحضرتِها لي لا تحتوي على هذا الصليب.

شعر لوبين برعشة عصبية تهز جسده من رأسه إلى أخمص قدميه، ولم يجرؤ على النظر إلى كلاريس، إذ كان يتخيل مدى الكرب الذي تعانيه، سمعها تهمس بصوت متهدج: «هل يعني ذلك أن دوبريك قد خُدع؟».

- على الإطلاق، صاح براسفيل. أنتِ التي خُدعتِ، يا صديقتي المسكينة. دوبريك يمتلك القائمة الحقيقية، القائمة التي سرقها من الخزنة الحديدية للمحتضر.

- ولكن ماذا عن هذه؟

- هذه مزورة.

- مزورة؟

- مزورة تمامًا. إنها حيلة رائعة من دوبريك. منخدعة بالسدادة الكريستال التي كان يلوح بها أمام عينيك، لم تبحثي إلا عن هذه السدادة الكريستال التي خبأ فيها أي شيء... هذه الورقة البالية، بينما هو، بكل هدوء، احتفظ...

توقف براسفيل عن الكلام. تقدمت كلاريس بخطوات صغيرة، متصلبة، مثل آلة. وقالت بصوت متقطع: «إذًا؟».

- إذًا، ماذا، يا صديقتي العزيزة؟

- ترفض؟

- بالطبع، أنا مضطر بشدة...

- ترفض القيام بهذه الخطوة؟...

- لنكن واقعيين، هل هذه الخطوة ممكنة؟ لا أستطيع أن أتحرك بناءً على وثيقة لا قيمة لها...

- ألا تريد؟... ألا تريد؟... وغدًا صباحًا... في غضون ساعات قليلة، جلبير...

كان وجه كلاريس شاحبًا بشكل مرعب، وكأنها تعاني من سكرات الموت. كانت عيناها مفتوحتين بشكل مبالغ فيه، وكان فكَّاها يرتعشان بشكل ملحوظ.

لوبين، خائفٌ من الكلمات غير المجدية والخطيرة التي كانت على وشك أن تنطق بها، أمسك بها من كتفيها وحاول أن يسحبها بعيدًا. لكنها دفعته بقوة لا تقاوم، ثم خطت خطوتين أو ثلاث خطوات أخرى، واهتزت كما لو كانت على وشك السقوط، وفجأة، بحركة ملآنة بالطاقة واليأس، أمسكت ببراسفيل وصاحت: «يجب أن تذهب هناك... يجب أن تذهب فورًا... يجب إنقاذ جلبير...».

- أرجوكِ، يا عزيزتي، اهدئي...

ضحكت ضحكة هستيرية: «أهدأ!... بينما جلبير، صباح الغد... آه! لا، أنا خائفة... إنه أمر مرعب... لكن اركض هناك، أيها الحقير! احصل على العفو له!... ألا تفهم؟ جلبير... جلبير... إنه ابني! ابني! ابني!».

صاح براسفيل فجأة. كان نصل سكين يلمع في يد كلاريس، وكانت ترفع ذراعها لتطعن نفسها. لكن الحركة لم تكتمل. السيد نيكول أمسك بذراعها في اللحظة الأخيرة، ونزع منها السلاح، وأوقفها عن الحركة، قائلًا بصوت قوي: «ما تفعلينه هو جنون!... لقد أقسمت لكِ إنني سأُنقذه... عيشي من أجله... لن يموت جلبير... هل يمكن أن يموت بعد أن أقسمت لكِ...»

كانت كلاريس تتأوه: «جلبير... ابني...». احتضنها بقوة، أرجعها إلى الخلف، ووضع يده على فمها: «كفى! اصمتي... أرجوكِ، اصمتي... لن يموت جلبير!». بسلطة لا تقاوم، سحبها بعيدًا كما لو كانت طفلًا مطيعًا، فجأة أصبحت مطيعة.

عند باب المكتب، التفت السيد نيكول نحو براسفيل وقال بلهجة آمرة: «انتظرني، سيد براسفيل. إذا كنت مهتمًّا بهذه بقائمة السبعة والعشرين... القائمة الحقيقية، فانتظرني. في غضون ساعة، ساعتين على الأكثر، سأكون هنا، وسنتحدث». ثم، وبحركة مفاجئة، قال لكلاريس: «وأنتِ، سيدتي، أرجوكِ بعض الشجاعة بعد. آمركِ بذلك باسم جلبير».

بخطى متقطعة، سار عبر الممرات والسلالم، ممسكًا بكلاريس تحت ذراعه كما لو كانت دمية، رفعها، وحملها تقريبًا. عبر باحة، ثم باحة أخرى، ثم الشارع...

خلال هذا الوقت، كان براسفيل، الذي كان في البداية مندهشًا، يعيد تدريجيًّا رباطة جأشه ويفكر. كان يفكر في موقف السيد نيكول، الذي بدا في البداية مجرد تابع يلعب دور المستشار الذي يلتجئ إليه الناس في أوقات الأزمات، ولكنه فجأة، ودون سابق إنذار، ظهر بكامل

وضوحه، مصممًا، مسيطرًا، مليئًا بالحماسة والجرأة، مستعدًّا لإزالة جميع العقبات التي قد يضعها القدر أمامه.

من يمكنه أن يتصرف بهذه الطريقة؟

تملكت براسفيل قشعريرة. لم يمر السؤال على ذهنه حتى فرضت الإجابة نفسها عليه بقناعة تامة. ظهرت جميع الأدلة فجأة، وكلها أكثر وضوحًا من غيرها، وكلها لا تقبل الجدل. كان هناك شيء واحد فقط يربك براسفيل. وجه السيد نيكول، مظهره، لم يكن له أي علاقة بالصور التي يعرفها براسفيل عن لوبين. كان رجلًا مختلفًا تمامًا، من حجم آخر، من بنية مختلفة، لديه شكل مختلف من الفم، تعبير مختلف للعينين، بشرة، وشعر، يختلفان تمامًا عن جميع الأوصاف المقدمة بشأن المغامر. لكن أليس براسفيل يعلم أن كل قوة لوبين تكمن في قدرته الفائقة على التنكر؟ لم يكن هناك شك. بسرعة، خرج براسفيل من مكتبه. عندما صادف ضابطًا من رجال الشرطة، قال له بعصبية: «أنت قادم للتو؟».

- نعم، سيدي الأمين العام.

- هل رأيت رجلًا وامرأة؟

- نعم، في الفناء، قبل بضع دقائق.

- هل يمكنك التعرف على هذا الرجل؟

- نعم، أعتقد ذلك.

- إذًا، لا تضيِّع لحظة... اصطحب معك ستة مفتشين. اذهب إلى ميدان كليشي. تحقق من هوية السيد نيكول وراقب المنزل. لا بد أن السيد نيكول سيعود إلى هناك.

- وإذا لم يعد، سيدي الأمين العام؟

- فلتقبض عليه. هذه هي مهمتك.

عاد براسفيل إلى مكتبه، وجلس، وعلى ورقة خاصة كتب اسمًا. نظر الضابط إلى الاسم مذهولًا وقال: «لكن السيد الأمين العام تحدث عن رجل يدعى نيكول».

- وماذا في ذلك؟

- أمر الضبط يحمل اسم أرسين لوبين.

- أرسين لوبين والسيد نيكول هما شخص واحد.

الفصل الثاني عشر

المقصلة[1]

كان لوبين يردد بلا انقطاع وهو في السيارة التي كانت تقله مع كلاريس: «سأُنقذه، سأُنقذه. أقسم إنني سأُنقذه». كلاريس لم تكن تسمعه، كانت كأنها غارقة في سُبات، وكأنها محاصرة بكابوس كبير من الموت الذي جعلها غريبة عن كل ما يجري خارجها. وكان لوبين يشرح خططه، ربما أكثر ليطمئن نفسه من أن يقنع كلاريس: «لا، لا، الأمر لم ينتهِ بعد. ما زال هناك ورقة رابحة، ورقة قوية، وهي الرسائل والوثائق التي عرضها النائب السابق فورنغلاد على دوبريك والتي حدثك عنها أمس صباحًا في نيس. سأشتري هذه الرسائل والوثائق من ستانيسلاس فورنغلاد... بالسعر الذي يريده. ثم نعود إلى المحافظة، وأقول

(1) في تلك الفترة كانت علميات الإعدام تحدث في ساحة عامة فوق منصة مرتفعة. كانت عملية الإعدام تحدث بقطع الرأس وليس بالشنق كما هي الحال الآن. كان المقصود من هذال «المشهد العام» للإعدام هو ردع الأشخاص عن ارتكاب جرائم، وإظهار سلطة الحكومة. وكان يُعد شكلًا من أشكال الترفيه. (المترجم)

لبراسفيل: «أسرع إلى الرئاسة... استخدم القائمة وكأنها حقيقية، وأنقذ جلبير من الموت، وإن اضطررتم إلى الاعتراف غدًا، بعد إنقاذ جلبير، بأن هذه القائمة زائفة... أسرعوا، وإلا... حسنًا، وإلا ستظهر رسائل ووثائق فورنغلاد صباح الغد، الثلاثاء، في صحيفة كبيرة. سيُعتقل فورنغلاد. وفي المساء نفسه سيُحبس براسفيل».

فرك لوبين يديه: «خطتي، سوف تنجح! سوف تنجح! شعرت بذلك عند مواجهة براسفيل. بدت لي المسألة مؤكدة، لا تُخطئ. وبما أنني وجدت عنوان فورنغلاد في محفظة دوبريك... أسرع، أيها السائق، إلى بولفار راسبايل!». وصلا إلى العنوان المحدد. قفز لوبين من السيارة، وصعد ثلاثة طوابق. أخبرته الخادمة أن السيد فورنغلاد غير موجود ولن يعود إلا غدًا لتناول العشاء.

- ألا تعرفين أين هو؟

- السيد في لندن.

عندما عاد إلى السيارة، لم ينطق لوبين بكلمة واحدة. ومن جانبها، لم تسأله كلاريس أي شيء، إذ إن كل شيء أصبح بلا أهمية بالنسبة إليها، حتى إن موت ابنها بدا لها وكأنه قد تحقق بالفعل.

طلبا من السائق أن يأخذهما إلى ساحة كليشي. عندما دخل لوبين منزله، مرَّ بجوار شخصين كانا يخرجان من غرفة البواب. كان مشغولًا جدًّا فلم يلاحظهما. كانا اثنين من مفتشي براسفيل اللذين كانا يحاصران المنزل. سأل لوبين خادمه: «هل وصل أي تلغراف؟». أجاب أشيلي: «لا، يا سيدي».

- لا أخبار عن لوبالو وجرونيار؟

- لا، لا شيء، يا سيدي.

قال مخاطبًا كلاريس بنبرة هادئة: «هذا طبيعي جدًا. الساعة الآن السابعة فقط، ولا يمكننا الاعتماد عليهما قبل الثامنة أو التاسعة. براسفيل سينتظر، هذا كل شيء. سأهاتفه لأطلب منه الانتظار».

بعد انتهاء المكالمة، وبينما كان يعيد سماعة الهاتف، سمع أنينًا خلفه. كانت كلاريس واقفة بجوار الطاولة تقرأ صحيفة المساء. وضعت يدها على قلبها، واهتزت وسقطت. صرخ لوبين، وهو ينادي خادمه: «أشيلي، أشيلي... ساعدني في وضعها على هذا السرير... ثم اذهب وأحضر الزجاجة، من الخزانة، الزجاجة رقم أربعة، تلك التي تحتوي على المخدر».

بمقدمة سكين، فتح أسنان كلاريس وأجبرها على شرب نصف الزجاجة. قال: «جيد. هكذا، لن تستيقظ المسكينة إلا غدًا... بعد أن ينتهي كل شيء». تصفَّح الجريدة التي كانت كلاريس قد قرأتها، والتي كانت لا تزال ممسكة بها بيد متشنجة، ووجد السطور التالية:

«اتُّخِذت أشد التدابير الأمنية استعدادًا لتنفيذ حكم الإعدام في جلبير وفوشيراي، في حالة محاولة أرسين لوبين لإنقاذ زملائه من العقاب النهائي. اعتبارًا من منتصف الليل، ستكون جميع الشوارع المحيطة بسجن سانتيه مؤَمَّنة عسكريًا. حيث من المقرر أن يُنفذ الإعدام أمام جدران السجن، في ساحة بولفار أراجو». تمكَّنا من الحصول على معلومات حول الحالة النفسية للمحكوم عليهما بالإعدام. فوشيراي، الذي لا يزال ساخرًا، ينتظر النتيجة القاتلة بشجاعة كبيرة. كان يقول: تبًا، هذا لا يسعدني، لكن، حسنًا، ما دام أنه لا مفر منه، سنواجه الأمر بثبات... الموت، لا يهمني. ما يزعجني هو فكرة قطع رأسي. آه! لو كان بإمكان رئيسي أن يجد حيلة ليأخذني إلى العالم الآخر مباشرة، دون

أن يكون لدي وقت لقول أوف! قليل من الإستركنين[1]، من فضلك أيها الرئيس».

«إن هدوء جلبير كان أكثر إثارة للإعجاب، خصوصًا عندما نتذكر انهياره في محكمة الجنايات. بالنسبة إليه، كان يملك ثقة لا تتزعزع في القوة المطلقة لأرسين لوبين. صاح الرئيس في وجهي أمام الجميع وقال لي ألا أخاف، وإنه هنا، وسيتحمل كل شيء. حسنًا، أنا لا أخاف. حتى اليوم الأخير، حتى الدقيقة الأخيرة، عند أقدام المقصلة نفسها. سأعتمد عليه. لأنني أعرفه، الرئيس! مع هذا الرجل، لا داعي للخوف. لقد وعد، وسيفي بوعده. حتى لو سقط رأسي، سيعود ليزرعه على كتفي بشكل قوي. أرسين لوبين، يترك جلبير الصغير يموت؟ آه! لا، اسمحوا لي أن أضحك!

هناك شيء مؤثر وساذج في هذا الحماس الذي لا يخلو من النبل. سنرى ما إذا كان أرسين لوبين يستحق مثل هذه الثقة العمياء».

استطاع لوبين بالكاد إنهاء قراءة هذا المقال، لأن الدموع كانت تغشي عينيه، دموع الحنان، دموع الشفقة، دموع اليأس. لا، لم يكن يستحق ثقة جلبير الصغير. بالتأكيد، لقد فعل المستحيل، لكن هناك ظروفًا تتطلب أكثر من المستحيل، حيث يجب أن يكون المرء أقوى من القدر، وهذه المرة، كان القدر أقوى منه. منذ اليوم الأول وعلى طول هذه المغامرة المؤلمة، سارت الأحداث بشكل مخالف لتوقعاته،

(1) Strychnine هي مادة كيميائية سامة للغاية تستخدم عادة كمبيد للقوارض مثل الفئران والجرذان. توجد في بعض النباتات، مثل شجرة الجوز المقيئ (Strychnos nux-vomica). تعتبر الستركنين من السموم العصبية القوية، حيث تعمل على تثبيط نشاط المستقبلات المثبطة في الجهاز العصبي المركزي، مما يؤدي إلى تشنجات عضلية شديدة وتقلصات متتابعة يمكن أن تؤدي إلى الموت بسبب الاختناق أو الإجهاد القلبي. (المترجم)

ومخالف حتى للمنطق. كلاريس وهو، رغم سعيهما إلى هدف مشترك، ضيعا أسابيع في محاربة بعضهما بعضًا. ثم، في اللحظة التي وحدا فيها جهودهما، توالت الكوارث المروعة، اختطاف جاك الصغير، اختفاء دوبريك، أسره في برج العاشقَيْن، إصابة لوبين، عجزه عن الحركة، ثم المناورات الخاطئة التي أدت بكلاريس، ومن ورائها لوبين، نحو الجنوب، نحو إيطاليا. ثم، الكارثة الكبرى، عندما اعتقد أنه استولى على الكنز، انهار كل شيء. لم تكن قائمة السبعة والعشرين لها قيمة أكبر من أبسط قطعة ورق...

قال لوبين لنفسه: «ارمِ السلاح! الهزيمة قد حدثت. مهما انتقمت من دوبريك، ودمرته، وأفنيته... الخاسر الحقيقي هو أنا، لأن جلبير سيموت...». بكى مجددًا، ليس بسبب الغضب أو الحنق، بل من اليأس. جلبير سيموت! من كان يسميه الصغير، أفضل رفاقه، سيموت في غضون ساعات قليلة. لم يعد بإمكانه إنقاذه. لقد نفدت موارده. لم يعد يبحث حتى عن حيلة أخيرة. ما الفائدة؟

ألم يكن يعلم، عاجلًا أم آجلًا، أن المجتمع ينتقم، وأن ساعة التكفير عن كل جرائمه ستدق حتمًا، وأنه لا يوجد مجرم يمكنه أن يدعي الهروب من العقاب؟ لكن ما أضاف إلى الرعب هو أن الضحية المختارة كانت هذا المسكين جلبير، البريء من الجريمة التي سيُعدم بسببها. أليس هناك شيء مأساوي في ذلك، وهذا ما يزيد من عجز لوبين؟

وكانت قناعة هذا العجز عميقة للغاية، ونهائية، لدرجة أن لوبين لم يشعر بأي غضب عندما تلقى هذا التليغراف من لوبالو: «**عُطل في المحرك. جزء مكسور. الإصلاح سيستغرق وقتًا طويلًا. سنصل صباح الغد**».

كان هذا آخر دليل تلقاه على أن القدر قد أصدر حكمه. لم يفكر قط في التمرد ضد هذا القرار القدري. نظر إلى كلاريس. كانت نائمة نومًا هادئًا، وهذا النسيان لكل شيء، هذا اللا وعي، بدت له مثيرة جدًّا لدرجة أنه، فجأة، استولى عليه نوبة من الجبن، فالتقط القارورة، التي كان لا يزال نصفها مملوءًا بالمخدر، وشرب. ثم ذهب إلى غرفته، استلقى على سريره واستدعى خادمه: «اذهب إلى سريرك، أشيلي، ولا توقظني تحت أي ظرف من الظروف».

- إذًا، سيدي، بالنسبة إلى جلبير وفوشيراي، ألا يوجد شيء يمكن القيام به؟

- لا شيء.

- سيموتان؟

- سيموتان.

بعد عشرين دقيقة، كان لوبين يغفو. كانت الساعة العاشرة مساءً. تلك الليلة كانت صاخبة حول السجن. في الساعة الواحدة صباحًا، كان شارع سجن سانيه، وشارع أراجو، وكل الشوارع المؤدية إلى السجن، محاطة بالشرطة التي لم تسمح بالمرور إلا بعد استجواب حقيقي.

في الواقع، كانت الأمطار تعصف، ولم يكن يبدو أن هناك الكثير من الهواة الذين يحبون مشاهدة هذا النوع من المشاهد. بأمر خاص، أُغلِقت جميع الحانات قرابة الساعة الثالثة، وجاءت سرايا مشاة لتُخيِّم على الأرصفة، وفي حالة الإنذار، تمركزت كتيبة على أمام ساحة أراجو. بين الجنود، كان يتنقل حراس البلدية، ويتردد الضباط المشرفون على الأمن، وموظفو الإدارة، وكل هؤلاء كانوا مجندين لهذه المناسبة خلافًا للعادة. نُصِبت المقصلة في صمت، في وسط الساحة المفتوحة عند زاوية الجادة والشارع، وكان يُسمع صوت المطارق المزعج. ولكن قرابة

الساعة الرابعة، تجمعت الحشود رغم المطر، وبدأ بعضهم في الغناء. طالبوا بالفوانيس، ثم ببدء العرض، وغضبوا عندما لاحظوا أن هناك حواجز تفصلهم هذه المرة عن المقصلة؛ بالكاد يمكنهم رؤية المقصلة.

مرَّت عدة عربات تحمل الشخصيات الرسمية المرتدية السواد. كان هناك تصفيق، واحتجاجات، مما استدعى مجموعة من الحراس على الخيول لتفريق التجمعات وإخلاء المنطقة حتى أكثر من ثلاثمائة متر من الساحة. انتشرت فرقتان أخيرتان من الجنود. وفجأة، عمَّ الصمت الكبير. كان هناك بياض باهت ينبعث من الظلام المحيط.

توقفت الأمطار فجأة.

في الداخل، في نهاية الممر الذي توجد فيه زنازين المحكوم عليهما بالإعدام، كانت الشخصيات المرتدية السواد تتحدث بصوت منخفض. كان براسفيل يتحدث مع المدعي العام، الذي أعرب له عن مخاوفه. أكد له براسفيل قائلًا: «لا، لا، أؤكد لك أن كل شيء سيمر دون حوادث».

- هل تشير التقارير إلى شيء مشبوه، سيدي الأمين العام؟

- لا شيء. ولا يمكن أن تشير إلى شيء لأننا نملك لوبين.

- هل هذا ممكن؟

- نعم، نحن نعرف مكان إقامته. المنزل الذي يعيش فيه في ساحة كليشي، وقد عاد إليه أمس الساعة السابعة مساءً، وهو الآن مُحاصر. بالإضافة إلى ذلك، أعرف الخطة التي وضعها لإنقاذ رفيقيه. هذه الخطة، في اللحظة الأخيرة، فشلت. لذا لا يوجد ما نخافه. العدالة ستأخذ مجراها.

قال محامي جلبير الذي سمع الحديث: «ربما سنندم على ذلك في يوم من الأيام».

- هل تعتقد حقًّا، يا سيدي المحامي، في براءة موكلك؟

- بكل تأكيد، سيدي المدعي العام. إنه بريء وسيُعدم.

لم يرد المدعي العام. ولكن بعد لحظة، وكأنه يرد على تأملاته الخاصة، اعترف: «لقد تعاملوا مع هذه القضية بسرعة مدهشة». ورد المحامي بصوت متأثر: «إنه بريء وسيُعدم».

ومع ذلك، حان الوقت.

بدؤوا بفوشيراي، وأمر المدير بفتح باب زنزانته. قفز فوشيراي من سريره ونظر بعينين توسعتا من الرعب إلى الأشخاص الذين دخلوا.

- فوشيراي، جئنا لنخبرك...

- اصمتوا، اصمتوا، لا أريد أن أسمع شيئًا. أعرف ما سيحدث. لنذهب.

كان يبدو وكأنه في عجلة من أمره لإنهاء كل شيء بأسرع وقت ممكن، لدرجة أنه كان يتعاون مع التحضيرات المعتادة. لكنه لم يقبل أن يُخاطبه أحد. كرر لهم: «لا للكلام... ماذا؟ الاعتراف؟ لا داعي لذلك. لقد قتلت. يقتلونني. هذا هو القانون. نحن متعادلون». ومع ذلك، توقف فجأة للحظة: «قل لي؟ هل سيمر الرفيق أيضًا؟». وعندما علم أن جلبير سيذهب إلى المقصلة في الوقت نفسه، تردد لبضع ثوانٍ، نظر إلى الحاضرين، بدا مستعدًّا لقول شيء ما، رفع كتفيه، وأخيرًا همس: «هذا أفضل... لقد ارتكبنا الجريمة معًا... سنعاقب معًا».

لم يكن جلبير نائمًا أيضًا عندما دخلوا زنزانته. جالسًا على سريره، استمع إلى الكلمات الرهيبة، حاول أن ينهض، بدأ يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه مثل هيكل عظمي يُهز، ثم انهار باكيًا. تمتم: «آه! أمي المسكينة... أمي المسكينة». حاولوا أن يسألوه عن هذه الأم التي

لم يتحدث عنها قط، لكن ثورة مفاجئة قطعت بكاءه، وبدأ يصرخ: «لم أقتل... لا أريد أن أموت... لم أقتل!».

قيل له: «جلبير، يجب أن تكون شجاعًا».

- نعم... نعم... ولكن بما أنني لم أقتل، لماذا تجعلونني أموت؟... لم أقتل... أقسم نكم... لم أقتل... لا أريد أن أموت... لم أقتل... لا ينبغي...

كانت أسنانه تصطك بقوة لدرجة أن كلماته أصبحت غير مفهومة. تركهم يفعلون به ما يشاؤون، اعترف، ثم سمع القداس، ثم أصبح أكثر هدوءًا، تقريبًا مطيعًا، بصوت طفل صغير يستسلم، تذمر: «يجب أن تخبروا أمي أنني أطلب منها المغفرة».

- أمك؟

- نعم... اجعلوا كلامي يُنشر في الصحف... ستفهم... إنها تعلم أنني لم أقتل، هي تعلم. لكنني أطلب منها المغفرة عن الضرر الذي ألحقته بها، عن الضرر الذي قد أكون سببته. وبعد ذلك...

- وبعد ذلك، جلبير؟

- حسنًا، أريد أن يعلم الرئيس أنني لم أفقد الثقة...

تفحص الحاضرين واحدًا تلو الآخر، وكأنه كان يملك الأمل المجنون في أن الرئيس كان واحدًا منهم، متخفيًا، غير معروف، ومستعدًا لأخذه بعيدًا بين ذراعيه. قال بهدوء، وبنوع من الورع الديني: «نعم، نعم، ما زلت أملك الثقة، حتى في هذه اللحظة... يجب أن يعلم ذلك، أليس كذلك؟... أنا متأكد من أنه لن يتركني أموت... أنا متأكد».

كان يمكن تمييز ذلك من نظرة عينيه الثابتة، كأنه يرى لوبين، كأنه يشعر بظل لوبين يروح ويجيء في الأنحاء، باحثًا عن مخرج للوصول

إليه. ولم يكن هناك ما هو أكثر تأثيرًا من مشهد هذا الطفل، المرتدي لثوب القوة، مع يديه ورجليه مقيدتين، والذي كان آلاف الرجال يحرسونه، والذي كان الجلاد قد أمسك به بالفعل، ومع ذلك، ما زال يأمل.

كانت القلوب تعتصرها الكآبة. وامتلأت الأعين بالدموع. تمتم شخص ما: «طفلٌ مسكين!».

متأثرًا مثل الآخرين ويفكر في كلاريس، كرر براسفيل بصوت خافت: «طفل مسكين!». كان محامي جلبير يبكي، وكان لا يتوقف عن قوله للأشخاص القريبين منه: «إنه بريء وسيُعدم». لكن الوقت كان قد حان، وانتهت التحضيرات. بدأ الجميع يتحركون.

اجتمعت المجموعتان في الممر. عندما رأى فوشيراي جلبير، ضحك ساخرًا: «ما الرأي يا صغيري، لقد تخلى عنا الرئيس». وأضاف هذه العبارة التي لم يفهمها أحد سوى براسفيل: «لا شك أنه يفضل أن يجني أرباح السدادة الكريستال».

نزلوا السلالم. توقفوا عند الأرشيف لإتمام الإجراءات المعتادة. عبروا الفناءات. رحلة طويلة، مروعة...

وعند البوابة الكبيرة المفتوحة، كان النهار الباهت، المطر، الشارع، وظلال المنازل، وفي البعيد، همسات تتردد في الصمت المروع... ساروا على طول الجدار، حتى زاوية الساحة. بضع خطوات أخرى... تراجع فوشيراي. لقد رأى: جلبير يزحف، رأسه منخفض، مدعومًا بمساعد والقس الذي كان يجعله يُقبِّل الصليب.

وفجأة، ظهرت المقصلة...

قال جلبير: «لا، لا، لا أريد... لم أقتل... لم أقتل... النجدة! النجدة!».

صرخة أخيرة تاهت في الفراغ.

أمسكوا بفوشيراي، رفعوه، وسحبوه، تقريبًا وهم يركضون. ثم حدثت تلك الواقعة المذهلة: طلقة نارية، طلقة أطلقت من الجهة المقابلة، من منزل مقابل. توقف المساعدون فجأة. بين أذرعهم، الجسد الذي كانوا يحملونه تهاوى. سألوا: «ما الأمر؟ ماذا يحدث؟».

- لقد أصيب...

كان الدم يتدفق من جبهة فوشيراي، ويغطي وجهه.

تمتم: «أصبت... أصبت في مقتل! شكرًا، سيدي الرئيس، شكرًا... لن يُقطع رأسي... شكرًا، رئيسي!... يا له من رجل رائع!». قال صوت وسط الذعر: «نفذوا الحكم! احملوه إلى هناك!».

- لكنه مات!

- استمروا... نفذوا الحكم!

في المجموعة الصغيرة من القضاة، والموظفين، والضباط، كان الضجيج في أوجه. الجميع كان يعطي الأوامر.

- اقتلوه!... دعوا العدالة تأخذ مجراها!... لا يحق لنا التراجع!... سيكون هذا جبنًا... اقتلوه!

- لكنه مات!

- لا يهم!... يجب أن تُنفذ أحكام العدالة!... اقتلوه!

كان القس يحتج، بينما كان حارسان وعدد من الضباط يراقبون جلبير. بينما استأنف المساعدون حمل الجثة واتجهوا نحو المقصلة.

- استمروا! صرخ الجلاد، مذعورًا، بصوت أجش... استمروا!... ثم الآخر بعده... لنسرع...

لم يُكمل جملته. دوى انفجارٌ ثانٍ. دار حول نفسه وسقط، وهو يتأوه: «لا شيء... مجرد إصابة في الكتف... استمروا... الدور على الآخر!».

لكن المساعدين فروا وهم يصرخون. وانفرجت المساحة حول المقصلة. وأصدر رئيس الشرطة، الوحيد الذي حافظ على رباطة جأشه، آمرًا بصوت صارخ، وجمع رجاله واندفعوا نحو السجن، مختلطين، مثل قطيع غير منظم، مع القضاة، والموظفين، والمحكوم عليه بالإعدام، والقس، وكل من عبر البوابة قبل دقيقتين أو ثلاث.

في هذه الأثناء، بينما كانوا غير مدركين للخطر، اندفعت مجموعة من العملاء والمفتشين والجنود نحو المنزل، منزل صغير مكون من ثلاثة طوابق، بناءه قديم نوعًا ما، وكان الطابق الأرضي منه مشغولًا بمتجرين مغلقين في تلك الساعة. فورًا، بعد الطلقة الأولى، شوهد شخص غامض في إحدى نوافذ الطابق الثاني، كان يحمل بندقية، وكان محاطًا بسحابة من الدخان.

أُطلقت عدة طلقات مسدس نحوه، لكنها لم تصبه. بعد أن صعد بهدوء على طاولة، وجَّه بندقيته مرة ثانية، وأطلق النار مرة أخرى. ثم عاد إلى داخل الغرفة. في الأسفل، عندما لم يرد أحد على جرس الباب، كسروا الباب الذي سقط بعد بضع لحظات.

اندفعوا نحو الدرج، لكن سرعان ما واجهوا عائقًا أوقف اندفاعهم. كان في الطابق الأول تكدس من الكراسي والأسرة والأثاث، مكونًا حاجزًا حقيقيًا، وكان متشابكًا بطريقة جعلت المهاجمين يستغرقون أربع أو خمس دقائق لشق طريقهم. هذه الدقائق الأربع أو الخمس الضائعة كانت كافية لجعل أي مطاردة عديمة الجدوى. عندما وصلوا إلى الطابق الثاني، سمعوا صوتًا يصرخ من الأعلى: «من هنا يا أصدقاء! بقيت عشرون درجة. أعتذر عن كل هذا الإزعاج!».

صعدوا تلك الدرجات العشرين، وبكل رشاقة! لكن في الأعلى، فوق الطابق الثالث، كانت هناك عليَّة، يمكن الوصول إليها بواسطة سلم وفوهة. وكان الهارب قد أخذ السلم وأغلق الفوهة.

لم ينسَ أحد الضجيج الذي أثاره هذا الفعل غير المسبوق، وتوالت طبعات الجرائد، والباعة المتجولين الذين كانوا يجرون ويصرخون في الشوارع، والعاصمة كلها التي اهتزت بالغضب، ولنقلها، بفضول قلق. لكن بلغت ذروة الاضطراب في مقر الشرطة. من جميع الجهات، كان هناك تحركات. تتابعت الرسائل، والتلغرافات، والمكالمات الهاتفية. أخيرًا، عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، كان هناك اجتماع في مكتب رئيس الشرطة. كان براسفيل حاضرًا. كان مدير الأمن يقدم تقريرًا عن تحقيقه. ملخصه كالتالي:

في الليلة السابقة، قبل منتصف الليل بقليل، دقَّ أحدهم جرس المنزل في ساحة أراجو. البواب الذي كان ينام في غرفة صغيرة في الطابق الأرضي، خلف المتجر، سحب الحبل. جاء رجل ليطرق بابه. قال إنه مرسل من الشرطة لأمر عاجل يتعلق بتنفيذ حكم الإعدام في اليوم التالي. وعند فتح الباب، تعرض للاعتداء، وكُمِّم ورُبِط.

بعد عشر دقائق، وصل سيد وسيدة يسكنان في الطابق الأول، وعند دخولهما، أُخضِعا بالطريقة نفسها من قِبل الشخص نفسه، واحتُجِز كل منهما في أحد المتجرين الفارغين. المستأجر في الطابق الثالث لقي المصير نفسه، ولكن في منزله، في غرفته الخاصة، حيث استطاع الرجل الدخول دون أن يُلاحظ. وبما أن الطابق الثاني لم يكن مشغولًا، فقد استقر الرجل فيه. كان سيد الموقف في المنزل.

قال رئيس الشرطة: «ضاحكًا بمرارة وهكذا... الأمر ليس أكثر تعقيدًا من ذلك! لكن ما يدهشني هو أنه استطاع الهرب بهذه السهولة».

- أود أن أشير، سيدي رئيس الشرطة، إلى أنه كان في المنزل منذ الساعة الواحدة صباحًا، وكان لديه حتى الخامسة صباحًا للتحضير لهروبه.

- وهل حدث الهروب؟

- عبر الأسطح. في هذا المكان، المنازل في الشارع المجاور، شارع جلاسيير، ليست بعيدة، ولا يوجد بين الأسطح سوى فجوة واحدة بعرض قرابة ثلاثة أمتار، مع فرق في المستوى قدره متر واحد.

- وماذا بعد؟

- حسنًا، الرجل أخذ السلم من العُليَّة، واستخدمه كجسر. وعندما وصل إلى الكتلة الأخرى من المباني، لم يتبقَّ له سوى تفقد النوافذ والعثور على غرفة علوية فارغة ليدخل إلى منزل في شارع جلاسيير ويخرج بكل هدوء.

- ومع ذلك، هل اتخذت الإجراءات اللازمة؟

- تلك التي أمرتني بها، سيدي رئيس الشرطة. قضى عملائي ثلاث ساعات الليلة الماضية في تفتيش كل منزل، للتأكد من عدم وجود شخص غريب مختبئ. وفي اللحظة التي كانوا يغادرون فيها المنزل الأخير، كنت أقوم بإقامة الحواجز. في هذه الفترة القصيرة من بضع دقائق، لا بد أن الرجل هرب.

- ممتاز! وبطبيعة الحال، بالنسبة إليك، لا شك. إنه أرسين لوبين؟

- لا شك. أولًا كان الأمر يتعلق برفاقه. و... فقط أرسين لوبين يمكنه ترتيب مثل هذا المخطط وتنفيذه بهذه الجرأة التي لا تصدق.

همس رئيس الشرطة: «ولكن إذًا؟...». ثم، ملتفتًا إلى براسفيل، قال: «لكن إذًا، يا سيد براسفيل، هذا الشخص الذي تحدثت لي عنه،

والذي كنت تتبعه منذ الليلة الماضية في شقته في ساحة كليشي... هذا الشخص هو أرسين لوبين؟».

- نعم، سيدي رئيس الشرطة. في هذا الشأن، لا يوجد شك.

- ألم يُعتقل عندما خرج الليلة الماضية؟

- لم يخرج.

- آه! آه! هذا يزيد الأمور تعقيدًا.

- الأمر بسيط جدًا، سيدي رئيس الشرطة. مثل جميع المنازل التي نجد فيها آثار أرسين لوبين، فإن المنزل في ساحة كليشي له مخرجان.

- ولم تكن تعلم ذلك؟

- لم أكن أعلم. لقد اكتشفت ذلك الآن فقط عندما كنت أزور الشقة.

- لم يكن هناك أحد في هذه الشقة؟

- لا أحد. هذا الصباح، غادر الخادم، الذي يدعى أشيلي، مصطحبًا سيدة كانت تقيم عند لوبين.

- ما اسم هذه السيدة؟

أجاب براسفيل بعد تردد غير ملحوظ: «لا أعلم».

- لكنك تعرف الاسم الذي كان أرسين لوبين يستخدمه للسكن؟

- نعم. السيد نيكول، أستاذ حر، حاصل على درجة الإجازة في الآداب. ها هي بطاقته.

بينما كان براسفيل ينهي جملته، جاء حاجب ليعلن لرئيس الشرطة أن هناك من يطلبه على وجه السرعة في الإليزيه حيث كان رئيس الوزراء موجودًا بالفعل. قال رئيس الشرطة: «سأذهب». ثم أضاف

بصوت خافت: «إنه مصير جلبير الذي سنُحدده». تساءل براسفيل: «هل تعتقد أنه يمكن العفو عنه، سيدي رئيس الشرطة؟».

- أبدًا! بعد ما حدث الليلة الماضية، سيكون لذلك تأثير سلبي للغاية. يجب أن يسدد جلبير دينه اعتبارًا من صباح الغد.

في الوقت نفسه، أعطى الحاجب بطاقة زيارة إلى براسفيل. بعدما نظر إليها، قفز براسفيل وهمس: «يا للمفاجأة! إنه يملك جرأة كبيرة!». سأله رئيس الشرطة: «ما الأمر إذًا؟». أكد براسفيل، الذي أراد أن يكون له شرف إنهاء هذه القضية بنفسه حتى النهاية: «لا شيء، لا شيء، سيدي رئيس الشرطة، لا شيء... مجرد زيارة غير متوقعة قليلًا... سأكون سعيدًا بأن أطلعك على النتائج قريبًا». غادر، وهو يهمس لنفسه بدهشة: «يا للعجب! حقًا... إنه يملك جرأة كبيرة، أليس كذلك؟ يا لها من جرأة!».

على بطاقة الزيارة التي كان يحملها في يده، كان مكتوبًا: السيد نيكول، أستاذ حر، حاصل على درجة الإجازة في الآداب.

الفصل الثالث عشر

المعركة الأخيرة

عندما عاد براسفيل إلى مكتبه، تعرَّف في غرفة الانتظار على السيد نيكول، جالسًا على مقعد، بظهره المنحني ومظهره المريض، ومظلته القطنية، وقبعته المتعرجة وقفازه الوحيد. قال براسفيل لنفسه، الذي خشي للحظة أن يكون لوبين قد أرسل إليه سيد نيكول آخر: «إنه هو، وإذا كان يأتي بنفسه، فهذا يعني أنه لا يشك مطلقًا أنه قد كُشِف». وللمرة الثالثة، قال: «يا لها من جرأة!». أغلق باب مكتبه ودعا سكرتيره قائلًا: «السيد لارتينغ، سأستقبل هنا شخصًا خطيرًا للغاية، والذي، على الأرجح، لن يخرج من مكتبي إلا مكبل اليدين. حالما يدخل، اتخذ جميع الترتيبات اللازمة، وأخبر قرابة عشرة مفتشين، ووزعهم في الغرفة المجاورة وفي مكتبك. الأوامر صارمة: عند أول جرس، تدخلون جميعًا، بالمسدسات في أيديكم، وتحاصرون هذا الشخص. هل هذا واضح؟».

- نعم، سيدي الأمين العام.

- والأهم، لا تردد. دخول سريع، وبالقوة، والسلاح في اليد. بطريقة صارمة. أحضر السيد نيكول، من فضلك.

بمجرد أن كان وحيدًا، أخفى براسفيل زرَّ الجرس الكهربائي الموجود على مكتبه ببعض الأوراق، ووضع خلف حاجز من الكتب مسدسين كبيرين. قال لنفسه: «الآن، دعونا نلعب بذكاء. إذا كان لديه القائمة، فلنأخذها. وإذا لم يكن لديه، فلنأخذه. وإذا كان ذلك ممكنًا، فلنأخذهما معًا. لوبين وقائمة السبعة والعشرين في اليوم نفسه، خاصة بعد فضيحة هذا الصباح، هذا سيضعني في مكانة مرموقة».

طرق أحدهم الباب. صاح: «ادخل!». نهض قائلًا: «تفضل بالدخول، سيد نيكول». دخل السيد نيكول إلى الغرفة بخطوات مترددة، وجلس على حافة الكرسي الذي أشاروا إليه، وقال: «أتيت لأستأنف... حديثنا بالأمس... أعتذر عن تأخري يا سيدي». قال براسفيل: «لحظة. هل تسمح؟». توجَّه بسرعة نحو الغرفة المجاورة، ورأى سكرتيره: «نسيت، سيد لارتينغ. تفقدوا الممرات والسلالم... في حال كان هناك أي شركاء». عاد، وجلس بكل راحة، كما لو أنه يستعد لمحادثة طويلة تهمه بشدة، وبدأ:

- إذًا، ماذا كنت تقول، سيد نيكول؟

- كنت أقول، سيدي الأمين العام، إنني أعتذر عن أني جعلتك تنتظر ليلة أمس. لقد كان هناك عدة عراقيل، أولًا السيدة ميرجي...

- نعم، السيدة ميرجي التي كان عليك إعادتها.

- بالفعل، وكان عليَّ العناية بها. تعرف حالتها اليائسة، المسكينة. ابنها جلبير، على شفا الموت!... وأي موت! في تلك الساعة، لم نكن نعوِّل إلا على معجزة، مستحيلة، حتى أنا كنت أستسلم للأمر الواقع، عندما يلاحقك القدر، ينتهي بك الأمر إلى الاستسلام.

- لكن، بدا لي أن نيتك عند مغادرتي كانت نزع سر دوبريك بأي ثمن.

- بالطبع. لكن دوبريك لم يكن في باريس.

- آه!

- لا. كنت قد جعلته يسافر بالسيارة.

- إذًا لديك سيارة، سيد نيكول؟

- أحيانًا، نعم، سيارة قديمة الطراز، مجرد خردة عادية. كان مسافرًا بالسيارة، أو بالأحرى، على سقف السيارة، في أسفل صندوق السيارة الذي حجزته فيه. والسيارة، للأسف! لم تكن تستطيع الوصول إلا بعد تنفيذ الحكم. لذا...

نظر براسفيل إلى السيد نيكول بدهشة، ولو كان لديه أي شكوك حول الهوية الحقيقية لهذا الشخص، لكان هذا الفعل تجاه دوبريك قد أزالها. يا إلهي! حجز شخص ما في صندوق ووضعه على سقف سيارة!... لوبين وحده يجرؤ على مثل هذه التصرفات، ولوبين وحده يعترف بها بهذا الهدوء البريء! قال براسفيل: «إذًا؟ ماذا قررت؟».

- بحثت عن وسيلة أخرى.

- أي وسيلة؟

- لكن، سيدي الأمين العام، يبدو لي أنك تعلم ذلك بالقدر نفسه الذي أعلمه.

- كيف؟

- يا للهول! ألم تحضر تنفيذ الحكم؟

- نعم.

- في هذه الحالة، رأيت فوشيراي والجلاد يصابان كلاهما، أحدهما إصابة قاتلة، والآخر بإصابة طفيفة. ويجب أن تفكر...

- آه! أنت تعترف، أنت من أطلق النار هذا الصباح؟

- لنفكر قليلًا، سيدي الأمين العام. هل كان لديَّ خيار؟ القائمة المكونة من السبعة والعشرين، التي قمتم بفحصها، كانت مزيفة. أما دوبريك، الذي كان يمتلك القائمة الحقيقية، فلم يصل إلا بعد ساعات من التنفيذ. لم يبق لي سوى وسيلة واحدة لإنقاذ جلبير والحصول على العفو، وهي تأجيل تنفيذ الحكم لبضع ساعات.

- بالتأكيد...

- أليس كذلك؟ بإسقاطي لهذا المجرم البشع، ذلك المجرم القاسي الذي يدعى فوشيراي، ثم بإصابتي للجلاد، كنت أثير الفوضى والذعر. جعلت تنفيذ حكم الإعدام بجلبير مستحيلًا من الناحية المادية والمعنوية، وكسبت الساعات القليلة التي كانت ضرورية لي.

- بالطبع...

- أليس صوابًا؟ هذا يمنحنا جميعًا: الحكومة، رئيس الدولة، وأنا، الوقت للتفكير ورؤية الأمور بوضوح في هذه المسألة. لا، فَكِّر في هذا، إعدام بريء! رأس بريء يسقط! هل كان يمكنني السماح بحدوث ذلك؟ لا، بأي ثمن. كان لا بد من التصرف. لقد تصرفت. ما رأيك في ذلك، سيدي الأمين العام؟

كان لبراسفيل العديد من الأفكار، وأهمها أن السيد نيكول كان يُظهر، كما يُقال، جرأةً شيطانية، جرأةً تجعلك تتساءل حقًّا عما إذا كان يجب الخلط بين نيكول ولوبين وبين لوبين ونيكول.

- أظن، سيد نيكول، أنه لقتل شخص من مسافة مئة وخمسين خطوة وإصابة آخر دون قتله، يجب أن تكون بارعًا للغاية.

قال السيد نيكول بتواضع: «أخذت بعض التدريبات».

- وأظن أيضًا أن خطتك لا يمكن أن تكون إلا نتيجة تحضير طويل.

- ليس على الإطلاق! وهذا ما يضللك! كانت عفوية تمامًا! لو لم يوقظني خادمي، أو بالأحرى، خادم الصديق الذي أعارني شقته في ساحة كليشي، ليخبرني بأنه عمل سابقًا كمساعد في تلك الدار الصغيرة في شارع بوليفار أراجو، وأن عدد السكان قليل، وأن هناك ربما فرصة لتجربتها، لكان جلبير المسكين قد أعدم... ولربما ماتت السيدة ميرجي أيضًا.

- آه؟... تعتقد ذلك؟...

- أنا متأكد. ولهذا السبب استغللت فكرة هذا الخادم المخلص. آه! فقط، لقد أزعجتني حقًّا، سيد الأمين العام!

- أنا؟

- نعم! لقد اتخذت الاحتياط الغريب بنشر اثني عشر رجلًا أمام منزلي؟ كان عليَّ صعود خمسة طوابق عبر السلم الخلفي، والخروج عبر ممر الخدم ومنزل الجيران. تعب غير ضروري!

- آسف، سيد نيكول. في المرة القادمة...

- وكما حدث هذا الصباح، في الثامنة، عندما كنت أنتظر السيارة التي كانت تجلب لي دوبريك في صندوقه، كان عليَّ أن أقف في ساحة كليشي لضمان عدم توقف السيارة أمام منزلي، ولضمان عدم تدخل وكلائكم في شؤوني الصغيرة. وإلا، كان جلبير وكلاريس ميرجي قد ضاعا مجددًا.

- لكن، هذه الأحداث... المؤلمة، كما يبدو لي، قد تأجلت فقط ليوم، أو يومين، أو ثلاثة على الأكثر. للتخلص منها بشكل نهائي، كان لا بد من...

- القائمة الحقيقية، أليس كذلك؟

- بالتحديد، وربما لا تمتلكها...

- بل أمتلكها.

- القائمة الحقيقية؟

- القائمة الحقيقية، الحقيقية بلا شك.

- مع علامة صليب لورين؟

- مع علامة صليب لورين.

صمت براسفيل. شعور قوي اجتاحه، الآن وقد بدأ الصراع مع هذا الخصم الذي يعرف تفوقه المخيف، وارتعش عند التفكير أن أرسين لوبين، الرهيب أرسين لوبين، كان أمامه، هادئًا، مطمئنًّا، يتابع هدفه برباطة جأش كما لو كان يمتلك جميع الأسلحة، وكأنه يواجه عدوًّا أعزل. لم يجرؤ براسفيل على الهجوم المباشر، وكأنه كان شبه مرتبك، فقال: «إذًا دوبريك سلَّمها لك؟».

- دوبريك لا يسلم شيئًا. أنا أخذتها.

- بالقوة، إذًا؟

- لا، أبدًا. آه! بالطبع، كنت مستعدًّا لكل شيء، وعندما أخرجتُ دوبريك من الحقيبة التي كان يسافر فيها بسرعة عالية، مع بعض قطرات الكلوروفورم كغذاء له، كنت قد أعددتُ الأمر بحيث تبدأ الحفلة على الفور. آه! لا للتعذيب الذي لا فائدة منه، لا للمعاناة التي بلا جدوى... لا... للموت ببساطة... بطرف إبرة طويلة

توضع على الصدر، عند موقع القلب، وتُدفع ببطء، بلطف، برفق. لا شيء آخر... لكن هذه الإبرة كانت ستوجهها السيدة ميرجي... تفهمون... الأم لا ترحم... الأم التي ابنها على وشك الموت!... تحدث، دوبريك، أو سأغرزها... ألا تريد أن تتحدث؟ إذن، سأكسب ميليمترًا... ثم آخر... ويتوقف قلب المريض عن النبض، ذلك القلب الذي يشعر بقدوم الإبرة... ثم ميليمتر آخر... ثم آخر... آه! أقسم لك إنه كان سيتحدث، هذا المجرم! وكنا نحن، منحنين فوقه، ننتظر استيقاظه، مفعمين بالصبر، وكنا نتلهف لذلك... سيادتكم بالطبع تتفهمون هذا سيدي الأمين العام، أليس كذلك؟ المجرم ممدد على أريكة، مقيد جيدًا، صدره عارٍ، ويحاول الإفاقة من دخان الكلوروفورم الذي يخدره. يتنفس بشكل أسرع... يتنفس بصعوبة... يستعيد وعيه... تتحرك شفتيه... بالفعل، كانت كلاريس ميرجي تهمس: «إنه أنا... أنا كلاريس... أتريد أن تجيب، أيها التعيس؟». وضعت إصبعها على صدر دوبريك، عند المكان الذي يتحرك فيه القلب مثل حيوان صغير مختبئ تحت الجلد. لكنها قالت لي: «عيناه... عيناه... لا أراهما تحت النظارات... أريد أن أراهما...».

وأنا أيضًا، كنت أريد أن أرى تلك الأعين التي لا أعرفها... أريد أن أقرأ ما فيها، قبل أن أسمع أي كلمة، السر الذي سينبثق من أعماق الكائن المذعور. أريد أن أرى. أنا متلهف لرؤية عينيه. الفعل الذي كنت سأقوم به كان يثيرني بالفعل. كان يبدو لي أنه عندما أرى عينيه، سيتمزق الحجاب الذي يحجز الحقائق. سأعرفها. إنه شعور داخلي. إنه الحدس العميق للحقيقة الذي يهزني. خلعنا النظارة الأولى. لكن النظارة الأحادية الكثيفة ما زالت موجودة. وانتزعتها فجأة. وفجأة، منزعج من

رؤية محيرة، مذهولًا بالوضوح المفاجئ الذي أصابني، كنت أضحك، وفجأة طارت العين اليسرى!

كان السيد نيكول يضحك حقًّا، كما قال. ولم يعد ذلك الرجل الوغد، الريفي الصغير، اللزج والمنافق، بل أصبح رجلًا ممتلئًا بالثقة، لقد ألقى وأدى هذا المشهد بشغف مؤثر، والآن كان يضحك ضحكة صاخبة لم يكن براسفيل قادرًا على الاستماع إليها دون شعور بعدم الراحة. استمر السيد نيكول:

- ها هي ذي! قفزت العين! ها هي! لا، لكن، كلاريس، انظري إلى هذا الذي يتدحرج على السجادة. انتبهي، عين دوبريك! احذري السلمندر[1]!

جلس السيد نيكول بعد أن وقف ومثَّل المطاردة عبر الغرفة، أخرج شيئًا من جيبه، دحرجه في راحة يده مثل كرة، قفز به في الهواء مثل كرة، وأعاده إلى جيبه، وأعلن ببرود: «**العين اليسرى لدوبريك**».

كان براسفيل مذهولًا. إلى أين يريد هذا الزائر الغريب الوصول؟ وماذا تعني كل هذه القصة؟ وبوجه شاحب للغاية، قال: «وضح ما تعنيه!».

- لكن الأمر واضح تمامًا، كما يبدو لي. وهو يتوافق تمامًا مع الواقع! يتوافق تمامًا مع كل الافتراضات التي كنت أفترضها، منذ فترة، والتي كانت ستقودني حتمًا إلى الهدف لو لم يكن هذا الشيطان دوبريك قد صرفني عن مساري بمهارة! نعم! فكر جيدًا... اتبع مسار افتراضاتي: لأنه لم يُعثر على القائمة في أي مكان خارج دوبريك، كما كنت أقول لنفسي، فهذا يعني أن هذه القائمة ليست

(1) حيوان برمائي يشبه السحلية، ويُعرف بقدرته على التجدد والتكيف في البيئات الرطبة. في الأدب والأساطير، يرتبط السمندل بالقدرة على العيش في النار أو مقاومة الحرارة، مما جعله رمزًا للصمود والتحمل في بعض الثقافات. (المترجم)

موجودة خارج دوبريك. ولأنه لم يُعثَر عليها في الملابس التي يرتديها، فهذا يعني أنها مخفية في مكان أعمق، داخل نفسه، لنكون أكثر وضوحًا، في جسده... تحت جلده.

قال براسفيل مازحًا: «ربما في عينه؟».

- في عينه، سيدي الأمين العام، لقد قلت الكلمة الصحيحة.

- ماذا؟

- في عينه، أكرر. وهذه حقيقة كان يجب أن أتوصل إليها منطقيًا بدلًا من أن يكشفها لي الحظ. والسبب في ذلك هو التالي. دوبريك يعلم أن كلاريس ميرجي اكتشفت رسالة منه كان يطلب فيها من مصنع إنجليزي إفراغ البلورة من الداخل لترك فراغ لا يمكن الاشتباه فيه، وكان على دوبريك، بحذر، أن يصرف الانتباه عن البحث. وهكذا جعلهم يصنعون سدادة الكريستال مفرغة من الداخل. وكانت هذه السدادة الكريستال هي ما كنا نبحث عنه أنت وأنا منذ أشهر، ووجدتها أخيرًا في قاع علبة تبغ... بينما كان يجب...

براسفيل، وقد أثارته المفاجأة، سأل: «بينما كان يجب... ماذا؟». أطلق السيد نيكول ضحكة قصيرة: «بينما كان يجب بكل بساطة أن تتوجه نحو عين دوبريك، تلك العين المفرغة من الداخل لتشكل مخبأً غير مرئي وغير قابل للاختراق، هذه العين التي أراها أمامي».

ثم، أخرج السيد نيكول مرة أخرى الشيء من جيبه، وطرق به على الطاولة عدة مرات، مما أحدث صوت جسم صلب. همس براسفيل: «عين زجاجية!». صاح السيد نيكول، ضاحكًا بشكل أكبر: «نعم، عين زجاجية! سدادة قارورة عادية أدخلها المجرم في محجره بدلًا من عين ميتة، سدادة قارورة، أو إذا كنت تفضل، سدادة كريستال، ولكنها هذه

المرة حقيقية، تلك التي زيفها، وحماها خلف الحاجز المزدوج للنظارة والعدسات، والتي كانت تحتوي وما زالت تحتوي على التميمة التي بفضلها كان دوبريك يعمل بأمان تام.

خفض براسفيل رأسه ووضع يده على جبينه، لإخفاء احمرار وجهه: كان يملك تقريبًا قائمة السبعة والعشرين. كانت أمامه، على الطاولة. متمالكًا اضطرابه، قال بشكل غير مبالٍ: «إذًا، لا تزال بداخلها؟».

- على الأقل، أعتقد ذلك.

- كيف تعتقد...

- لم أفتح المخبأ. إنه شرف كنت أحفظه لك، سيدي الأمين العام.

مدَّ براسفيل ذراعه، أمسك بالشيء، ونظر إليه. كان كتلة من البلور، تقليد للعين الطبيعة بشكل لا يمكن تمييزه، بكل تفاصيل القزحية والبؤبؤ والقرنية. فورًا رأى، من الخلف، جزءًا متحركًا ينزلق. بذل جهدًا. كانت العين مجوفة. في الداخل، كانت هناك كرة ورقية. فتحها، وبسرعة، دون أن يتوقف لفحص الأسماء أو الكتابة أو التوقيع، رفع ذراعيه وأدار الورقة نحو ضوء النوافذ. سأل السيد نيكول: «هل صليب لورين موجود؟».

- إنه موجود. هذه القائمة هي القائمة الأصلية.

تردد بضع ثوانٍ وبقيت ذراعاه مرفوعتان، يفكر فيما سيفعله. ثم، طوى الورقة، وأعادها إلى علبتها الكريستال وجعلها تختفي في جيبه. قال له السيد نيكول، وهو يراقبه: «هل أنت مقتنع؟».

- تمامًا.

- إذًا، نحن متفقان؟

- نحن متفقان.

ساد الصمت، حيث كان الرجلان يراقبان بعضهما بعضًا دون أن يبدو عليهما ذلك. بدا أن السيد نيكول ينتظر متابعة المحادثة. براسفيل، الذي كان في مأمن خلف الكتب المتراكمة على الطاولة، يمسك بمسدسه بيد، وباليد الأخرى يلمس زرَّ الجرس الكهربائي، كان يشعر بمتعة مريرة بكل قوة موقفه. كان مالكًا القائمة. كان مالكًا لوبين! كان يفكر: «إذا تحرك، سأوجه مسدسي نحوه وأنادي. إذا هاجمني، سأطلق النار». في النهاية، استأنف السيد نيكول الحديث: «بما أننا متفقان، سيدي الأمين العام، أعتقد أنه لم يتبقَّ لك سوى أن تتعجل. يجب أن يحدث التنفيذ غدًا؟».

- نعم.

- في هذه الحالة، سأنتظر هنا.

- تنتظر ماذا؟

- رد الإليزيه.

- آه! هل من المفترض أن يأتيك شخص ما بهذا الرد؟

- نعم. أنت، سيدي الأمين العام.

هزَّ براسفيل رأسه: «يجب ألا تعتمد عليَّ، سيد نيكول». قال السيد نيكول متفاجئًا: «حقًّا؟ هل يمكن أن أعرف السبب؟».

- لقد غيرت رأيي.

- ببساطة؟

- ببساطة. أعتقد أنه في الوضع الحالي، بعد فضيحة الليلة الماضية، من المستحيل محاولة أي شيء لصالح جلبير. بالإضافة إلى ذلك، فإن أي خطوة في هذا الاتجاه مع الإليزيه، بالشكل الذي تظهر عليه، تشكل ابتزازًا حقيقيًّا أرفض بكل تأكيد أن أشارك فيه.

- أنت حر في ذلك، سيدي. هذه المخاوف، على الرغم من أنها جاءت متأخرة، فإنها لم تكن أفكارك بالأمس، فإنها ترفع من قدرك. ولكن إذًا، سيدي الأمين العام، بما أن الاتفاق الذي أبرمناه قد تمزق، أعد لي قائمة السبعة والعشرين.

- لماذا؟

- لأتوجه إلى وسيط آخر غيرك.

- لا جدوى من ذلك! جلبير هالك.

- كلا، كلا. بل على العكس، أرى أنه بعد حادثة الليلة الماضية، وبعد وفاة شريكه، سيكون من الأسهل بكثير منح هذه العفو التي سيعتبرها الجميع عادلة وإنسانية. أعطني هذه القائمة.

- لا.

- عجبًا، يا سيدي، لا تبدو ذاكرتك قوية، ولا ضميرك حساسًا. ألا تتذكر التزاماتك بالأمس؟

- بالأمس، التزمت تجاه شخص يُدعى السيد نيكول.

- حسنًا؟

- أنت لست السيد نيكول.

- حقًّا! ومن أكون إذًا؟

- هل يجب أن أخبرك؟

لم يرد السيد نيكول، لكنه بدأ يضحك، كما لو أنه كان مسرورًا بالمنعطف الغريب الذي أخذته المحادثة، وشعر براسفيل بقلق غامض عندما رأى هذا الهجوم من الضحك. أمسك بمقبض سلاحه وتساءل عما إذا كان يجب عليه طلب المساعدة.

دفع السيد نيكول كرسيه بالقرب من المكتب، ووضع مرفقيه على الأوراق، وحدق إلى محاوره مباشرة وضحك بسخرية: «إذًا، يا سيد براسفيل، تعرف من أنا، ولديك الجرأة للعب هذه اللعبة معي؟». قال براسفيل الذي واجه الصدمة دون تردد: «لدي هذه الجرأة».

- مما يثبت أنك تصدقني، أنا، أرسين لوبين... دعنا ننطق الاسم... نعم، أرسين لوبين... مما يثبت أنك تصدقني بأنني أحمق بما يكفي، وغبي بما فيه الكفاية، لأُسلم نفسي هكذا مكبلًا اليدين والقدمين؟

قال براسفيل ممازحًا، وهو يربت على جيبه حيث أخفى كرة البلور: «يا إلهي، لا أرى ما يمكنك فعله، يا سيد نيكول، الآن بعد أن أصبحت عين دوبريك هنا، وقائمة السبعة والعشرين موجودة في عين دوبريك، ماذا يمكنك أن تفعل؟». كرر السيد نيكول بسخرية: «ما يمكنني فعله؟».

- نعم! الآن بعد أن لم تعد التميمة تحميك، لا تساوي أكثر مما يساويه رجل وحيد تجرأ على الدخول إلى قلب مقر الشرطة، بين عشرات الرجال الذين يقفون خلف كل باب، ومئات الآخرين الذين سيأتون عند أول إشارة.

رفع السيد نيكول كتفيه، ونظر إلى براسفيل بشفقة وقال: «هل تعرف ما الذي سيحدث، يا سيدي الأمين العام؟ حسنًا، حتى أنت، كل هذه القصة تدير رأسك. مع امتلاكك للقائمة، تجد نفسك فجأة، من حيث الحالة النفسية، على مستوى دوبريك نفسه أو دألبوفكس. لم يعد في ذهنك حتى مسألة تسليمها إلى رؤسائك من أجل القضاء على هذه البذرة من العار والشقاق. لا، لا... يغريك إغراء مفاجئ، وتشعر بدوار، وتقول لنفسك: إنها هنا، في جيبي. مع هذا، أنا مالكٌ لكل شيء. مع هذا، إنها الثروة، القوة المطلقة، بلا حدود. لماذا لا أستفيد؟ لماذا لا أترك جلبير

يموت، وكلاريس ميرجي تموت؟ لماذا لا أقبض على هذا الأحمق لوبين؟ لماذا لا أغتنم هذه الفرصة الفريدة من نوعها للثروة؟».

انحنى نحو براسفيل، وبهدوء شديد، بنبرة ودية، قال له: «لا تفعل ذلك، يا عزيزي، لا تفعل ذلك».

- ولماذا؟

- لأنه ليس في مصلحتك، صدقني.

- حقًّا!

- نعم. أو، إذا كنت مصممًا على القيام بذلك، فيرجى أن تنظر أولًا في الأسماء السبعة والعشرين في القائمة التي سرقتها مني للتو، وتفكر في اسم الشخصية الثالثة.

- آه! وما اسم هذه الشخصية الثالثة؟

- إنه أحد أصدقائك.

- من؟

- النائب السابق ستانيسلاس فورنغلاد.

قال براسفيل، الذي بدا أنه فقد بعضًا من ثقته: «وبعد؟».

- وبعد؟ اسأل نفسك إذا كانت تحقيقات، حتى وإن كانت سطحية، لن تكتشف في النهاية الشخص الذي شاركه بعض الأرباح الصغيرة.

- ومن يُدعى؟

- لويس براسفيل.

- ماذا تقول؟

- أنا لا أُغني، أنا أتكلم. وأقول إنه إذا كنت قد كشفتني، فإن قناعك أنت أيضًا لم يعد يُخفي الكثير، وما يراه الناس من تحته ليس جميلًا، ليس جميلًا على الإطلاق.

نهض براسفيل. ضرب السيد نيكول على الطاولة بقبضة قوية، وصاح: «كفى سخافات، يا سيدي! لقد مضت عشرون دقيقة ونحن ندور حول الموضوع. يكفي. دعنا ننهي الأمر الآن. وقبل كل شيء، ارمِ مسدساتك. إذا كنت تعتقد أن هذه الآلات تخيفني! هيا، فأنا في عجلة من أمري».

وضع يده على كتف براسفيل وقال بصوت متهدج: «إذا لم تعد من الرئاسة في خلال ساعة، وأنت تحمل بضع كلمات تؤكد أن قرار العفو قد وُقِّع... وإذا لم أخرج من هنا، أنا، أرسين لوبين، سالمًا ومعافى تمامًا بعد ساعة وعشر دقائق، فستتلقى أربعة صحف في باريس هذا المساء أربع رسائل مختارة من المراسلات التي جرت بين ستانيسلاس فورنغلاد وبينك، مراسلات باعها لي ستانيسلاس فورنغلاد هذا الصباح. ها هي قبعتك، عصاك ومعطفك. اذهب. سأنتظر».

حدث أمر غير عادي، لكنه قابل للتفسير، وهو أن براسفيل لم يُبدِ أدنى احتجاج ولم يبدأ أي مقاومة. لقد شعر فجأة، وبعمق، وبشكل كامل، بمدى قوة هذا الشخص الذي يُدعى أرسين لوبين. لم يفكر حتى في الجدال أو الادعاء -وهو ما كان يعتقده حتى الآن- أن الرسائل قد دُمِّرت من قِبَل النائب فورنغلاد، أو على أي حال، أن فورنغلاد لن يجرؤ على تسليمها، لأن القيام بذلك سيكون بمنزلة تدمير لنفسه أيضًا. لا. لم ينطق بكلمة. شعر بأنه محاصر في فخ لا يمكن لأي قوة أن تفك قبضته. لم يكن هناك شيء يمكن فعله سوى الاستسلام. فاستسلم.

كرر السيد نيكول: «هنا في خلال ساعة». قال براسفيل، بخضوع تام: «في خلال ساعة». ومع ذلك، أضاف: «هل ستعُيد إليَّ هذه المراسلات مقابل العفو عن جلبير؟».

- لا.

- كيف لا؟ إذًا، هذا لا فائدة منه...

- ستُعاد إليك بالكامل بعد شهرين من اليوم الذي سيتمكن فيه أصدقائي وأنا من تهريب جلبير، وذلك بفضل الرقابة المتساهلة جدًّا التي ستحدث وفقًا للأوامر المعطاة.

- هذا كل شيء؟

- لا. هناك شرطان آخران.

- ما هما؟

- 1° تسليم شيك فوري بمبلغ أربعين ألف فرنك.

- أربعون ألف فرنك!

- هذا هو السعر الذي باعني فورنغلاد الرسائل به. بكل عدالة...

- ثم ماذا؟

- 2° استقالتك من المنصب الذي تشغله خلال ستة أشهر.

- استقالتي! ولكن لماذا؟

أصدر السيد نيكول إيماءة جادة للغاية وقال: «لأنه من غير الأخلاقي أن يشغل أحد المناصب العليا في مقر الشرطة رجل لا يمتلك ضميرًا نقيًا. احصل على منصب نائب، وزير، أو حارس، أو أي منصب آخر يسمح لك نجاحك بالمطالبة به. ولكن سكرتير عام لمقر الشرطة، لا، ليس هذا. هذا يثير اشمئزازي».

فكر براسفيل للحظة. كان تدمير خصمه المفاجئ سيسعده بشدة، ومن كل ذهنه حاول إيجاد الوسائل لتحقيق ذلك. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ توجَّه نحو الباب ونادى: «السيد لارتينغ؟». ثم بصوت خافت، ولكن بشكل مسموع للسيد نيكول: «السيد لارتينغ، اصرف عملاءك. هناك خطأ. ولا يدخل أحد إلى مكتبي في خلال غيابي. هذا السيد ستنظرني هنا».

أخذ قبعته، وعصاه، ومعطفه الذي كان السيد نيكول قد ناولهم له، وخرج. همس لوبين عندما أُغلِق الباب: «ألف تحية لك، سيدي، لقد أظهرت تصرفًا مثاليًّا... هذه الأمور تتطلب الحسم. يجب إرباك العدو. عندما يكون لديك ضمير يقظ، لا يمكنك أن تعامل هؤلاء الأشخاص بهوادة كبيرة. ارفع رأسك، لوبين. كنت بطل الأخلاق المهدورة. كن فخورًا بعملك. والآن استرخِ، ونام. لقد استحققتها جيدًا».

عندما عاد براسفيل، وجد لوبين نائمًا بعمق وكان عليه أن يضربه على الكتف ليوقظه. سأل لوبين: «هل انتهى الأمر؟».

- انتهى. سيصدر مرسوم العفو قريبًا. إليك وعدٌ مكتوبٌ بذلك.

- الأربعون ألف فرنك؟

- ها هو الشيك.

- حسنًا. لا يتبقى لي إلا أن أشكرك، سيدي.

- والمراسلات؟

- ستُسلم إليك مراسلات ستانيسلاس فورنغلاد بالشروط المحددة. ومع ذلك، أنا سعيد لأنني أستطيع، كعلامة على التقدير، أن أعطيك الرسائل التي كنت سأرسلها إلى الصحف.

- آه! قال براسفيل، كنت تحملها معك إذًا؟

- كنت متأكدًا جدًّا، سيدي السكرتير العام، أن الأمر سينتهي بالاتفاق!

استخرج من قبعته ظرفًا ثقيلًا، مختومًا بخمسة أختام حمراء، ومثبتًا تحت القبعة، وقدمها إلى براسفيل الذي أخذها بسرعة. ثم قال أيضًا: «سيدي السكرتير العام، لا أعرف متى سأكون سعيدًا برؤيتك مرة أخرى. إذا كان لديك أي رسالة لي، فإن سطرًا بسيطًا في إعلانات الصحف سيكون كافيًا. عنواني: السيد نيكول.

أُودعك بسلام».

بمجرد أن أصبح بمفرده، شعر براسفيل وكأنه يفيق من كابوس فعل فيه أفعال الهذيان، حيث لم يكن له أي سيطرة. كان على وشك أن يقرع الجرس ويثير الفوضى في الممرات، لكن في تلك اللحظة دُقَّ على الباب، ودخل أحد الخدم بسرعة. سأل براسفيل: «ماذا هناك؟».

- سيدي السكرتير العام، النائب دوبريك يريد أن تستقبله من أجل قضية عاجلة.

صرخ براسفيل مندهشًا: «دوبريك! دوبريك هنا! أدخله». لم ينتظر دوبريك الأمر. كان يندفع نحو براسفيل، يلهث، وملابسه مشوشة، وعصابة على عينه اليسرى، دون رباطة عنق أو طوق مزيف، يبدو كالمجنون الذي هرب للتو، وبمجرد أن انفتح الباب، أمسك براسفيل بكلتا يديه الضخمتين وقال: «هل لديك القائمة؟».

- نعم.

- هل اشتريتها؟

- نعم.

- مقابل عفو جلبير؟

- نعم.

- هل وُقِّع العفو؟

- نعم.

انتفض دوبريك غضبًا: «أحمق! أحمق! لقد سمحت بهذا! من أجل كراهيتي، أليس كذلك؟ والآن تريد الانتقام؟».

- مع بعض السرور، دوبريك. تذكر صديقتي الصغيرة من نيس، الراقصة في الأوبرا... حان دورك الآن للرقص.

- إذًا، السجن؟

- لا فائدة، أنت في ورطة. دون القائمة، ستنهار بنفسك. وسأشاهد انهيارك. هذا هو انتقامي.

قال دوبريك بامتعاض: «هل تظن ذلك؟ تظن أنه يمكنني أن أغرق كالدجاجة، وألا أعرف كيف أحمي نفسي، وأنني لم أعد أملك المخالب والأنياب للعض. حسنًا، إذا سقطت، فسوف يسقط معي أحد آخر... سيكون السيد براسفيل، شريك ستانيسلاس فورنغلاد، الذي سيعطيني كل الأدلة الممكنة ضده، ما يكفي ليدخلك السجن فورًا. آه! مع هذه الرسائل، ستسير بشكل مستقيم، وسيتبقى أيام جميلة للنائب دوبريك. ماذا؟ هل تضحك؟ ربما هذه الرسائل غير موجودة؟».

رفع براسفيل كتفيه وقال: «نعم، هي موجودة. ولكن فورنغلاد لم يعد يملكها».

- منذ متى؟

- منذ هذا الصباح. فورنغلاد باعها قبل ساعتين بمبلغ أربعين ألف فرنك. وأنا اشتريتها بالسعر نفسه.

ضحك دوبريك ضحكًا هائلًا: «يا إلهي، كم هو مضحك! أربعون ألف فرنك! دفعت أربعين ألف فرنك! إلى السيد نيكول، أليس كذلك، ذلك

الذي باع لك قائمة السبعة والعشرين؟ حسنًا، هل تريد أن أخبرك بالاسم الحقيقي لهذا السيد نيكول؟ إنه أرسين لوبين».

- أعلم ذلك.

- ربما. لكن ما لا تعرفه، أيها الأحمق، هو أنني جئت من عند ستانيسلاس فورنغلاد، وأن ستانيسلاس فورنغلاد قد غادر باريس منذ أربعة أيام! آه! آه! كم هو رائع! لقد اشتريت ورقًا قديمًا! وأربعون ألف فرنك! يا له من أحمق!

رحل وهو يضحك بصوتٍ عالٍ، تاركًا براسفيل في حالة من الصدمة التامة. هكذا لم يكن لدى أرسين لوبين أي دليل، وعندما هدد، وعندما أمر، وعندما عامل براسفيل، بهذه الوقاحة الفجة، كان كل ذلك مجرد تمثيل، ومجرد خداع! كرر السكرتير العام: «لا... لا، هذا مستحيل...... لديَّ الظرف المختوم... إنه هنا... لا بد أن أفتحه». لم يجرؤ على فتحه. كان يتلاعب به، يَزِنُه، يتفحصه...

ودخل الشك إلى عقله بسرعة لدرجة أنه لم يتفاجأ، بعد أن فتحه، من اكتشافه أنه يحتوي على أربع ورقات بيضاء.

قال لنفسه: «لنذهب، أنا لست في قوة كافية. لكن الأمر لم ينتهِ بعد. في الواقع، لم ينتهِ الأمر. إذا كان لوبين قد تصرَّف بجرأة، فهذا يعني أن الرسائل كانت موجودة وكان ينوي شراءها من ستانيسلاس فورنغلاد. ولكن بما أن فورنغلاد لم يكن موجودًا في باريس، كانت مهمة براسفيل أن يسبق لوبين في التوجه إلى فورنغلاد، وأن يحصل من فورنغلاد، بأي ثمن، على استعادة تلك الرسائل الخطيرة. من يصل أولًا سيكون الفائز».

أعاد براسفيل قبعته، ومعطفه وعصاه، نزل إلى الأسفل، وركب سيارة وطلب التوجه إلى منزل فورنغلاد. هناك، طُلِب منه أن ينتظر عودة النائب السابق من لندن في الساعة السادسة مساءً. كانت الساعة

الثانية بعد الظهر. لذلك كان لدى براسفيل كل الوقت لتحضير خطته. عند الخامسة، وصل إلى محطة الشمال ونشر، على اليمين واليسار، في قاعات الانتظار والمكاتب، الثلاث أو الأربع دوائر من المفتشين الذين اصطحبهم معه. وبهذه الطريقة كان مطمئنًا. إذا حاول السيد نيكول الاقتراب من فورنغلاد، سيُقبض على لوبين. ولزيادة الأمان، سيُقبض على أي شخص يُشتبه به، سواء كان لوبين أو أحد من وكلائه.

علاوة على ذلك، تجول براسفيل في جميع أنحاء المحطة. لم يكتشف أي شيء مشبوه. ولكن، في الساعة السادسة إلا عشر دقائق، قال المفتش الرئيسي بلانشون، الذي كان يرافقه: «تفضل، هذا دوبريك».

كان دوبريك، بالفعل، ورؤية عدوه أثارت غضب السكرتير العام لدرجة أنه كاد أن يأمر باعتقاله. ولكن، ما السبب؟ وما الحق الذي يخول له هذا؟ وأي مذكرة تنفيذية؟ إضافةً إلى ذلك، كان وجود دوبريك يثبت، بوضوح أكبر، أن كل شيء يعتمد الآن على فورنغلاد. كان فورنغلاد يمتلك الرسائل. من سيحصل عليها؟ دوبريك؟ لوبين؟ أم هو، براسفيل؟ لم يكن لوبين موجودًا ولا يمكن أن يكون هناك. لم يكن دوبريك في وضع يمكنه من القتال. لذا لم يكن هناك شك في النهاية: سيستعيد براسفيل رسائله، وبذلك يفر من تهديدات دوبريك ولوبين ويستعيد قدرته على التصرف ضدهم.

وصل القطار.

وفقًا لأوامر براسفيل، أصدر مفوض المحطة تعليمات بعدم السماح لأي شخص بالدخول إلى الرصيف. فتقدم براسفيل وحده، يسبقه عدد من رجاله الذين قادهم المفتش الرئيسي بلانشون. توقف القطار. على الفور، رأى براسفيل، عند باب إحدى مقصورات الدرجة الأولى في وسط القطار، فورنغلاد.

نزل النائب السابق، ثم أمسك بيد رجل مسن ساعده على النزول. تقدم براسفيل بسرعة وقال بتلهف: «لديَّ ما أريد أن أخبرك به، فورنغلاد». في اللحظة نفسها، ظهر دوبريك الذي تمكَّن من التسلل، وصاح: «سيد فورنغلاد، تلقيت رسالتك. أنا في خدمتك».

نظر فورنغلاد إلى الرجلين، تعرف على براسفيل ودوبريك، وابتسم: «آه! يبدو أن عودتي كانت منتظرة بشوق. ماذا يحدث؟ هل يتعلق الأمر بالرسائل؟». أجاب الرجلان، متحمسين حوله: «نعم... نعم...». أعلن فورنغلاد: «فات الأوان».

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- أقول إنها بيعت.

- بيعت! ولكن لمن؟

أجاب فورنغلاد مشيرًا إلى رفيقه المسن: «للسيد، للسيد الذي رأى أن هذه الصفقة تستحق قليلًا من الجهد، وجاء لملاقاتي حتى في أميان».

رفع الرجل المسن، الذي كان ملفوفًا في الفراء ويميل على عصا، يده تحية. فكر براسفيل: «إنه لوبين، لا شك أن هذا هو لوبين». وألقى نظرة إلى رجال الشرطة، استعدادًا لاستدعائهم. لكن الرجل المسن شرح: «نعم، بدا لي أن هذه الرسائل تستحق بضع ساعات من السفر بالقطار، وتكلفة تذكرتين ذهابًا وإيابًا».

- تذكرتان؟

- واحدة لي، والأخرى لأحد أصدقائي.

- أحد أصدقائك؟

- نعم. لقد غادر هذا الصديق قبل دقائق، وعبر الممرات، توجه إلى مقدمة القطار. كان في عجلة من أمره.

فهم براسفيل؛ لقد اتخذ لوبين الاحتياط بأن اصطحب شريكًا، وهذا الشريك كان يحمل الرسائل. أصبحت اللعبة واضحة؛ لوبين كان يمسك بالضحية بقوة. لم يكن أمام براسفيل سوى الاستسلام والخضوع لشروط المنتصر. قال براسفيل: «حسنًا، سيدي. عندما يحين الوقت، سنلتقي. إلى اللقاء يا دوبريك، ستسمع أخبارًا سارة». وأضاف، وهو يجر فورنغلاد: «أما أنت، فورنغلاد، فإنك تلعب لعبة خطيرة».

– لماذا، يا إلهي؟

غادروا جميعًا. لم ينطق دوبريك بكلمة، وبقي ثابتًا، وكأنه مُلصَق بالأرض. اقترب الرجل المسن منه وهمس: «أيها الدوبريك، يجب أن تستيقظ يا صديقي... ربما تأثير الكلوروفورم؟...». ضغط دوبريك على قبضتيه وأصدر صوتًا خافتًا. قال الرجل العجوز: «آه!... أرى أنك تعرفني...إذًا، هل تتذكر ذلك اللقاء منذ عدة أشهر، عندما جئت إلى منزلك في ساحة لامارتين لأطلب منك دعمك لصالح جلبير؟ قلت لك في ذلك اليوم: ضع السلاح. أنقذ جلبير، وسأتركك في سلام. وإلا فسأحصل على قائمة «**السبعة والعشرين**»، وستكون قد انتهيت. حسنًا، أعتقد أنك قد انتهيت. هذا هو ما يحدث عندما لا تتفق مع السيد لوبين. أنت على يقين من أنك ستخسر كل شيء في يوم من الأيام. أخيرًا! ليكن هذا درسًا لك! آه! محفظتك التي نسيت أن أعيدها إليك. عذرًا إذا وجدتها خفيفة قليلًا. كان فيها، إلى جانب عدد محترم من الأوراق النقدية، إيصال تخزين الأثاث الذي وضعته في المستودع عندما استعدت الأثاث من إنغين. لقد اعتقدت أنه يجب عليَّ توفير عناء تسليمه لك. في هذه اللحظة، يجب أن يكون قد حدث ذلك. لا، لا تشكرني. لا يوجد شيء لتشكرني عليه. وداعًا، دوبريك. وإذا احتجت إلى بضع ليرات لشراء سدادة أخرى لزجاجتك، فأنا هنا. وداعًا، دوبريك». ثم ابتعد.

لم تمضِ خمسون خطوة حتى سمع صوت طلقة. التفت. كان دوبريك قد أطلق النار على رأسه. تمتم لوبين وهو يخلع قبعته: «يا للحزن العميق».

بعد شهر، تمكَّن جلبير، الذي خُفِفت عقوبته إلى السجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة، من الفرار من جزيرة «ري»، في الليلة التي سبقت اليوم الذي كان من المقرر أن يُرحَّل إلى غيانا. كانت عملية هروب غريبة، تظل تفاصيلها غير مفسرة، والتي، إلى جانب إطلاق النار في بوليفارد أراجو، ساهمت في تعزيز سمعة أرسين لوبين.



قال لي لوبين بعد أن قصَّ عليَّ مختلف مراحل القصة: «في نهاية الأمر، لم يكن هناك أي مشروع كلفني عناءً، أو جهدًا أكثر من هذا، من هذه المغامرة اللعينة التي سنسميها، إذا أردت، السدادة الكريستال، أو كيف لا تفقد الشجاعة أبدًا. في اثنتي عشرة ساعة، من السادسة صباحًا حتى السادسة مساءً، أصلحت أخطاء ستة أشهر من الحظ السيئ، والأخطاء، والتجارب الفاشلة. تلك الساعات الاثنتا عشرة، أعتبرها بالتأكيد من بين أجمل وأمجد لحظات حياتي».

- وماذا عن جلبير، ماذا حدث له؟

- هو الآن يزرع أراضيه في أعماق الجزائر، باسمه الحقيقي، فقط باسم أنطوان ميرجي. تزوج إنجليزية، ولديهما ابن أصر على تسميته أرسين. أستلم منه غالبًا رسائل مليئة بالمرح والمودة. هنا، لديَّ واحدة أخرى اليوم. اقرأ: «يا سيدي، إذا كنت تعرف كم هو رائع أن تكون رجلًا نزيهًا، أن تستيقظ في الصباح ولديك يوم طويل من العمل أمامك، وأن تنام في المساء متعبًا من الإرهاق. ولكنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟ أرسين لوبين لديه طريقته

الخاصة، ليست شرعية تمامًا. لكن، لا بأس! في يوم الحساب، سيكون سجل أعماله الحسنة ممتلئًا لدرجة أنه من الممكن التغاضي عن الباقي. أحبك كثيرًا، يا سيدي». يا له من طفل طيب!

- وماذا عن السيدة ميرجي؟

- هي تعيش مع جلبير وابنها الصغير جاك.

- هل رأيتها مجددًا؟

- لم أرها مرة أخرى.

- حقًّا؟

تردد لوبين لعدة ثوانٍ، ثم قال لي مبتسمًا: «صديقي العزيز، سأكشف لك سرًّا سيجعلني أبدو سخيفًا في نظرك. لكنك تعرف أنني دائمًا ما كنت عاطفيًّا كمراهق، وساذجًا كإوزة بيضاء. حسنًا، في الليلة التي عدت فيها إلى كلاريس ميرجي، وأخبرتها بأخبار ذلك اليوم –التي كانت تعرف جزءًا منها بالفعل– شعرت بشيئين. أولًا، أنني كنت أشعر تجاهها بشعور أقوى مما كنت أعتقد، ثانيًا، أنها كانت تشعر تجاهي بشيء لم يكن خاليًا من الاحتقار أو الضغينة، أو حتى نوع من النفور».

- ماذا! ولماذا ذلك؟

- لماذا؟ لأن كلاريس ميرجي هي امرأة شديدة النزاهة، وأنا لست... سوى أرسين لوبين.

- آه!

- يا إلهي، نعم، لص لطيف، سارق رومانسي وفروسي، ليس سيئًا في جوهره... كل ما تريده... لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا، بالنسبة إلى امرأة نزيهة حقًّا، ذات شخصية مستقيمة وطبيعة متزنة، فأنا لا أعدو كوني... ماذا... مجرد محتال.

فهمت أن الجرح أعمق مما كان يعترف به، فقلت له: «إذًا، لقد أحببتها؟». قال بنبرة ساخرة:

«أعتقد، حتى إنني طلبت يدها للزواج. لقد أنقذت ابنها للتو... لذا... تخيلت أن... لقد تلقَّيت صدمة صنعت بيننا برودًا... منذ ذلك الحين».

- لكن منذ ذلك الحين هل نسيتها؟

- أوه! بالطبع. لكن كم كان ذلك صعبًا! ولأضع بيننا حاجزًا لا يمكن تجاوزه، تزوجت.

- أوه! هل تزوجت، أنت، لوبين؟

- بكل ما في الأمر من جدية، وبأكثر الطرق شرعية في العالم. واحدة من أعظم الأسماء في فرنسا. ابنة وحيدة... ثروة هائلة... كيف! ألا تعرف هذه القصة؟ إنها تستحق أن تعرفها.

ودون تأخير، بدأ لوبين، الذي كان في مزاج يسمح له للإفصاح، في سرد قصة زواجه من أنجيليك دي سارزو-فاندوم، أميرة بوربون-كونديه، التي أصبحت الآن الأخت ماري-أوغست، راهبة متواضعة تعيش في دير الدومينيكان...

لكن، عند الكلمات الأولى، توقف فجأة، كما لو أن قصته لم تعد تثير اهتمامه، وبقي متأملًا.

- ماذا بك يا لوبين؟

- أنا؟ لا شيء.

-نعم... أكمل! ها أنت تبتسم... هل هو مخبأ دوبريك، عينه الزجاجية، ما يجعلك تضحك؟

- في الحقيقة، لا.

- إذًا؟

- لا شيء، أقول لك... مجرد ذكرى...

- ذكرى سعيدة؟

- نعم... نعم... لذيذة حتى. كانت ليلة، قبالة جزيرة ري، على قارب الصيد حيث كنت أنا وكلاريس نصطحب جلبير... كنا وحدنا، نحن الاثنين، في مؤخرة القارب... وأتذكر... تحدثت، قلت كلمات وكلمات أخرى... كل ما كان في قلبي... ثم... ثم، كان هناك الصمت الذي يربك ويشعرك بالعجز...

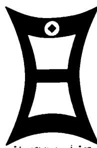
- وماذا بعد؟

- حسنًا، أقسم لك إن المرأة التي احتضنتها... أوه! لم يكن طويلًا، بضع ثوانٍ فقط... لا يهم! أقسم لك إنها لم تكن مجرد أم ممتنة، ولا صديقة استسلمت للعواطف، بل كانت امرأة أيضًا، امرأة مرتجفة ومضطربة...

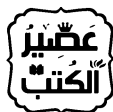
ثم ضحك ضحكة خافتة: «لقد هربت في اليوم التالي، لكيلا تراني مرة أخرى». ثم صمت مرة أخرى. ثم همس: «كلاريس... كلاريس... في اليوم الذي سأكون فيه متعبًا، سأذهب لأجدك هناك، في المنزل العربي الصغير... في المنزل الأبيض الصغير... حيث تنتظرينني، كلاريس... حيث أنا متأكد أنك تنتظرينني...».

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب






عصير
الكتب

أرسين لوبين

لغز السدادة الكريستال

في إحـدى مغامراته الأكثر إثارة، يجد أرسين لوبين نفسـه في مواجهـة مـع واحـدة من أخطـر الشـخصيات التي واجهـهـا على الإطلاق: النائـب دوبريك، رجـل بلا قلب ولا ضمير، يخفي وثيقة سرية قد تُغير مسار العدالة.

عندمـا يتورط اثنان مـن شركاء لـوبين في جريمة غامضة في أثناء اقتحـام منزل دوبريك، يُحكـم عليهما بالإعدام. لكـن لوبين يعـرف الحقيقة: واحـدٌ منهما بـريء، والآخر مذنب. وسـط مطاردة يائسـة في باريس وخارجهـا، يسـابق لـوبين الزمـن لإنقاذ بـريء من المشـنقة والكشـف عن أسرار دوبريك المخيفة.



غـلاف: محمود هشام







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

